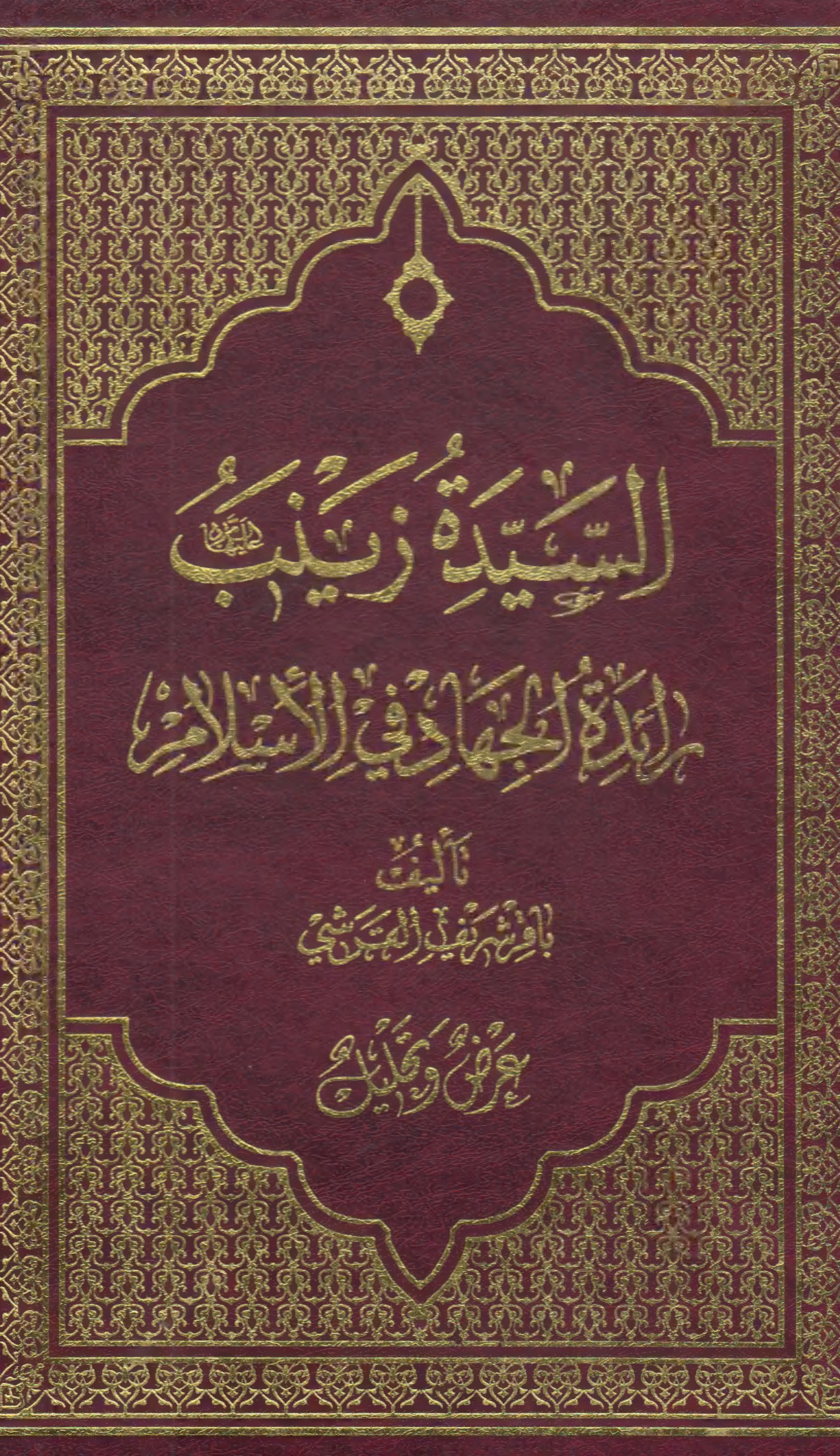
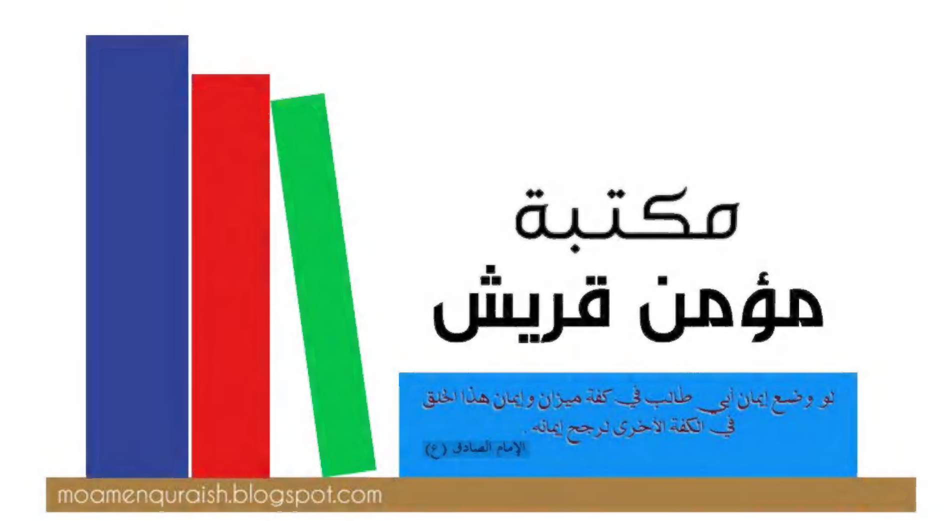

السيدة زينب عليها السلام
رائدة الجهاد في الإسلام
تأليف
باقر شريف القرشي
عرض وتحليل



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

السيدة زينب عليها السلام

رائدة الجهاد في الإسلام

عرض وتحليل

تأليف
باقر شريف القرشي

هوية الكتاب

الكتاب................ السيّدة زينب رائدة الجهاد في الإسلام

المؤلّف.................. باقر شريف القرشي

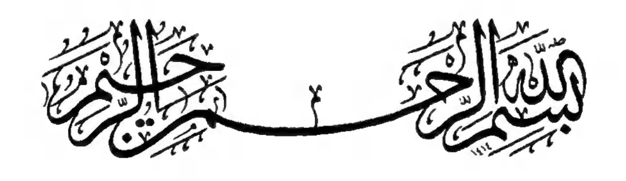
الناشر............................ المؤلّف

الطبعة .... الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م

المطبعة............................ شريعت

شابك ١ ـ ٢ ـ ٩٢٦٤٢ ـ ٩٦٤ ISBN 964 - 92642 - 2 - 1


بسم الله الرحمن الرحيم



﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

آل عمران : ٣٣ ـ ٣٤

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾

الأحزاب : ٣٣

﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى
وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

الشورى : ٢٣

الإهداء

إلى ريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيّد شباب أهل الجنة، الإمام الحسين عليه السلام.. أرفع إلى مقامه الرفيع هذه الدراسة عن شقيقته وشريكته في نهضته، والمطالبة بثأره حفيدة الرسول السيّدة زينب عليها السلام، راجياً أن يتفضل عليّ بالقبول، ويمنحني السعادة والشفاعة يوم ألقى الله .

تقديم



السيّدة زينب حفيدة الرسول ﷺ هي أول سيدة في دنيا الإسلام صنعت التأريخ ، وأقامت صروح الحق والعدل ، ونسفت قلاع الظلم والجور ، وسجّلت في مواقفها المشرّفة شرفاً للإسلام وعزاً للمسلمين على امتداد التأريخ .

لقد أقامت سيّدة النساء صروح النهضة الفكرية ، ونشرت الوعي السياسي والديني في وقت تلبّدت فيه أفكار الجماهير وتخدّرت وخفي عليها الواقع ، وذلك من جرّاء ما تنشره وسائل الحكم الأُموي من أن الأُمويين أعلام الإسلام وحماة الدين وقادة المتّقين ، فأفشلت مخططاتهم وأبطلت وسائل إعلامهم ، وأبرزت بصورة إيجابية واقعهم الملوّث بالجرائم والموبقات وانتهاك حقوق الإنسان ، كما دلّت على خيانتهم وعدم شرعية حكمهم ، وأنّهم سرقوا الحكم من أهله ، وتسلّطوا على رقاب المسلمين بغير رضا ومشورة منهم . لقد أعلنت ذلك كلّه بخطبها الثورية الرائعة التي وضعت فيها النقاط على الحروف ، وسلّطت الأضواء على جميع مخططاتهم السياسية وجرّدتها من جميع المقومات الشرعية



وتجسدت في حفيدة الرسول ﷺ جميع الصفات الكريمة والنزعات الشريفة ، فكانت أروع مثلٍ للشرف والعفاف والكرامة ولكل ما تعتزّ به المرأة وتسمو به في دنيا الإسلام .

لقد ورثت العقيلة من جدّها الرسول ﷺ ومن أبيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جميع ما امتازوا به من المثل الكريمة ، والذي كان من أبرزها الإيمان العميق بالله تعالى ، فقد ضارعتهما العقيلة في هذه الظاهرة ، وقد روى المؤرخون عن إيمانها صوراً مذهلة كان منها أنها صلّت ليلة الحادي عشر من محرم ، وهي أقسى ليلة في تأريخ الإسلام ، صلاة الشكر لله تعالى على هذه الكارثة الكبرى التي حلّت بهم والتي فيها خدمة للإسلام ورفع لكلمة التوحيد .

وكان من عظيم إيمانها وإنابتها إلى الله تعالى أنها في اليوم العاشر من المحرم وقفت على جثمان أخيها ، وقد مزّقته سيوف الكفر ومثّلت به العصابة المجرمة ، فقالت كلمتها الخالدة التي دارت مع الفلك وارتسمت فيه قائلةً : «اللّهمّ تقبّل هذا القربان ، وأثبه على عمله...» .

تدول الدول وتفنى الحضارات وهذا الإيمان أحقّ بالبقاء وأجدر بالخلود من هذا الكوكب الذي نعيش عليه .



وأقسى كارثة مدمّرة مُني بها العالم الإسلامي في جميع مراحل تأريخه

إقصاء أهل بيت النبوة ومعدن الرحمة عن المسرح السياسي ، وتسليم قيادة الأمة ومقدّراتها إلى غيرهم ، فقد اندفع قادة الانقلاب بعد وفاة النبي ﷺ ـ فيما أجمع عليه المؤرخون ـ رافعين عقيرتهم قائلين: «لا تجتمع النبوة والخلافة في بيتٍ واحدٍ...» .

ولم يحفلوا بوصايا النبي ﷺ في حقّ أهل بيته من أنّهم سفن نجاة الأمة وأعلام هدايتها وباب حطتها ، وقال فيهم: «لا تتقدموهم فتهلكوا ، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم» .

وقرنهم بمحكم التنزيل فقال مكرراً: «إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله حبل ممدودٌ من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما...»[1] .

إنّ الإمعان والتدبّر في الوثائق السياسية التي ذكرها المؤرخون بعد وفاة النبي ﷺ تبدو فيها بصورة واضحة حقيقة المؤامرة ودوافعها التي دبرت ضد أهل البيت ، والتي كان من أظهرها الحسد لعترة النبي ﷺ على ما منحهم الله من الفضل وما خصّهم من المنزلة والكرامة ، مضافاً إلى التهالك على السلطة والاستيلاء على مقدّرات الدولة ، وتُلقي هذه الدراسة الأضواء على ذلك بصورة أمينة وبعيدة عن المؤثرات التقليدية .

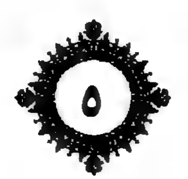


وحُرمت الأمة بجميع شرائحها من الانتهال من نمير علوم أهل البيت الذين

---

(١) المراجعات : ٤٩ ، نقلاً عن كنز العمّال ١ : ٤٤ ، والترمذي ، وحفلت مصادر الحديث بتخريج الرواية وتصحيحها .

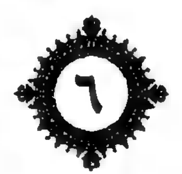
هم خزنة علم النبي ﷺ وسدنة حكمته ، فكان سيّد العترة وعملاق الفكر الإسلامي الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بمعزلٍ تامٍ عن الحياة السياسية والعملية طيلة حكم الخلفاء ، ولما آل إليه الأمر وتقلّد زمام الحكم ثارت عليه الرأسمالية القرشية التي ناجزت الرسول الأعظم ﷺ ، كما ثار عليه الطامعون والمنحرفون عن نهج الحقّ ، فجرّعوه الغصص والآلام وشغلوه حتى عن نفسه ، ومُني العالم الإسلامي بخسارة عظمى ، فلم يفسح المجال لهذا الإمام الملهم العظيم أن ينشر علومه بين الناس . ومن المؤسف حقاً أن الأئمّة من بعده واجهوا المصير الذي لاقاه جدّهم الإمام أميرالمؤمنين ؛ فقد عمد الأُمويون والعباسيون إلى حجبهم عن الأوساط الشعبية حتى لا تعرف قدراتهم العلمية ، وكلّ هذه الضربات القاسية التي عانتها الأُمّة من جراء فصل القيادة العامّة عن أهل البيت عليهم السلام .



ومن النتائج المؤسفة والمحزنة بعد إقصاء العترة الطاهرة عن شؤون الحكم أن آلت الخلافة الإسلامية التي هي ظلّ الله في الأرض إلى (بني أُمية) ، الذين هم الشجرة الملعونة في القرآن ، فاتّخذوا مال الله دولاً وعباد الله خولاً ، وأشاعوا الجور والظلم بين الناس ، واستهدفوا المصلحين ورجال الوعي بالإعدام والتنكيل ، فقد أعدم معاوية بن أبي سفيان أعلام الإسلام وحماته أمثال : حجر بن عدي وأصحابه المجدّدين ، وعمرو بن الحمق الخزاعي وغيرهم ، وتتبع أخوه اللاّشرعي الارهابي زياد ابن أبيه شيعة الإمام أمير المؤمنين الذين يمثّلون الوعي الديني والسياسي في المجتمع الإسلامي ، فنفّذ في معظمهم الإعدام ، وأخلد الكثيرين منهم

في ظلمات السجون ، وسار على هذه السياسة الخرقاء السوداء عمّاله وولاته وسائر ملوك بني أُمية من بعده ، فأوعزوا إلى رجال أمنهم وأجهزة حكمهم بمطاردة شيعة آل البيت وإبادتهم تحت كلّ حجر ومدر .

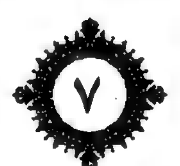
لقد كانت سياستهم شعلة من النار تحرق المصلحين وتبيد المؤمنين وتحمي الفاسقين وتساند الضالّين .



وظهر على مسرح السياسة الإسلامية بعد هلاك معاوية ولده يزيد ، وهو فيما أجمع عليه المؤرخون : حاكم ظالم ، جاهلي ، لم يؤمن بالله طرفة عين ، قد خلد إلى الفسق والفجور واقتراف كل ما حرّم الله من إثم ، وقد أعلن كفره وإلحاده ومروقه عن الدين بقوله :

لَـعِبَتْ هَـاشِمُ بِـالْمُلْكِ فَلَا خَـبَرٌ جَـاءَ وَلَا وَحْـيٌ نَـزَلْ

وقد تفجّرت سياسته في جميع مراحل حكمه بكل ما خالف كتاب الله وسنّة نبيه ، من إشاعة المنكر والفجور ، واستعباد المسلمين ، وإرغامهم على ما يكرهون... ، لقد سلّطه أبوه معاوية على جميع مقدّرات الدولة الإسلامية ، ومكّنه من رقاب المسلمين مع علمه وإحاطته التامة بنزعاته الجاهلية وتحلّله من جميع القيم والأعراف الإنسانية ، فهو المسؤول أمام الله وأمام التأريخ والأُمة عن موبقات هذا الوغد الجاهلي الذي حوّل حياة المسلمين إلى جحيم لا يطاق .



وليس في العالم الإسلامي من يستطيع أن يقول كلمة الحق ، ويغيّر

مجرى التأريخ غير سبط رسول الله ﷺ وريحانته ووارث علمه الإمام الحسين عليه السلام ، ففجّر ثورته الكبرى التي أعزّ الله بها الإسلام ، وأوضح بها الكتاب ، وجعلها عبرة لأُولي الألباب ، تُمدّ المسلمين على امتداد التأريخ بالعزّة والكرامة والتمرّد على الظلم ، ومصارعة الطغاة ، ومناجزة المستبدين .

لقد كانت ثورة الإمام الحسين عليه السلام من أهم الثورات الإصلاحية التي عرفها التأريخ الإنساني ، فقد هزّت الضمير العالمي وذلك بفصولها المروّعة ، ومآسيها الخالدة في دنيا الأحزان ، كما أنها تحمل عطاءً فكرياً ودروساً مشرقة لجميع شعوب العالم لإنقاذها من ويلات الاستعمار والاستعباد ، وستبقى حيّةً مشرقةً حتى يرث الله الأرض ومن عليها .



وكانت الأحداث المفزعة التي مُني بها العالم الإسلامي في أيام معاوية وولده يزيد بمرأى ومسمع من الإمام الحسين عليه السلام ، فقد رأى باطلاً يحيا ، وصادقاً يكذب ، وكاذباً يصدق ، ومفسداً يُعظّم ، وأثرة بغير تقى ، قد عطلت حدود الله ، وجمدت أحكام الإسلام ، لا آمر بمعروف ، ولا ناهٍ عن منكر ، فلم يستطع سبط رسول الله ﷺ الصبر على هذه الكوارث التي مني بها العالم الإسلامي ، فأعلن سلام الله عليه ثورته الكبرى على الحكم الأُموي مستهيناً بالموت ، عازماً على الشهادة ، وأعلن كلمته الخالدة التي هي وسام شرف وفخر للإسلام ، ونشيد لأحرار العالم في كل زمان ومكان قائلاً : « لا أرى الموت إلّا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلّا برماً... » . واستقبل الموت هو وأهل بيته وأصحابه بثغورٍ باسمة ونفوس

مطمئنة ، لإنقاذ المسلمين من استعباد الأُمويين وظلمهم ، وإعادة الحياة الإسلامية إلى مجراها الصحيح .



وساهمت حفيدة الرسول ﷺ السيّدة زينب عليها السلام في الثورة الحسينية ، وشاركت في جميع ملاحمها وفصولها مشاركة إيجابية وفاعلة ، فقد وقفت إلى جانب شقيقها في أول مرحلة من مراحل جهاده ، وهي على علم لا يخامره أدنى شك من شهادته ، وما يجري عليه وعليها من صنوف الكوارث والخطوب ، أخبرها بذلك أبوها الإمام أمير المؤمنين باب مدينة علم النبي ﷺ ، كما أسرّ إليها بذلك أخوها الإمام الحسين عليه السلام ، فانطلقت سلام الله عليها بإرادة وعزم وتصميم إلى مساندة أخيها ومشاركته في ثورته الكبرى التي غيّرت مجرى التأريخ ، وأمدّت العالم الإسلامي بجميع عوامل النهوض والارتقاء .

لقد آمنت حفيدة الرسول ﷺ بثورة أخيها أبي الأحرار ، وجاهدت جهاداً لم يعرف التأريخ مثله في مرارته وأهواله ، وتبنّت جميع مخططات الثورة وأهدافها ، وهي التي أبرزت قيمها الأصيلة في خطبها التأريخية في أروقة الحكم الأُموي ، فبلورت الرأي العام ، وأوجدت وعياً أصيلاً كان من نتائجه الثورات الشعبية المتلاحقة التي أطاحت بالحكم الأُموي وأزالت ذلك الكابوس المظلم عن الأُمة الإسلامية .



وليس في العالم الإسلامي وغيره امرأة تضارع سيدة النساء السيّدة زينب

في قوة شخصيتها ، وصلابة عزيمتها ، وعظيم إيمانها ، فقد رأت ما حلّ بأهلها من الرزايا والكوارث التي تميد من هولها الجبال ، وهي صامدة قد تسلّحت بالصبر ، وسلّمت أمرها إلى الله تعالى .

رأت حفيدة الرسول ﷺ الشباب الذين هم كالبدور من أبنائها ، وأبناء اخوتها وعمومتها قد تقطّعت أوصالهم على صعيد كربلاء ، رأت الأطفال الأبرياء من أهل البيت يذبحون بوحشية لا مثيل لها بأيدي أُولئك القساة الممسوخين .

رأت حرائر النبوة قد أشرفن على الهلاك من ألم العطش القاتل وهنّ يندبن بذوب أرواحهنّ قتلاهنّ ، وهي سلام الله عليها تسليهنّ وتأمرهنّ بالخلود إلى الصبر .

رأت أخاها سيّد الشهداء الذي هو عندها أعزّ من الحياة قد أحاطت به أوغاد البشرية ، وهم يوسعونه ضرباً بسيوفهم ورماحهم ونبالهم حتى احتزّوا رأسه الشريف .

رأت هجوم الكفرة العتاة بعد مقتل أخيها على خيام النساء وقد أضرموا النار فيها ، والمخدّرات من بنات الرسول يتراكضن في البيداء خوفاً من الحريق وقد تكالب على نهبهن أعداء الله . . .

كلّ هذه المصائب والرزايا قد حلّت بحفيدة النبي ﷺ ، فما استكانت ولا وهنت وإنّما زادتها إيماناً وتماسكاً وتسليماً لأمر الله .



إنّ كارثة كربلاء وما جرى على بنات رسول الله ﷺ من صنوف الأسْر والذلّ والتنكيل تستدعي أن ننظر إلى الوثائق السياسية وإلى الاحداث التي

جرت بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة ، فإنّها المصدر الأساسي لما حلّ بأهل البيت من عظيم الرزايا والخطوب .

إنّ مؤتمر السقيفة ونظام الشورى هما من أهمّ العوامل التي أدّت إلى استيلاء بني أُمية على كرسي الحكم ، وتسلّطهم على رقاب المسلمين ، وإبادتهم لعترة النبي ﷺ ، فلولا السقيفة والشورى لما حلم الأُمـويون بأيّ منصب من مناصب الدولة الإسلامية ، فقد أذلّهم الإسلام منذ فجر تأريخه ، واستهان بهم المسلمون لأنهم من ألدّ أعدائهم الذين ناجزوهم الحرب ، وجهدوا على محو دين الله ، وحاولوا قتل رسول الله ﷺ .

إن الأجهزة الحاكمة بعد وفاة النبي ﷺ، قـرّبت الأُسـرة الأُمـوية وأزالت عنهم كابوس الذلّ والهوان الذي ضربه عليهم الإسلام ، فمنحتهم الثراء العريض وقلّدتهم معظم المناصب في الدولة الإسلامية ، وكان من أعظم المنتفعين منهم الذئب الجاهلي معاوية بن أبي سفيان فقد أسندوا إليه ولاية الشام ، وزادوا في رقعة سلطانه ، ومنحوه كل تسديد وتأييد ، تتوافد الأخبار إلى الخليفة الثاني أنّ معاوية يسرف في أموال المسلمين ، ويشيد القصور ، ويقترف كلّ ما حرّم الله ، فيلبس الحـرير ، ويشـرب ويأكل في أواني الذهب والفضة ، وذلك محرّم في الإسلام ، فيعتذر عنه ويقول : « ذاك كسرى العرب » وليس ـ والحمد لله ـ في شريعة الإسلام كسروية ولا قيصرية ، فجميع المسلمين سواء أمام القانون لا يـفضّل بعضهم على بعض إلّا بالتقوى وعمل الخير ، ثم هل يباح لكسرى العرب أن يقترف ما حرّم الله وتنتفي عنه المسؤولية الشرعية ، ومـتى كـان معاوية كسرى العرب ، فقد أذلّه الإسلام وأسقطه اجتماعياً ، ووسـمه وأفراد أُسرته بالشجرة الملعونة في القرآن ، كما وسمهم الرسول ﷺ بالطلقاء .

وعلى أيّ حال ، فإنّ أدنى تأمل في أحداث كربلاء وما عانته عترة النبي ﷺ من الويلات والكوارث يستند بصورة أوّلية لا تقبل الجدل والشك إلى مؤتمر السقيفة والشورى ، فهما مصدران لكل كارثة جرت على آل البيت ، كما هما السبب في كل فتنة مُني بها المسلمون على امتداد التأريخ .



إنّ أعظم خدمة تُؤدى للأمة، وأكثر عائدة عليها بفضل ، هي إبراز القيم الأصيلة والمثل العليا لأهل البيت عليهم السلام ، وإشاعة فضائلهم ومآثرهم بين الناس ، فإنّ لها التأثير المباشر في نشر الفضيلة وتهذيب الأخلاق وتنمية السلوك نحو الافضل ، فإنهم سلام الله عليهم أشعة من نور الله في كلامهم وسيرتهم وسلوكهم ، وهم سفن نجاة هذه الأمة وعُدلاء الذكر الحكيم حسبما تواترت الأخبار بذلك عن جدّهم رسول الله ﷺ .

إن حياة أهل البيت مدرسة من مدارس التقوى والإيمان والجهاد والكفاح ، قد وهبوا حياتهم لله تعالى ، وأخلصوا كأعظم ما يكون الإخلاص له ، فلا تقرأ سيرة أحدٍ منهم إلّا تجد ملف حياته حافلاً بتقوى الله وطاعته ، صياماً في النهار ، وقياماً بالصلاة ، وتلاوة الكتاب بالليل ، كما أن البارز في سيرتهم إشاعة العلم والحكمة والآداب بين الناس ، والبرّ بالفقراء ، والعطف على البؤساء ، ومقارعة الباطل ، ومناجزة الظلم ، ومقاومة حكّام الجور ، فقد تبنّوا سلام الله عليهم قضايا المسلمين فناجزوا حكام عصورهم الذين أشاعوا الظلم والفساد في الأرض ، فتعرّضوا جميعاً إلى التنكيل والاضطهاد من الحاكمين حتى استشهدوا

جميعاً بين مقتول ومسموم .



ومن بين أهل البيت الذين رفعوا كلمة الله عاليةً في الأرض سيّدة النساء السيّدة زينب ، فهي أول سيّدة مجاهدة في الإسلام ، وقد عانت أشقّ وأقسى أنواع المحن والخطوب ، فقد سُبيت بعد مقتل أخيها من كربلاء إلى الكوفة ، ومعها باقي بنات رسول الله ﷺ ، وأُدخلن على ابن مرجانة الذي هو أقذر إرهابي مجرم عرفه التأريخ ، فجرت مشادّة بينه وبين السيّدة زينب فاستهانت به واحتقرته ، فاستشاط الخبيث الدنس غضباً وهمّ بضرب حفيدة النبيﷺ ، إلّا أنّه امتنع ، فقد عذله بعض الحاضرين مخافة الفتنة والاضطراب ، ثم حُملن إلى الشام سبايا فأُدخلن على يزيد حفيد أبي سفيان ، فخطبت السيّدة زينب في بلد يزيد خطابها التأريخي الخالد الذي نعت فيه قتله لسيّد الشهداء وأسره لبنات رسول الله ﷺ ، يتصفّح وجوههن القريب والبعيد ، وقد بلورت فيه الرأي العام ، وأيقظت الجماهير من سباتها ، وجرّدت الحكم القائم من كل شرعية ودعت المسلمين إلى الإطاحة به .

لقد تجرّعت حفيدة الرسول ﷺ الغصص والمصائب التي تذوب من هولها الجبال ، كل ذلك من أجل الإسلام والحفاظ على مبادئه وقيمه ومناهضة الظلم والاستبداد . إنّ السيّدة زينب سلام الله عليها بمواقفها البطولية وكفاحها المشرّف ضد الظلم والطغيان يجب أن تكون قدوة فذّة لجميع السيّدات من نساء المسلمين ، وأن يتّخذنها قائدة لمقارعة الظلم ونشر العدل في الأرض .

١٤

وفي ختام هذا التقديم أرجو أن أكون قد أدّيت في هذه الدراسة عن حفيدة النبي ﷺ بعض فروض المحبّة والولاء لأهل بيت النبوة الذين فرض الله مودّتهم في كتابه الكريم ، وأن أكون قد ساهمت في إبراز بعض قيم هذه السيّدة الجليلة التي هي أسمى وأرفع امرأة في الإسلام بعد أُمّها سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام ، آملاً من الله تعالى أن تنالني شفاعتها يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم ،كما أرى أنّ من الحقّ عليّ أن أشيد بسماحة أخي حجة الإسلام والمسلمين العلّامة الكبير الشيخ هادي شريف القرشي ففي ذرى عطفه ورعايته ألّفت هذا الكتاب وغيره ، والله تعالى هو الذي يتولّى جزاءه كما يجازي المحسنين من عباده ، إنه تعالى وليُّ التوفيق .

النجف الأشرف
١٨ / شعبان / ١٤١٤هـ
باقر شريف القرشي

النسب الوضاح

ليس في دنيا الإسلام وغيره نسبٌ أرفع ولا أسمى من نسب السيّدة زينب سلام الله عليها ، فقد تفرّعت من دوحة النبوة والإمامة ، والتقت بها جميع أواصر الشرف والكرامة ، فهي فرع زاكٍ من رسول الله ﷺ ومن الإمام عليّ عليه السلام ، وهما من أفضل ما خلق الله من بني الإنسان ، فتبارك هذا النسب الوضّاح وتعالت تلك الأُسرة الكريمة التي أعزّ الله بها العرب والمسلمين وجعلها مصدر الوعي والإلهام للمسلمين على امتداد التأريخ .

إنّ الأُسرة العلوية هي أسمى أُسرة عرفها التأريخ بجهادها ونضالها وتبنّيها لحقوق الإنسان وقضايا مصيره ، ومقاومتها للظلم والطغيان ، فليس في أُمم العالم وشعوب الأرض مثل أُسرة العلويين في دفاعهم عن حقوق المظلومين والمضطهدين ، وقد استشهد المئات منهم من أجل حرية الإنسان وكرامته .

وعلى أيّ حال فهذه لمحة موجزة عن الأُصول الكريمة التي تفرّعت منها سيّدة النساء زينب عليها السلام .

الجدّ :

أمّا جدّ السيّدة زينب فهو سيّد الكائنات رسول الله ﷺ ، الذي فجّر ينابيع العلم والحكمة في الأرض ، وأسّس معالم الحضارة والتطوّر ، وبنى مجتمعاً كريماً تسوده

العدالة والقانون ، وسحق خرافات الجاهلية وعاداتها ودمّر أصنامها وأوثانها ، ودعى إلى توحيد الله خالق الكون وواهب الحياة ، وجاء بالخير العميم لأُمّته ولكلّ ما تسمو به من التقاليد والعادات ، فما أعظم عائدته عليها وعلى البشرية جمعاء ، لقد أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين ، ومنار هداية لخلقه أجمعين ، فكان صلوات الله عليه كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١) ، فهو رحمة للناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، حريصٌ على هدايتهم وإسعادهم ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) .

لقد تشرّفت الإنسانية برسول الله ﷺ ، وأشرقت الدنيا بدعوته ، وتوطدت أركان العدالة بدينه ، فهو ﷺ القائد الملهم لقضايا الفكر والوعي في الأرض .

هذا رسول الله ﷺ ، ونبيّ الرحمة جدّ سيدة النساء زينب عليها السلام ، وقد ورثت منه خصائصه ومميزاته ، والتي منها الدفاع عن الحق ، ورفع كلمة الله عالية في الأرض .

الجدّة :

أمّا جدّة السيّدة زينب فهي أُمّ المؤمنين وسيّدة نساء النبي ﷺ خديجة الكبرى التي نصرت الإسلام في أيام محنته وغربته ، وجاهدت في سبيل الله كأعظم ما يكون الجهاد ، وقد بذلت جميع ما تملكه في نصرة الإسلام ، وكانت من أثرى قريش ، فلم تعد بعد ثرائها العريض تملك ما تجلس عليه سوى حصيرٍ بالٍ ، فكانت رضوان الله عليها من أهم الدعائم لإقامة دين الإسلام ، وهي التي أمدّت النبي ﷺ ومن كان

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) التوبة : ١٢٨ .

معه طوال المدة التي اعتقلتهم فيها طغاة قريش في (الشِعب) ، وكانت تهوّن على النبي ﷺ المصاعب والمصائب التي كان يعانيها من جهّال قريش وأوغادها ، وكان النبي ﷺ يشكر أياديها البيضاء ، وما أسدته عليه من عظيم اللطف والفضل ، فكان يذكرها دوماً بعد وفاتها ويترحّم عليها ، وكان إذا ذبح شاة بعث بأطيب ما فيها إلى صديقاتها وفاءً لها ، وكانت عائشة يثقل عليها ذلك ، فكانت تندّد بها وتقول لرسول الله ﷺ : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها ، فيردّ النبي ﷺ ويقول : « ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر بي الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ، ورُزقت منها الولد وقد حرمته من غيرها » ، لقد رزقه الله منها سيّدة نساء العالمين الصدّيقة فاطمة الزهراء عليها السلام التي هي نفحة من روح الله تعالى .

إن السيّدة خديجة أسمى امرأة مجاهدة في الإسلام هي جدّة الصدّيقة زينب عليها السلام ، وقد ورثت صفات جدتها التي منها الاندفاع في نصرة الحقّ والذبّ عن المثل العليا ، وقد ظهرت هذه الصفات بوضوح عند العقيلة ، فقد وقفت إلى جانب أخيها الإمام الحسين عليه السلام فهي شريكته في نهضته وجهاده ، وهي التي أمدّت ثورته الجبارة الخالدة بعناصر البقاء والخلود .

الأُمّ :

أمّا أُمّ السيّدة زينب فهي البتول الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها ، سيدة نساء العالمين في فضلها وعفّتها وطهارتها من الزيغ والرجس ، وهي بضعة رسول الله ﷺ وريحانته وأعزّ أبنائه وبناته عنده ، وبلغ من عظيم حبّه لها أنّه إذا سافر جعلها آخر من يودّعها لتكون صورتها ماثلة أمامه ، كما أنّه إذا قدِم من سفره كان أوّل من يستقبلها [١] ، وذلك لسموّ مكانتها وعظيم شأنها ، وقد عنى بها عناية بالغة فغذّاها

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥ : ٢٧٥ . مستدرك الصحيحين ٣ : ١٥٦ . سنن البيهقي ١ : ٢٦ .

بمكرماته ، وأفاض عليها أشعة من روحه التي ملأ سناها الكون ، وغرس في نفسها عناصر حكمته وفضائله ، فكانت صورة تحكيه ومثالاً صادقاً عنه ، ويقول الرواة: أنّها كانت من أشبه الناس به هدياً وحديثاً ومنطقاً [١] .

وكانت فيما أجمع عليه الرواة من أشفق الناس وأخلصهم لأبيها وأبرّهم به ، فإذا رأته متأثراً أو حزيناً ذابت أسى وموجدة ، ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو نعيم بسنده عن أبي ثعلبة ، قال: قَدِم رسول الله ﷺ من غزاة له المسجد فصلّى فيه ركعتين ـ وكان يعجبه إذا قَدِم أن يدخل المسجد فيصلي فيه ركعتين ـ ثم خرج فأتى فاطمة عليها السلام فبدأ بها قبل بيوت أزواجه فجعلت تقبّل وجهه وعينيه وتبكي ، فقال لها رسول الله ﷺ: « ما يبكيك ؟ » قالت: « أراك قد شحب لونك » ، فقال لها: « يا فاطمة ، إنّ الله عزّ وجلّ بعث أباك بأمر لم يبق على ظهر الأرض مدر ولا شعر إلّا أدخله به عزّاً أو ذلاً [٢] » حيث سطع الليل [٣] .

تكريم وتعظيم:

وأحاط النبي ﷺ بضعته الطاهرة بهالة من التقديس والتكريم إظهاراً لعظيم شأنها ، وسموّ مكانتها عند الله تعالى وعنده ، وقد نقل الرواة عنه كوكبة من الأحاديث في ذلك كان منها ما يلي:

---

(١) صحيح الترمذي ٢: ٣١٩، رواه بسنده عن عائشة . ورواه الحاكم في مستدرك الصحيحين بسنده عنها ٣: ١٥٤ . ورواه البخاري في الأدب المفرد: ١٤١ . ورواه أبو عمرو في الاستيعاب ٢: ٧٥١ .

(٢) معنى الحديث أنّ البيوت التي دخلها العزّ هي التي آمنت بالإسلام ، وأمّا البيوت التي دخلها الذلّ فهي التي لم تؤمن بالإسلام وبقيت على كفرها وضلالها .

(٣) حلية الأولياء ٢: ٣٠ . كنز العمّال ١: ٧٧ . مجمع الزوائد ٨: ٢٦٢ .

١ ـ قال رسول الله ﷺ : « يا فاطمة ، إن الله عزّ وجلّ يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك »[١] .

٢ ـ قال رسول الله ﷺ لفاطمة : « إنّ الربّ يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك »[٢] .

٣ ـ قال رسول الله ﷺ : « يا فاطمة ، إنّ الله ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك »[٣] .

ومعنى هذه الأحاديث التي تقاربت في مؤداها أنّ لسيّدة النساء سلام الله عليها منزلة سامية عند الله ، فقد أناط رضاه برضاها ، وأناط غضبه بغضبها ، وهذه أسمى وأرفع منزلة يصل إليها القدّيسون من عباد الله .

لقد انتهت سيّدة النساء إلى هذه المكانة عند الله تعالى ، وذلك لما تتمتّع به من طاقات هائلة من الإيمان والتقوى حتى كان ذلك من عناصرها ومقوماتها .

٤ ـ قال رسول الله ﷺ : « فاطمة بضعةٌ منّي ، فمن أغضبها أغضبني »[٤] .

٥ ـ قال رسول الله ﷺ : « فاطمةٌ بضعة منّي ، يؤذيني ما آذاها ، ويصيبني ما أصابها »[٥] .

٦ ـ قال رسول الله ﷺ : « فاطمة بضعة منّي ، يريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما

---

(١) ذخائر العقبى : ٣٩ . ومثله رواه الحاكم في مستدرك الصحيحين وعلّق عليه : « هذا حديث صحيح الإسناد » كما جاء في أُسد الغابة ٥ : ٥٢٢ . الإصابة ٨ : ١٥٩ .

(٢) ميزان الاعتدال ـ الذهبي ٢ : ٧٢ .

(٣) كنز العمال ٦ : ٢١٩ .

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب بدء الخلق في باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ ٣ : ١٣٦١ ، ح٣٥١٠ ، ط ٥ .

(٥) صحيح الترمذي ٢ : ٣١٩ . مسند أحمد بن حنبل ٤ : ٥ .

آذاها »[١] .

٧ ـ قال رسول الله ﷺ : « إن فاطمة شجنة منّي ، يبسطني ما يبسطها ، ويقبضني ما يقبضها »[٢] .

وحكت هذه الأحاديث بصورة واضحة أنّ من يخدش عاطفة الزهراء عليها السلام أو يسيئ إليها بأيّ لون من ألوان الإساءة ، فقد واجه أباها رسول الله ﷺ بذلك ؛ لأنها كنفسه ، وأنها بمقتضى هذه الأحاديث نسخة لا ثاني لها في فضائلها ومواهبها .

٨ ـ روت عائشة أنّ النبي ﷺ قال في مرضه الذي توفّي فيه لفاطمة : « يا فاطمة ، ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء العالمين ، وسيّدة نساء هذه الأُمة ، وسيّدة نساء المؤمنين »[٣] .

٩ ـ روى عمران بن حصين : أنّ النبي ﷺ قال : « ألا تنطلق بنا نعود فاطمة فإنها تشتكي » فقلت : بلى ، فانطلقنا حتى إذا انتهينا إلى بابها فسلّم واستأذن ، فقال : « أدخل أنا ومن معي » قالت : « نعم ، ومن معك يا أبتاه ؟ فوالله ما عليَّ إلّا عباءة » ، فقال : « اصنعي بها كذا » ، فعلّمها كيف تستتر ، فقالت : « والله ما على رأسي من خمار » ، فأخذ ملاءة كانت عليه فقال : « اختمري بها » ، ثمّ أذنت لهما فدخلا ، فقال : « كيف تجدينك يا بنيّة ؟ » قالت : « إنّي لوجعة ، وإنّه ليزيدني أنّه ما لي طعام آكله » ، قال : « يا بنيّة ، أما ترضين إنّك سيّدة نساء العالمين » قالت : « يا أبتِ ، فأين مريم ابنة عمران ؟ » قال : « تلك سيّدة نساء عالمها ، وأنت سيّدة نساء العالمين ، أما والله زوّجتك سيّداً في الدنيا والآخرة »[٤] .

---

(١) صحيح الترمذي ٢ : ٣١٩ . صحيح مسلم .

(٢) كنز العمّال ٦ : ٢١٩ . مستدرك الصحيحين ٣ : ١٥٤ .

(٣) مستدرك الصحيحين ٣ : ١٥٦ .

(٤) حلية الأولياء ٢ : ٤٢ . مشكل الآثار ١ : ٥٠ . ذخائر العقبى : ٤٣ .

١٠ ـ روى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام : « أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لفاطمة سلام الله عليها : ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساءأهل الجنة ، وابنيك سيّدا شباب أهل الجنة »[١].

١١ ـ روى أنس بن مالك ، أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال : « خير نساء العالمين أربعٌ : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله »[٢] .

وكثير من أمثال هذه الروايات دُوِّنت في الصحاح والسنن وغيرهما وهي تشيد بفضل سيّدة النساء ، وأنّ الله تعالى قد قلّدها أسمى أوسمة الشرف ، وفضّلها على جميع نساء العالمين .

وهذه البتول سيّدة نساء العالمين هي أمّ السيّدة زينب سلام الله عليها ، وهي التي تولّت تربيتها ونشأتها ، فغذّتها بمعارف الإسلام وحكمه وآدابه ، وغرست في أعماق نفسها الإيمان بالله والانقطاع إليه ، حتى صار ذلك من مقوماتها وذاتياتها ، فكانت نسخة لا ثاني لها في فضائلها وصفاتها ، فلم ير مثلها في نساء المسلمين وغيرهم في كمالها وآدابها وسائر نزعاتها .

الأبّ :

أما أبو الصدّيقة الطاهرة زينب عليها السلام فهو الإمام أمير المؤمنين رائد الحكمة والعدالة في الإسلام ، أخو النبي صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه ، ومَن كان منه بمنزلة هارون من موسى ، وهو ـ فيما أجمع عليه الرواة ـ أوّل من آمن برسول الله صلى الله عليه وآله واعتنق مبادئه

---

(١) كنز العمّال ٧ : ١١١ .

(٢) تفسير ابن جرير ٣ : ١٨٠ .

وأهدافه ، وقام إلى جانبه كأعظم قوّة ضاربة ، يحمي دعوته ويصون رسالته ويخمد بسيفه نار الحروب التي أشعلتها قريش لتطفئ نور الله وتقضي على الإسلام في مهده ، فوهب سلام الله عليه روحه لله تعالى ، فحصد ببتّاره رؤوس الطغاة من القرشيّين وأنصارهم المشركين .

لقد كان الإمام أبرز بطل في جيوش المسلمين نازل ببسالة وصمود قوى الكفر والإلحاد ، وأنزل بها الخسائر حتى فلّت وشلّت جميع فعاليتها العسكرية وباءت بالهزيمة والخسران ، ولولا جهاد الإمام وكفاحه لما قام الإسلام على سوقه عبل الذراع مفتول الساعد ، فما أعظم عائدته على الإسلام والمسلمين .

وكان من عظيم إيمان الإمام ونصرته للإسلام مبيته على فراش النبي ﷺ ووقايته له بنفسه ، حينما أجمعت قريش على قتله ، وكانت هذه المواساة الرائعة أعظم نصر للإسلام ، فقد نجا النبي ﷺ من أقسى مؤامرة دُبّرت لاغتياله ، فقد فشلت ، وأنقذ الله تعالى نبيّه من تلك الوحوش الكاسرة التي أرادت أن تطفئ نور الإسلام وتعيد الظلام للأرض .

لقد صحب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام منذ نعومة أظفاره النبي ﷺ ، وتخلّق بطباعه وأفكاره ، وتغذّى بحِكَمِه وعلومه ، فكان باب مدينة علمه ، وقد أثرت عنه من العلوم ما يبهر العقول ، يقول العقاد : إنّه فتح ما يربو على ثلاثين علماً لم تكن معروفة قبله كعلم الكلام والفلسفة والقضاء والحساب وغيرها ، وهو القائل :

« سلوني قبل أن تفقدوني » ، ولم يفه أحدٌ بمثل هذه الكلمة غيره ، وقد أخبر عن علمه وإحاطته بأسرار الكون والفضاء ، فقال :

« سلوني عن طرق السماء فإنّي أعرف بها من طرق الأرض » ، كما تحدّث عن درايته بما احتوت عليه الكتب السماوية من أحكام قائلاً : « لو ثُنيت لي الوسادة لأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وأهل الزبور بزبورهم ، وأهل الفرقان بفرقانهم ،

وأهل القرآن بقرآنهم » ، لقد كان الإمام عليه السلام أعظم عملاق في الميادين العلمية عرفته الإنسانية بعد النبي صلى الله عليه وآله ، ويدلّ على طاقاته العلمية الهائلة كتابه نهج البلاغة الذي هو من أعظم ما تملكه الإنسانية من تراثٍ بعد القرآن الكريم .

ومن مظاهر شخصيّة الإمام عليه السلام زهده في الدنيا وعدم احتفائه بأيّ زينةٍ من زين الحياة ، فقد تقلّد الحكم وتشرفت الدولة الإسلامية بقيادته ، فزهد في جميع مظاهر السلطة ، وجعل الحكم وسيلة لإقامة الحقّ والعدل ونشر المساواة بين الناس ، ولم يستخدم السلطة لتنفيذ رغباته ، والظفر بالثراء العريض ، ومن المقطوع به إنّه ليس في تأريخ الشرق العربي وغيره حاكم كالإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، قد عنى بالصالح العام ، وتجرّد عن كل منفعة شخصية له ، وهو القائل لابن عباس ، وكان يصلح نعله الذي هو من ليف :

« يابن عباس ما قيمة هذا النعل ؟ » .

ـ لا قيمة له يا أمير المؤمنين !

« والله لَهِيَ أَحَبُّ إِليَّ من إمرتكم ، إِلَّا أن أُقِيمَ حَقّاً ، أو أَدْفَعَ بَاطِلاً » .

لقد تبنّى العدل الخالص والحقّ المحض في جميع مراحل حكمه ، فالقريب والبعيد عنده سواء ، والقوي عنده ضعيف حتى يأخذ منه الحق ، والضعيف عنده قوي حتى يأخذ له بحقّه ، وقد أوجد في أيام خلافته وعياً سياسياً أصيلاً وهو التمرّد على الظلم ومقارعة الجبابرة والطغاة ، وكان أبرز من تغذّى بهذا الوعي ولده أبو الأحرار الإمام الحسين عليه السلام وبطلة الإسلام ابنته سيّدة النساء زينب عليها السلام ، وكوكبة من مشاهير أصحابه كحجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي وميثم التمّار وغيرهم من بُناة المجد الإسلامي الذين ثاروا على الظالمين .

وعلى أي حال ، فهذا العملاق العظيم هو أبو الصدّيقة الطاهرة زينب عليها السلام ، فقد غذّاها بمثله ومكوناته النفسية ، وأفرغ عليها أشعة من روحه الثائرة على الظلم

والطغيان ، فكانت تحكيه في انطباعاته واتجاهاته ، فقارعت الظالمين ، وناجزت الطغاة المستبدين ، وأذلت الجبابرة المتكبّرين ، وألحقت بهم الخزي والدمار .

لقد وقفت حفيدة الرسول ﷺ ، ومفخرة الإسلام إلى جانب أخيها أبي الأحرار حينما فجّر ثورته الكبرى التي هي أعظم ثورة إصلاحية عرفها التأريخ الإنساني ، وقد شابهت بذلك أباها رائد العدالة الاجتماعية حينما وقف إلى جانب جدّها الرسول الأعظم ﷺ حينما أعلن دعوته الخالدة الهادفة إلى تحرير الفكر البشري من عوامل الانحطاط والتأخّر ، وإنارته بالعلوم والعرفان ودفعه إلى إقامة مجتمع متوازن في سلوكه وإرادته .

لقد كانت هذه السيّدة العظيمة في سيرتها وسلوكها من أشبه الناس بأبيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقد تبنّت بصورة إيجابية جميع أهدافه ومخططاته ومواقفه التي منها نصرته للإسلام في أيام محنته وغربته ، وكذلك هذه السيّدة العملاقة نصرت الإسلام حينما عاد غريباً في ظلّ الحكم الأُموي الذي استهدف قلع جذور الإسلام ولفّ لوائه ، وإعادة الحياة الجاهلية بأوثانها وأصنامها ، ولكنها مع أخيها سلام الله عليها قد أفسدت مخططات الأُمويّين ، وأعادت للإسلام نضارته ومجده .

جدّها لأبيها :

أمّا جدُّ السيّدة الزكية زينب لأبيها فهو حامي الإسلام وبطل الجهاد المقدّس ، أبو طالب (مؤمن قريش) الذي نافح عن رسول الله ﷺ ، وجاهد في سبيله كأعظم ما يكون الجهاد ، ولولا حمايته للنبي وقيامه بدور مشرق في الذبّ عنه لأتت عليه قريش وقضت على الدعوة في مهدها .

لقد كان أبو طالب من أوثق المسلمين إيماناً ، ومن أكثرهم إخلاصاً لدين

التوحيد ، وهو القائل :

ولقد علمت بأنّ دين محمّد　　　من خير أديان البرية ديناً

وحكى هذا البيت إيمانه العميق بأنّ دين النبيّ ﷺ من خير أديان البرية ، ولهذا اندفع كأعظم قوة ضاربة إلى حماية النبي ﷺ وحراسته من ذئاب الأُسر القرشية التي أجمعت أن تلفّ لواء الإسلام وتطوي رسالته .

لقد وقف هذا العملاق العظيم محامياً عن رسول الله ﷺ ، وهو القائل :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم　　　حتى أُوسد في التراب دفيناً

وظلّ رسول الله ﷺ تحت حراسة أبي طالب وحمايته ، ينشر دعوته ويذيع مبادئه آمناً عزيزاً مهاباً ، وقد جنّد أولاده لخدمة النبيّ ﷺ وألزمهم بالذبّ عنه ، فكان ولده الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام من أقوى حرسه ، ومن أكثرهم دفاعاً عنه ، فخاض أعنف الحروب وأقساها لحمايته ، ونشر مبادئه وأهدافه .

ولمّا انتقل هذا الصرح العظيم إلى حضيرة القدس حزن عليه النبي ﷺ كأعظم ما يكون الحزن ، فلقد فَقَدَ بموته المحامي والناصر ، وأعزّ ما كان يحنو عليه ويعطف ، وأطلق على العام الذي توفي فيه مع أمّ المؤمنين خديجة (عام الحزن)[1] ، وقد أجمعت قريش بعد موت أبي طالب على قتل النبي ﷺ ،

---

(١) من العجب ما ذكره بعض السذّج من المؤلّفين أنّ أبا طالب حامي الإسلام مات غير مسلم ، وليس ذلك إلّا من وضع الأُمويّون الذين كادوا للإسلام وطعنوا في أعظم حماته ورجاله ، ولو مات غير مسلم لما حزن عليه النبيّ ﷺ ، فإنّه لا يخضع بأيّ حالٍ من الأحوال لأي مؤثّر لا يمتّ إلى الحقّ والواقع بصلة ، فحزنه عليه مع كونه غير مسلم موجب للطعن بشخصيّة النبيّ ﷺ ، ولولاه لأقبرت قريش الدعوة الإسلامية من أوّل بزوغها فجزاه الله عن الإسلام خيراً وأجزل له المزيد من رحمته .

فاضطر ﷺ إلى الهرب من مكة في غلس الليل البهيم بعد أن ترك أخاه وابن عمّه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في فراشه ، فرحم الله أبا طالب فما أعظم عائدته على الإسلام والمسلمين ، وما أكثر ألطافه وأياديه على النبي ﷺ .

إنّ هذا العملاق العظيم هو جدّ سيّدة النساء زينب عليها السلام لأبيها ، وقد ورثت منه خصائصه وذاتياته التي من أبرزها التفاني في الحق ونكران الذات .

جدّتها لأبيها :

وجدّة السيّدة زينب عليها السلام لأبيها هي السيّدة الزكية فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف زوجة أبي طالب ، وهي من سيّدات النساء في إيمانها وطهارتها ، وقد برّت بالنبي ﷺ ، وتولّت تربيته وكانت ترعاه وتعطف عليه أكثر ممّا تعطف على أبنائها ، وقدّمت له أعظم الخدمات ، وقد قطع ﷺ شوطاً من حياته تحت رعاية هذه السيّدة الزكية التي ما تركت لوناً من ألوان الرعاية والبرّ إلّا قدّمتها إلى الرسول ﷺ ، وكانت من أعزّ الناس عنده ، ولمّا فجع بوفاتها ألبسها قميصه واضطجع معها في قبرها ، فبهر أصحابه وقالوا له :

يا رسول الله ، ما رأيناك صنعت بأحدٍ ما صنعت بهذه ؟

فأخبرهم النبي ﷺ عن عظيم برّها ومعروفها قائلاً :

« إنّه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرّ بي منها ، إنّما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها في قبرها ليهوّن عليها »[١] .

إن هذه الأُصول العملاقة التي اتّسمت بالإيمان والشرف والكرامة وبكل ما

---

(١) توجد ترجمتها في : طبقات ابن سعد ، الاستيعاب ، أعيان الشيعة ، أعلام النساء ، تنقيح المقال ، وغيرها .

يسمو به الإنسان من القيم والمبادئ الكريمة ، قد تفرّعت منها بطلة الإسلام وصانعة التأريخ السيّدة زينب عليها السلام ، فقد ورثت جميع نزعات آبائها وخصائصهم وصفاتهم ، حتى صارت صورة مشرقة عنهم .

إخوانهـا :

ويجدر بنا بعد هذا العرض الموجز لشؤون الأُسرة الكريمة التي تفرّعت منها سيّدة النساء زينب عليها السلام أن نذكر ـ بإيجاز ـ إخوانها الذين عاشرتهم وهم الذين ملؤوا فم الدنيا بفضائلهم ومآثرهم ، وفيما يلي ذلك :

١ ـ الإمام الحسن عليه السلام :

هو ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّد شباب أهل الجنة ، وسبطه الأوّل ، وكانت ولادته في النصف من شهر رمضان المبارك للسنة الثالثة من الهجرة[1] ، وقد شوهدت في طلعته شمائل النبوة وأنوار الإمامة ، وهو أوّل مولود سعدت به الأُسرة النبوية ، فقد عمّها السرور بهذا المولود المبارك . وقد سارع النبي صلى الله عليه وآله إلى بيت بضعته وحبيبته السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام فهنأها بوليدها ، وأجرى عليه مراسيم الولادة الشرعية فأذّن في أُذنه اليمنى وأقام في اليسرى ، فكان أوّل صوت اخترق سمعه صوت جدّه العظيم داعية الله في الأرض ، وأنشودة ذلك الصوت : « الله أكبر ، لا إله إلّا الله » .

وهل في دنيا الوجود كلمات هي أسمى وأعظم من هذه الكلمات ، وقد غرسها النبي صلى الله عليه وآله في قلب وليده لتكون منهجاً له في حياته .

وفي اليوم السابع من ولادته عقّ عنه النبي صلى الله عليه وآله بكبش ، وحلق رأسه ،

---

(١) الإصابة ١ : ٣٣٨ . الاستيعاب ١ : ٣٦٨ . حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٥٩ .

وتصدّق بزنة شعره فضّة على المساكين[١] ، وكان ذلك سنّة في الإسلام لكلّ وليد .

تسميته:

وأقبل النبي ﷺ على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال له :

« هل سميت الوليد المبارك ؟ » .

فأجابه الإمام بأدبٍ واحترامٍ ، قائلاً:

« ما كنت لأسبقك يا رسول الله . . . » .

وانبرى النبي ﷺ قائلاً:

« ما كنت لأسبق ربّي » .

وهبط الوحي على النبيّ ﷺ ، وهو يحمل تسميته من السماء ، قائلاً: « سمّه حسناً »[٢] .

وكفى بهذا الإسم جمالاً وعظمةً أنّ الخالق العظيم هو الذي اختاره لسبط النبي وريحانته .

كنيته وألقـــابه:

وكنّاه النبي ﷺ : « أبا محمّد » ، ولاكنية له غيرها ، أمّا ألقابه فهي : « السبط الزكي ، المجتبى ، السيّد ، التقي »[٣] .

ملامحــــه:

أمّا ملامحه فكانت تحكي ملامح جدّه الرسول ﷺ ، تقول عائشة : من أحبّ

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٦٤ .

(٢) تأريخ الخميس ١ : ٤٧ .

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٦٥ .

أن ينظر إلى رسول الله ﷺ فلينظر إلى هذا الغلام ـ يعني الحسن عليه السلام[(١)] ـ .

ويقول أنس بن مالك : لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن عليّ[(٢)] .

لقد كان الإمام الحسن عليه السلام صورة مشرقة عن جدّه الرسول الأعظم ﷺ لا في ملامحه وصورته فحسب ، وإنما كان يحكيه في نزعاته وصفاته ومعالي أخلاقه ، التي امتاز بها على سائر النبيّين .

مظـــاهر شخصيته:

ونتحدّث ـ بإيجاز ـ عن بعض مظاهر شخصية الإمام الحسن عليه السلام ، وهي :

الحلم: من ذاتيات الإمام السبط : الحلم ، فقد كان من أحلم النـاس ، وقـد تعرّض لموجات عاتية من الإساءة من الأُسرة الأُموية التي أُترعت نفوسها بالحقد والكراهية لآل النبيّ ﷺ ، فما قابل الإمام أحداً بإساءة وإنما كظم غيظه ، وقد شهد مروان بن الحكم وهو من أخبث الناس ، وأشدهم عداوة للإمام الحسن ، بـعظيم حلمه ، فقد أسرع بعد وفاته إلى حمل جثمانه ، فقيل له : أتحمل جثمانه وكـنت تجرّعه الغصص ؟ فأجاب : إنّي أحمل جثمان من كان يوازي حلمه الجبال .

لقد كان الحلم من أبرز عناصره النفسيّة ، وقد أجمع الرواة على أنّه كان من أوسعَ الناس صدراً ، وأنّه ما جازى من أذنب في حقه ، وإنما قابله بالبرّ والإحسان شأنه في ذلك جدّه الرسول ﷺ الذي وسع الناس جميعاً بمعالي أخلاقه .

الجود: وكان الإمام السبط من أندى الناس كفاً ، ومن أكثرهم بـرّاً وإحسـاناً للفقراء ، وكان لا يرى للمال قيمة سوى ما يرد به جوع جائع أو يكسو عرياناً ، وقد حفلت مصادر التأريخ والتراجم بذكر بوادر كثيرة من كرمه وسخائه ، وقد لقب عليه السلام

---

(١) الفتوح ٢ : ٣٤٠ .

(٢) فضائل الأصحاب : ١٢٦ . حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٦٦ .

بـ(كريم أهل البيت) ، وهم من معادن الكرم والجود .

سمو الأخلاق: ومن عناصر الإمام الحسن ﷺ سمو الأخلاق ، فكان آية من آيات الله العظام في هذه الظاهرة الفذة ، ومن معالي أخلاقه أنه كان يوقّر ويحترم كلّ من قصده ولا يفرّق بين القريب والبعيد ، وكان يواسي الناس في مصائبهم ويشاركهم في مسرّاتهم ، ويوقر الكبير ، ويحنو على الصغير ، ويعطف على الضعيف ، وكان للمسلمين أباً رؤوفاً ، وكهفاً حصيناً ، يلجأ إليه غارمهم ، ويفزع إليه مظلومهم ، وقد شابه جدّه الرسول الأعظم ﷺ في سموّ أخلاقه التي مدحه الله تعالى بها ، قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] .

هذه بعض صفات الإمام الحسن ﷺ ، وقد ألمحنا إلى الكثير منها في كتابنا (حياة الإمام الحسن) .

مع السيّدة زينب: نشأت سيّدة النساء زينب ﷺ مع أخيها الإمام الحسن ﷺ وقطعت شوطاً من حياتها مع هذا الإمام العظيم ريحانة رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنة ، وتطبّعت بأخلاقه وآدابه ، وكان يجلّها كثيراً ، ويحدب عليها ويقابلها بمزيد من الرعاية والعناية ، فقد رأى جدّه وأبويه قد أحاطوها بكلّ تبجيل واحترام ، وأشادوا بمواهبها وفضائلها ، وقدّموها على بقية السيّدات من نساء أهلها وقومها ، هذه لمحة موجزة عن علاقة الإمام الحسن بشقيقته السيّدة زينب ﷺ .

٢ ـ الإمام الحسين ﷺ :

أمّا الإمام الحسين فهو الشقيق الثاني لسيّدة النساء زينب ﷺ ، وقد نشأت معه وتطبّعت بطباعه ، وكانت بينهما أعمق المودة ، وهو عندها أعزّ من الحياة ، وكانت تشاركه في آماله وآلامه ، وهي من أبرّ أهله به ، وقد احتلت عواطفه

---

(١) القلم : ٤ .

ومشاعره ، وذلك بما تملكه من أصالة الرأي ، وسمو الآداب ، ومعالي الأخلاق ، فقد تجسّدت فيها مواريث النبوة والإمامة ، وكانت صورة صادقة لأمّها بضعة الرسول ﷺ ، وسيّدة نساء العالمين السيّدة الزكية فاطمة الزهراء سلام الله عليها .

لقد كانت سيدة النساء زينب عليها السلام موضع أسرار أخيها الإمام الحسين عليه السلام ، والعالمة بجميع شؤونه ، وكان يستشيرها في جميع أموره ، وقد رافقته في ثورته الخالدة وأمدّتها بعناصر البقاء والخلود ، ولولا جهادها وجهودها ومواقفها المشرّفة في أروقة بلاط الحكم الأموي لضاعت ثورة أخيها ، وذهبت أدراج الرياح ، وبلغ من سمو مكانتها عند الحسين أنهّ لمّا ودّعها الوداع الأخير يوم الطفّ طلب منها أن لا تنساه من الدعاء في نافلة الليل[1] .

٣ ـ العباس:

هو (قمر بني هاشم) ، وفخر الإسلام ، ومجد المسلمين ، وهو أخو سيّدة النساء زينب لأبيها ، وأمّه : أمّ البنين ، وهي من سيّدات نساء المسلمين في فضلها وشرفها وطهارتها ، تزوّجها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بعد وفاة الصدّيقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها ، وقد قامت بدور إيجابي في خدمة السبطين وشقيقتهما السيّدة زينب ، فكانت تقدّمهم في الرعاية والعطف على أبنائها ، لأنهم ذرية رسول الله ﷺ الذي ألزم الله المسلمين بمودّتهم ومحبّتهم ، وكان أوّل مولود لها : أبو الفضل العباس عليه السلام ، وقد ترعرع ونشأ مع أخويه سيّدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين ، فغذّياه بالفضائل والآداب ، وغرسا في نفسه تقوى الله ، فكان من أروع أمثلة الإيمان ، وكانت علاقته مع أخيه الإمام الحسين عليه السلام وثيقة للغاية ، فكان منذ نعومة أظفاره يتسابق لخدمته ، ويبادر لقضاء حوائجه ، ولا يفارقه في حلّه وترحاله ، وكان من أشفق النّاس عليه وأبرّهم به .

---

(١) زينب الكبرى : ٦٠ .

وكان العباس من أحبّ الناس لأخته العقيلة زينب عليها السلام ، فقد وجدت فيه من الرعاية والبرّ والعطف ما لم تجده في السادة من اخوتها لأبيها ، فقد كان ملازماً لخدمتها كما كان ملازماً لخدمة أخيه الإمام الحسين عليه السلام ، وقد قدّم لها جميع ألوان البرّ والإحسان ، ولمّا ارتحلت مع أخيها أبي الشهداء من المدينة إلى مكة ثمّ إلى كربلاء كان العباس هو الذي يقوم بخدمتها ولم يدع أحداً من السادة العلويّين أن يتولّى رعايتها سواه ، ولمّا استشهد سلام الله عليه في كربلاء ذابت نفسها عليه أسىً وحسرات ، وودت أنّ المنية قد وافتها قبله ، وشعرت بالوحدة والضياع من بعده .

٤ ـ محمّد بن الحنفية:

ومحمّد ابن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هو المعروف بـ(ابن الحنفية)[١] ، وكان من أفذاذ العلويّين ومن ساداتهم ، وكان يجلّ ويعظّم السيّدة زينب عليها السلام ؛ لأنّها حفيدة النبيّ صلى الله عليه وآله وسيّدة نساء المسلمين ،كما كانت تُكِنُّ له أعظم الودّ والإخلاص .

وكان محمّد من المعارضين لابن الزبير والناقمين عليه ، ولا يراه أهلاً لقيادة الأُمّة فامتنع عن بيعته ، وتبعه على ذلك بقية الهاشميّين ، فأمر بحبسهم في (قبة زمزم) وضرب لهم أجلاً مسمّى فإن لم يبايعوه فيه وإلّا أحرقهم بالنار ، ودلّ ذلك على تجرّده من كل نزعة إسلامية وإنسانية ، وقد شابه بذلك قرينه يزيد بن معاوية ولو تمّ له الأمر لزاد على جرائمه .

وأرسل محمّد رسالة إلى المجاهد العظيم بطل الإسلام المختار الثقفي عرّفه

---

(١) اسم أُمّه خولة بنت جعفر بن حنفية ، ولد في خلافة أبي بكر ، وقيل : في خلافة عمر ، يكنّى أبا القاسم . روى عن أبيه وعن جماعة من الصحابة ، وذهب فريق من المسلمين إلى إمامته كان منهم : كثير عزّة ، وله فيه أشعار ، وقال بإمامته : السيّد الحميري إلّا أنّه عدل عنه وقال بإمامة الإمام الصادق عليه السلام ، توفّي سنة ٧٣هـ ، وقيل : سنة ثمانين ، وقيل غير ذلك ـ تهذيب التهذيب ٩ : ٣٥٤ .

فيها بما جرى عليه من ابن الزبير ، وكتب في آخرها : يا أهل الكوفة « لا تخذلونا كما خذلتم حسيناً . ولمّا انتهت إليه أجهش بالبكاء وقرأها على أهل الكوفة وخاطبهم قائلاً : هذا كتاب مهديكم وسيّد أهل بيت نبيّكم ، وقد تركهم الرسول ينتظرون القتل والحريق . وأخذ يتهدّد ابن الزبير قائلاً : لستُ أبا إسحاق إن لم أنصرهم ، وأسرب الخيل إثر الخيل كالسيل حتى يحل بابن الكاهلية الويل .

وجهز جيشاً قوامه ألف فارس بقيادة عبدالله الجدلي ثم أتبعه بثلاثة آلاف فارس ، وأخذوا يجدّون السير حتى انتهوا إلى (مكة) وهم ينادون : « يا لثارات الحسين » .

وهجموا على (قبة زمزم) فرأوا الحطب قد وضع عليها ولم يبق من الأجل الذي حدده الطاغية لإحراقهم سوى يومين فأخرجوهم من القبة وطلبوا من محمّد أن يناجزوا ابن الزبير الحرب فأعرب له محمّد عن سموّ ذاته وطهارة نفسه قائلاً : لا أستحلّ القتال في حرم الله » ويقول كثير عزة وهو من الكيسانية يخاطب ابن الزبير :

يخبر من لاقيت أنك عائذ	بل العائذ المظلوم في حبس عارم
ومن ير هذا الشيخ في الخيف والمنى	من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمي نبي الله وابن وصيه	وفكاك أغلال واقضي المغارم

وتعتقد الكيسانية إمامته وأنّه مقيم بجبل (رضوى) وإلى هذا أشار كثير عزة « بقوله :

وسبط لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً	برضوى عنده عسل وماء

توفي سنة (٨١هـ) وقيل غير ذلك[1] ، وبهذا ينتهي بنا المطاف عن بعض أشقاء العقيلة .

---

(١) وفيات الأعيان ٣ : ١١٠ ـ ١١٣ . طبقات ابن سعد . حلية الأولياء . الأعلام ـ الزركلي .

ولادتهما ونشأتهما

ازدهرت حياة الأسرة النبوية بالسبطين الكريمين الإمامين : الحسن والحسين عليهما السلام ، فكانا كالقمرين في ذلك البيت الكريم ، الذي أذن الله أن يرفع ويُذكر فيه اسمه ، وقد استوعبا قلب جدّهما الرسول صلى الله عليه وآله مودّةً ورحمةً وحناناً ، فكان يرعاهما برعايته ويغدق عليهما بإحسانه ويفيض عليهما من مكرمات نفسه التي استوعب شذاها جميع آفاق الوجود .

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله يكنّ في دخائل نفسه أعمق الودّ لسبطيه ، فكان يقول : « هما ريحانتي من الدنيا »(١) .

وبلغ من عظيم حبّه لهما أنّه كان على المنبر يخطب ، فأقبل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران ، وهما يمشيان ويعثران فنزل عن المنبر فحملهما ، ووضعهما بين يديه وقال : « صَدَقَ الله إذ يقول : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٢) لقد نظرت إلى هذين الصّبيين وهما يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »(٣) .

---

(١) كنز العمّال ٧ : ١١٠ . صحيح البخاري ـ كتاب الأدب . مجمع الزوائد ٩ : ١٨١ . تأريخ ابن عساكر ١٣ : ٣٩ .

(٢) الأنفال : ٢٨ .

(٣) صحيح الترمذي ٢ : ٣٠٦ . مسند أحمد بن حنبل ٥ : ٣٥٤ . أُسد الغابة ٢ : ١٢ . صحيح النسائي ١ : ٢٠١ . سنن البيهقي ٣ : ٢١٨ .

وكان يقول لسيّدة النساء فاطمة ﷺ : « ادعي ابني فيشمّهما » ويضمّهما إليه »[١] .

وفي تلك الفترة السعيدة التي عاشتها الأُسرة النبوية وهي مترعة بالولاء والعطف من الرسول ﷺ عَرَض للصدّيقة الطاهرة سيّدة نساء العالمين فاطمة ﷺ حملٌ ، فأخذ النبي ﷺ ينتظره بفارغ الصبر ليبارك به لحبيبته فاطمة ، ولباب مدينة علمه الإمام أميرالمؤمنين ﷺ ، أمّا ذلك الحمل فهو :

الوليدة المباركة :

ووضعت الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء ﷺ وليدتها المباركة التي لم تولد مثلها امرأة في الإسلام إيماناً وشرفاً وطهارةً وعفةً وجهاداً ، وقد استقبلها أهل البيت وسائر الصحابة بمزيدٍ من الابتهاج والفرح والسرور ، وأجرى الإمام أميرالمؤمنين على وليدته المراسيم الشرعية ، فأذّن في أُذنها اليمنى ، وأقام في اليسرى .

لقد كان أوّل صوت قرع سمعها هو : « الله أكبر ، لا إله إلّا الله » وهذه الكلمات أُنشودة الأنبياء ، وجوهر القيم العظيمة في الأكوان .

وانطبعت هذه الأُنشودة في أعماق قلب حفيدة الرسول فصارت عنصراً من عناصرها ، ومقوماً من مقوماتها .

وجوم النبي وبكاؤه :

وحينما علم النبي ﷺ بهذه المولودة المباركة سارع إلى بيت بضعته ، وهو خائر القوى حزين النفس ، فأخذها ودموعه تتبلور على سحنات وجهه الكريم ، وضمّها إلى صدره ، وجعل يوسعها تقبيلاً ، وبهرت سيّدة النساء فاطمة ﷺ من بكاء أبيها ،

---

(١) تيسير الوصول ـ ابن الدبيغ ٣ : ٢٧٦ .

فانبرت قائلةً :

« ما يبكيك يا أبتي ؟ لا أبكى الله لك عيناً » .

فأجابها بصوت خافت حزين النبرات :

« يا فاطمة ، اعلمي أنّ هـذه البنت بعدي وبعدك سوف تنصبّ عليها المصائب والرزايا »[١] .

لقد استشف النبي ﷺ ما يجري على حفيدته من الرزايا القاصمة التي تذوب من هولها الجبال ، وسوف تمتحن بما لم تمتحن به أيّ سيّدة من بنات حواء . ومن الطبيعي أنّ بضعته وباب مدينة علمه قد شاركا النبي في آلامه وأحزانه ، وأقبل سلمان الفارسي الصديق الحميم للأُسرة النبوية يهنئ الإمام أميرالمؤمنين بوليدته المباركة فألفاه حزيناً واجماً ، وهو يتحدّث عمّا تعانيه ابنته من المآسي والخطوب[٢] ، وشارك سلمان أهل البيت في آلامهم وأحزانهم .

تسميتهـا :

وحملت زهراء الرسول وليدتها المباركة إلى الإمام فأخذها وجعل يقبّلها ، والتفتت إليه فقالت له :

« سمّ هذه المولودة » .

فأجابها الإمام بأدبٍ وتواضعٍ :

« ما كنت لأسبق رسول الله » .

وعرض الإمام على النبي ﷺ أن يسمّيها ، فقال :

« ما كنت لأسبق ربّي » .

---

(١) الطراز المذهّب : ٣٨ .

(٢) بطلة كربلاء : ٢١ .

وهبط رسول السماء على النبي ، فقال له :

سمّ هذه المولودة (زينب) ، فقد اختار الله لها هذا الإسم .

وأخبره بما تعانيه حفيدته من أهوال الخطوب والكوارث فأغرق هو وأهل البيت في البكاء[١] .

كنيتهــا :

وكنيت الصدّيقة الطاهرة زينب بـ(أمّ كلثوم) ، وقيل : إنها تكنى بـ(أمّ الحسن)[٢] .

ألقابهــا :

أما ألقابها فإنّها تنمّ عن صفاتها الكريمة ، ونزعاتها الشريفة وهي :

عقيلة بني هــاشم:

و(العقيلة) هي : المرأة الكريمة على قومها ، والعزيزة في بيتها ، والسيّدة زينب أفضل امرأة ، وأشرف سيّدة في دنيا العرب والإسلام ، وكان هذا اللقب وساماً لذرّيتها فكانوا يلقّبون بـ(بني العقيلة) .

العــالمة:

وحفيدة الرسول ﷺ من السيّدات العالمات في الأُسرة النبوية ، فكانت فيما يقول بعض المؤرخين : مرجعاً للسيّدات من نساء المسلمين يرجعن إليها في شؤونهن الدينية .

عــابدة آل عليّ:

وكانت زينب من عابدات نساء المسلمين ، فلم تترك نافلة من النوافل

---

(١) زينب الكبرى : ١٦ ـ ١٧ .

(٢) المصدر السابق : ١٧ .

الإسلامية إلّا أتت بها ، ويقول بعض الرواة : إنها صلّت النوافل في أقسى ليلة وأمرّها وهي ليلة الحادي عشر من المحرم .

الكـاملة:

وهي أكمل امرأة في الإسلام في فضلها وعفّتها وطهارتها من الرجس والزيغ .

الفـاضلة:

وهي من أفضل نساء المسلمين في جهادها وخدمتها للإسلام ، وبلائها في سبيل الله . هذه بعض ألقابها التي تدلّل على سموّ ذاتها وعظيم شأنها .

سنة ولادتها:

أمّا السنة التي وُلدت فيها عقيلة آل أبي طالب ، فقد اختلف المؤرخون والرواة فيها ، وهذه بعض أقوالهم :

١ ـ السنة الخامسة من الهجرة في شهر جمادى الأُولى .

٢ ـ السنة السادسة من الهجرة .

٣ ـ السنة التاسعة من الهجرة ، وفنّد هذا القول الشيخ جعفر نقدي ، فقال : وهذا القول غير صحيح لأنّ فاطمة ﷺ توفيت بعد والدها في السنة العاشرة أو الحادية عشر على اختلاف الروايات ، فإذا كانت ولادة السيّدة زينب في السنة التاسعة وهي كبرى بناتها فمتى كانت ولادة أُمّ كلثوم ، ومتى حملت بالمحسن وأسقطته لستة أشهر . وقال : والذي يترجّح عندنا هو أنّ ولادة زينب كانت في السنة الخامسة من الهجرة ، وذكر مؤيدات أُخرى لما ذهب إليه[(١)] .

نشأتها:

نشأت الصدّيقة الطاهرة زينب ﷺ في بيت النبوة ومهبط الوحي والتنزيل ، وقد

---

(١) زينب الكبرى : ١٨ .

غذّتها أُمّها سيّدة نساء العالمين بالعفّة والكرامة ومحاسن الأُخلاق والآداب ، وحفظتها القرآن ، وعلّمتها أحكام الإسلام ، وأفرغت عليها أشعة من مثلها وقيمها حتى صارت صورة صادقة عنها .

لقد قطعت شوطاً من طفولتها في بيت الشرف والكرامة والرحمة والمودة ، فقد شاهدت أباها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يشارك أُمّها زهراء الرسول في شؤون البيت ، ويعينها في مهامه ، ولم تتردّد في أجواء البيت أية كلمة من مرّ القول وهجره ، وشاهدت جدّها الرسول صلى الله عليه وآله يغدق عليهم بفيض من تكريمه وتبجيله وعطفه وحنانه ،كما شاهدت الانتصارات الباهرة التي أحرزها الإسلام في الميادين العسكرية ، والقضاء على خصومه القرشيّين وأتباعهم من عبدة الأوثان والأصنام ، فقد ساد الإسلام ، وارتفعت كلمة الله عاليةً في الأرض ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً .

لقد ظفرت حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله بأروع وأسمى ألوان التربية الإسلامية ، فقد شاهدت أخاها الإمام الحسين يعظّم أخاه الإمام الحسن عليه السلام ويبجّله ، فلم يتكلّم بكلمة قاسية معه ، ولم يرفع صوته عليه ولم يجلس إلى جانبه ، وشاهدت أخوتها من أبيها ، وهم يعظمون أخويها الحسن والحسين ، ويقدّمون لهما آيات التكريم والتبجيل ، وكانت هي بالذات موضع احترام اخوتها ، فكانت إذا زارت أخاها الإمام الحسين عليه السلام قام لها إجلالاً وإكباراً وأجلسها في مكانه ، وكانت إذا أرادت الخروج لزيارة قبر جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله خرج معها أبوها الإمام أمير المؤمنين وأخوها الحسنان ، ويبادر الإمام أميرالمؤمنين إلى إخماد ضوء القناديل التي على المرقد المعظّم ، فسأله الإمام الحسن عليه السلام عن ذلك ، فقال له : « أخشى أن ينظر أحد إلى شخص أختك الحوراء »[1] .

---

(١) زينب الكبرى : ٢٢ .

لقد أُحيطت عقيلة بني هاشم بهالة من التعظيم والتبجيل من أبيها وأخوتها ، فهي حفيدة النبي ﷺ ، ووريثة مُثُله وقيمه وآدابه ، كما كانت لها المكانة الرفيعة عند العلماء والرواة ، فكانوا إذا رووا حديثاً عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في أيام الحكم الأُموي ، يقولون : روى أبو زينب ، ولم يقولوا : « روى أبو الحسنين » ، وذلك إشادة بفضلها وعظيم منزلتها .

قدراتها العلمية :

كانت حفيدة الرسول ﷺ في فجر الصبا آيةً في ذكائها وعبقرياتها ، فقد حفظت القرآن الكريم ، كما حفظت أحاديث جدّها الرسول ﷺ فيما يتعلّق بأحكام الدين وقواعد التربية وأُصول الأخلاق ، وقد حفظت الخطاب التأريخي الخالد الذي ألقته أُمّها سيّدة النساء فاطمة عليها السلام في (الجامع النبوي) احتجاجاً على أبي بكر لتقمّصه للخلافة ، ومصادرته لـ (فدك) التي أنحلها إيّاها أبوها رسول الله ﷺ ، وقد روت خطبة أُمّها التي ألقتها على السيّدات من نساء المسلمين حينما عُدنها في مرضها الذي توفّيت فيه ، كما روت عنها كوكبة من الأحاديث .

قد بهر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من شدّة ذكائها ، فقد قالت له :

« أتحبّنا يا أبتاه » .

فأسرع الإمام قائلاً :

« وكيف لا أُحبّكم وأنتم ثمرة فؤادي » .

فأجابته بأدبٍ واحترامٍ :

« يا أبتاه ، إنّ الحبّ لله تعالى ، والشفقة لنا . . »[1] .

وعجب الإمام عليه السلام من فطنتها ، فقد أجابته جواب العالم المنيب إلى الله

---

(١) زينب الكبرى : ٣٥ .

تعالى » وكان من فضلها واعتصامها بالله تعالى أنّها قالت : « من أراد أن لا يكون الخلق شفعاؤه إلى الله فليحمده ، ألم تسمع إلى قوله : سمع الله لمن حمده ، فخف الله لقدرته عليك ، واستح منه لقربه منك »[١] .

وممّا يدلّ على مزيد فضلها أنّها كانت تنوب عن أخيها الإمام الحسين في حال غيابه فيرجع إليها المسلمون في المسائل الشرعية ، ونظراً لسعة معارفها كان الإمام زين العابدين ﷺ يروي عنها ، وكذلك كان يروي عنها عبدالله بن جعفر ، والسيّدة فاطمة بنت الإمام الحسين ، ولمّا كانت في الكوفة في أيام أبيها كان لها مجلس خاص تزدحم عليها السيّدات فكانت تلقي عليهن محاضرات في تفسير القرآن الكريم ، كما كانت المرجع الأعلى للسيّدات من نساء المسلمين ، فكنّ يأخذن منها أحكام الدين وتعاليمه وآدابه ، ويكفي للتدليل على فضلها أنّ ابن عباس حبر الأمّة كان يسألها عن بعض المسائل التي لا يهتدي لحلّها ، كما روى عنها كوكبة من الأخبار ، وكان يعتزّ بالرواية عنها ، ويقول : « حدّثتنا عقيلتنا زينب بنت علي » ، وقد روى عنها الخطاب التأريخي الذي ألقته اُمّها سيّدة النساء فاطمة ﷺ في جامع أبيها ﷺ ، وقد نابت عن ابن أخيها الإمام زين العابدين ﷺ في أيام مرضه ، فكانت تجيب عمّا يرد عليه من المسائل الشرعية ، وقد قال ﷺ في حقها :

« إنها عالمة غير معلّمة » ، وكانت ألمع خطيبة في الإسلام ، فقد هزّت العواطف ، وقلبت الرأي العام وجنّدته للثورة على الحكم الأُموي ، وذلك في خطبها التأريخية الخالدة التي ألقتها في الكوفة ودمشق ، وهي تدلّل على مدى ثرواتها الثقافية والأدبية .

لقد نشأت حفيدة الرسول ﷺ في بيت الوحي ومركز العلم والفضل ، فنهلت من نمير علوم جدّها وأبيها وأخويها ، فكانت من أجل العالمات ، ومن أكثرهن

---

(١) أعيان الشيعة ٧ : ١٤٠ .

إحاطة بشؤون الشريعة وأحكام الدين .

اقترانهـا بابن عمّهـا:

ولما تقدّمت سيدة النساء زينب في السنّ انبرى الأشراف والوجوه إلى خطبتها ، والتشرّف بالاقتران بها ، فامتنع الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام من إجابتهم ، وتقدّم لخطبتها فتىً من أنبل فتيان بني هاشم وأحبّهم إلى الإمام وأقربهم إليه ، وهو ابن أخيه : عبدالله بن جعفر ، من أعلام النبلاء والكرماء في دنيا العرب والإسلام ، فأجابه الإمام إلى ذلك ورحّب به ، ونعرض ـ بإيجاز ـ إلى بعض شؤونه .

أبوه جعفر:

أما جعفر فقد كان ـ فيما يقول الرواة ـ: من أشبه الناس خلقاً وخُلقاً بالنبي صلى الله عليه وآله[(١)] . يقول فيه أبو هريرة : ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ، ولا وطئ التراب بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من جعفر بن أبي طالب[(٢)] . وهو من السابقين للإسلام وقد رآه أبوه أبو طالب يصلّي مع أخيه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام خلف النبي صلى الله عليه وآله فقال له : صل جناح ابن عمّك ، وصلِّ عن يساره ، وكان علي يصلّي عن يمينه »[(٣)] . وله هجرتان : هجرة إلى الحبشة ، وهجرة إلى المدينة[(٤)] .

وكان من أبرّ الناس بالفقراء والضعفاء ، وقد برّ بأبي هريرة وأحسن إليه أيام بؤسه وفقره ، وقد تحدّث عن ذلك ، قال :كنت لألصق بطني بالحصباء من الجوع ، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية وهي معي كي ينقلب بي فيطعمني ، وكان أبرّ الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب كان ينقلب فيطعمنا ما كان في بيته حتى كان ليخرج

---

(١) الاستيعاب ١ : ٢٤٢ ، وجاء فيه أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال له : «أشبهت خَلْقي وخُلُقي يا جعفر».

(٢) الاستيعاب ١ : ٢٤٣ .

(٣) (٤) أُسد الغابة ١ : ٢٨٧ .

إلينا العكة التي ليس فيها شيء فنشقّها فنلعق ما فيها [١] .

وقدم إلى المدينة من هجرته إلى الحبشة فاستبشر به رسول الله ﷺ ، وفرح فقد صادف قدومه فتح خيبر ، فقال ﷺ :

« ما أدري بأيّهما أنا أشد فرحاً أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر . . »[٢] .

واختطّ له النبي ﷺ داراً إلى جنب المسجد ، وكان أثيراً عنده ، لا لأنه ابن عمه فحسب ، وإنما لإيمانه الوثيق وتفانيه في نشر كلمة الإسلام ، وإشاعة مبادئه وأحكامه . .

بعثه رسول الله ﷺ في جيش إلى مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة فاستشهد فيها ، ويقول الرواة : إنّ اللواء كان بيده اليمنى فقطعت ، فرفعه بيده اليسرى ، فلمّا قطعت رفعه بيديه ، فقال رسول الله ﷺ : « وإن الله عزّ وجلّ أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء »[٣] .

ولهذا لقّب بـ (ذي الجناحين) وبـ (الطيار) .

وحزن رسول الله ﷺ على جعفر ، فقصد داره ليواسي زوجته وأبناءه بمصابهم الأليم ، فقال لزوجته أسماء : « ائتيني ببني جعفر » ، فأتته بهم ، فجعل يوسعهم تقبيلاً ودموعه تتبلور على سحنات وجهه الكريم ، وفهمت أسماء نبأ شهادة زوجها فقالت له :

« يا رسول الله ، أبلَغك عن جعفر وأصحابه شيء » .

فأجابها بنبراتٍ تقطر أسىً وحزناً قائلاً :

« نعم أصيب هذا اليوم » .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الاستيعاب ١ : ٢٤٢ ، كان قدوم جعفر إلى يثرب في السنة السابعة من الهجرة .

(٣) الاستيعاب ١ : ٢٤٢ .

وأخذت أسماء تنوح على زوجها ، وأقبلت السيّدات من نساء المسلمين يعزينها بمصابها الأليم ، وأمر النبي ﷺ أن يصنع طعام لآل جعفر[(١)] وأقبلت سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام على أسماء تعزّيها وهي باكية العين ، وقد رفعت صوتها قائلة :

« واعماه » .

وطفق رسول الله ﷺ يقول : « على مثل جعفر فلتبك البواكي »[(٢)] .

لقد كانت شهادة جعفر من أقسى النكبات على النبي ﷺ ، فقد فَقَدَ بشهادته أعزّ أبناء عمومته وأخلصهم إليه .

الأُم: أسماء:

أمّا أُمّ عبدالله فهي السيّدة الشريفة أسماء بنت عميس ، وهي من السابقات إلى اعتناق الإسلام ، هاجرت مع زوجها الشهيد الخالد جعفر الطيار إلى الحبشة ، وقد ولدت فيها عبدالله وعوناً ومحمداً ، ثم هاجرت إلى المدينة ، ولما استشهد جعفر تزوّجها أبو بكر فولدت له محمداً ، وهو من أعلام الإسلام ، ثم توفي أبو بكر فتزوّجها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، فولدت له يحيى[(٣)] ، وقد أخلصت لأهل البيت عليهم السلام فكانت من حزبهم ، ولها علاقة وثيقة مع سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام ، فقد قامت بخدمتها ، وقد عهدت إليها في مرضها أن لا تدخل عليها عائشة بنت أبي بكر ، فجاءت عائشة عائدة لها فمنعتها أسماء ، فاغتاظت وشكتها إلى أبي بكر فعاتبها ، فأخبرته بعدم رضاء الزهراء في زيارتها[(٤)] .

لقد كانت أسماء من خيرة نساء المسلمين في عفّتها وطهارتها وولائها لأهل

---

(١) (٢)أُسد الغابة ١ : ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق ٥ : ٣٩٥.

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١ : ٢٧١ .

بيت النبوة ، كما كانت من الراويات للحديث ، ويقول المؤرخون : إنها روت عن النبيّ ﷺ ستين حديثاً .

وعلى أيّ حال ، فإن أسماء حينما تزوّجها الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قامت بخدمة الحسنين وأختهما زينب عليها السلام ، وصارت لهم أمّاً رؤوماً ، ترعاهم كما ترعى أبناءها ، لأنهم البقية الباقية من ذرية رسول الله ﷺ ، وقد أخلصوا لها كأعظم ما يكون الإخلاص وشكروا لها رعايتها وعطفها .

عبدالله:

ونعود للحديث عن عبدالله بن جعفر ، فقد كان فذاً من أفذاذ الإسلام وسيّداً من سادات بني هاشم ، يقول فيه معاوية : هو أهلٌ لكلّ شرفٍ ، والله ما سبقه أحدٌ إلى شرف إلّا وسبقه(١) . وكان يُسمى (بحر الجود)(٢) ، ويقال : لم يكن في الإسلام أسخى منه(٣) ، مدحه نصيب فأجزل له في العطاء ، فقيل له : تعطي لهذا الأسود مثل هذا فقال : إن كان أسود فشعره أبيض ، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال ، وهل أعطيناه إلّا ما يبلى ، وأعطانا مدحاً يروى ، وثناءً يبقى(٤) . وعوتب على كثرة برّه وإحسانه إلى الناس ، فقال : إن الله عوّدني عادة ، وعوّدت الناس عادة ، فأخاف إن قطعتها قطعت عني(٥) . وأنشد :

لست أخشى قلة العدم ما اتقيت الله في كرمي
كلما أنفقت يخلفه لي ربّ واسع النعم(٦)

ونقل الرواة بوادر كثيرة من كرمه وسخائه ، وقد وسع الله عليه لدعاء

---

(١) تهذيب التهذيب ٥ : ١٧١ .
(٢) أسد الغابة ٣ : ١٣٤ .
(٣ ـ ٥) الاستيعاب ٣ : ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٢٨٨ .
(٦) عمدة الطالب : ٣٧ ـ ٣٨ .

النبي ﷺ له فكان من أثرى أهل المدينة ، ومضافاً إلى سخائه فقد كان من ذوي الفضيلة ، فقد روى عن عمه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وعن الحسن والحسين عليهما السلام .

أبناؤه:

وُرزق هذا السيّد الجليل من سيدة النساء زينب عليها السلام كوكبة من السادة الأجلاء وهم :

١ ـ عون :

وكان من أبرز فتيان بني هاشم في فضله وكماله ، صحب خاله الإمام الحسين عليه السلام ، حينما هاجر من يثرب إلى العراق ، ولازمه في رحلته ، فلما كان يوم العاشر من المحرم ، اليوم الخالد في دنيا الأحزان ، تقدم إلى الشهادة بين يدي خاله ، فبرز إلى حومة الحرب وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا ابن جعفر ... شهيد صدق في الجنان أزهر
يطير فيها بجناح أخضر ... كفى بهذا شرفاً من محشر[١]

لقد عرّف نفسه ـ بهذا الرجز ـ فقد انتسب إلى جده الشهيد العظيم جعفر ، الذي قطعت يداه في سبيل الإسلام ، ويكفيه بذلك شرفاً وفخراً ، وجعل الفتى يقاتل قتال الأبطال غير حافل بتلك الوحوش الكاسرة ، فحمل عليه وغد خبيث هو عبدالله الطائي فقتله[٢] ، ورثاه سليمان بن قتة بقوله :

واندبي إن بكيت عوناً أخاه ... ليس فيما ينوبهم بخذول
فلعمري لقد أصبت ذوي القر ... بى فكبى على المصاب الطويل[٣]

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٥٨ ، نقلاً عن الفتوح .

(٢) الإرشاد : ٢٦٨ .

(٣) مقاتل الطالبيّين : ٩١ .

٢ ـ علي الزينبي.

٣ ـ محمد.

٤ ـ عباس.

٥ ـ السيّدة أمّ كلثوم[١]:

وبلغت هذه السيّدة مبلغ النساء ، وكانت فريدة في جمالها وعفافها واحترامها عند أهلها وعامة بني هاشم ، وأراد معاوية أن يتقرّب إلى بني هاشم ويعزّز مكانته في نفوس المسلمين ، في أن يخطبها لولده يزيد ، فكتب إلى واليه على يثرب مروان بن الحكم كتاباً جاء فيه :

أمّا بعد : فإنّ أميرالمؤمنين أحب أن يرد الإلفة ، ويسلّ السخيمة ، ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابي ، فاخطب إلى عبدالله بن جعفر ابنته أمّ كلثوم على يزيد ابن أميرالمؤمنين ، وارغب إليه في الصداق . . .

وظنّ معاوية أنّ سلطته المزيفة ، وما يبذله من الأموال الطائلة تغري السادة العلويين الذين تربّوا على الكرامة والشرف ، وكل ما يسمو به الإنسان ، ولم يعلم أن سلطته وأمواله لا تساوي عندهم قلامة أظفر .

ولمّا انتهى كتاب معاوية إلى مروان خاف جانب الإمام الحسين ، لأنّه يعلم أنّه يفسد عليه الأمر ، وسافر الحسين ، فاغتنم مروان فرصة سفره فبادر مسرعاً إلى عبدالله بن جعفر ، فعرض عليه كتاب معاوية ، وجعل يحبّذ له الأمر ، ويطالبه بالإسراع فيه لأنّ في ذلك إصلاحاً لذات البين ، واجتماعاً للكلمة ولم يخف عن عبدالله الأمر ، فقال لمروان : إنّ خالها الحسين في ينبع[٢] . وليس لي من سبيل أن

---

(١) زينب الكبرى : ١٢٦ .

(٢) ينبع : تبعد عن المدينة بسبع مراحل ، فيها عيون ماء عذب غزيرة ، قيل : إنّها لبني الحسن ، وقيل : إنّها حصن به نخيل وزرع ، وبها وقوف الإمام عليّ عليه‌السلام يتولّاها ولده ، جاء ذلك في معجم البلدان ٥ : ٤٥٠ .

أقدم على هذا الأمر من دون أخذ رأيه وموافقته .

ولمّا رجع الإمام الحسين عليه السلام إلى يثرب خفّ إليه عبدالله بن جعفر مسرعاً ، فعرض عليه الأمر ، وما أجاب به مروان ، فالتاع الإمام الحسين عليه السلام من ذلك ؛ إذ كيف تكون ابنة أخته عند فاجر بني أمية ، حفيد أبي سفيان ، فانطلق الإمام عليه السلام إلى شقيقته زينب عليها السلام وأمرها بإحضار ابنتها أمّ كلثوم فلمّا مثلت أمامه ، قال لها : إن ابن عمّك القاسم بن محمد بن جعفر أحقّ بك ، ولعلك ترغبين في كثرة الصداق .

واستجابت الفتاة لرأي خالها ، ورحّبت أمّها العقيلة بذلك ، ورضي أبوها عبدالله برغبة الإمام الحسين ، وقدم لها الإمام مهراً كثيراً .

وكتم الإمام الأمر ، فلما كانت ليلة الزواج أقام دعوة عامة دعا فيها جمهرة كبيرة من أبناء المدينة ، وكان من جملة المدعوين : مروان ، وقد ظنّ أنّه دعي لتلبية ما رغب فيه معاوية من زواج السيّدة أمّ كلثوم بابنه يزيد ، فقام خطيباً فأثنى على معاوية وما قصده من جمع الكلمة وصلة الرحم ، ولمّا أنهى كلامه قام الإمام الحسين عليه السلام فأعلن أنه زوّج السيّدة أمّ كلثوم بابن عمّها القاسم بن محمد بن جعفر . ولمّا سمع مروان تميز غيظاً وغضباً ، وفقد صوابه ، فقد أفشل الإمام رغبته ، فرفع عقيرته قائلاً : أغدراً يا حسين[1] .

وخرج مروان يتعثّر بأذياله ، وانتهى الأمر إلى معاوية ، فحقد على الحسين ، وساءه ذلك ، فقد فشلت محاولاته في خداع العلويين ، وخداع المسلمين بمصاهرة ولده للأسرة النبوية .

---

(١) زينب عقيلة بني هاشم : ٢٧ .

عناصرها النفسية

وما من صفةٍ كريمةٍ أو نزعةٍ شريفةٍ يفتخر بها الإنسان ، ويسمو بها على غيره من الكائنات الحية إلّا وهي من عناصر عقيلة بني هاشم ، وسيدة النساء زينب عليها السلام ، فقد تحلّت بجميع الفضائل التي وهبها الله تعالى لجدّها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، وأبيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وأمّها سيدة نساء العالمين عليها السلام ، وأخويها الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد ورثت خصائصهم ، وحكت مميزاتهم ، وشابهتهم في سموّ ذاتهم ومكارم أخلاقهم .

لقد كانت حفيدة الرسول بحكم مواريثها وخصائصها أعظم وأجلّ سيدة في دنيا الإسلام ، فقد أقامت صروح العدل ، وشيّدت معالم الحق ، وأبرزت قيم الإسلام ومبادئه على حقيقتها النازلة من ربّ العالمين ، فقد جاهدت هي وأمّها زهراء الرسول كأعظم ما يكون الجهاد ، ووقفتا بصلابة لا يعرف لها مثيل أمام التيارات الحزبية التي حاولت بجميع ما تملك من وسائل القوة أن تلقي الستار على قادة الأمّة وهداتها الواقعيين ، الذين أقامهم الرسول صلى الله عليه وآله أعلاماً لأمّته ، وخزنة لحكمته وعلومه ، فقد أظهرت زهراء الرسول بقوة وصلابة عن حقّ سيّد العترة الإمام أميرالمؤمنين ، رائد العدالة الاجتماعية في الإسلام ، فناهضت حكومة أبي بكر في خطابها التأريخي الخالد ، وسائر مواقفها المشرّفة التي وضعت فيها الأساس المشرق لمبادئ شيعة أهل البيت ، فهي المؤسّسة الأولى بعد أبيها صلى الله عليه وآله لمذهب أهل البيت عليهم السلام ، وكذلك وقفت ابنتها العقيلة أمام الحكم الأموي الأسود الذي

استهدف قلع الإسلام من جذوره ومحو سطوره ، وإقصاء أهل البيت عليهم السلام عن واقعهم الاجتماعي والسياسي ، وإبعادهم عن المجتمع الإسلامي ، فوقفت حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله مع أخيها أبي الأحرار في خندق واحد ، فحطّم أخوها بشهادته وهي بخطبها في أروقة بلاط الحكم الأُموي ، ذلك الكابوس المظلم الذي كان جاثماً على رقاب المسلمين .

وعلى أي حال ، فإنا نعرض بصورة موجزة لبعض العناصر النفسية لحفيدة الرسول صلى الله عليه وآله ، وما تتمتّع به من القابليات الفذة ، التي جعلتها في طليعة نساء المسلمين ، وفيما يلي ذلك :

الإيمان الوثيق :

وتربّت عقيلة بني هاشم في بيت الدعوة إلى الله تعالى ، ذلك البيت الذي كان فيه مهبط الوحي والتنزيل ، ومنه انطلقت كلمة التوحيد وامتدت أشعتها المشرقة على جميع شعوب العالم وأُمم الأرض ، وكان ذلك أهمّ المعطيات لرسالة جدّها العظيم .

لقد تغذّت حفيدة الرسول بجوهر الإيمان وواقع الإسلام ، وانطبع حبّ الله تعالى في عواطفها ومشاعرها حتى صار ذلك من مقوماتها وذاتياتها ، وقد أحاطت بها المحن والخطوب منذ نعومة أظفارها ، وتجرّعت أقسى وأمرّ ألوان المصائب ، كلّ ذلك من أجل رفع كلمة الله عالية خفّاقة ..

إنّ الإيمان الوثيق بالله تعالى والانقطاع الكامل إليه كانا من ذاتيات الأُسرة النبوية ومن أبرز خصائصهم ، ألم يقل سيد العترة الطاهرة الإمام أميرالمؤمنين في دعائه :

« عبدتك لا طمعاً في جنتك ، ولا خوفاً من نارك ، ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

وهو القائل :

« لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً » .

أما سيّد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام ، فقد أخلص لله تعالى كأعظم ما يكون الإخلاص ، وذاب في محبته وقد قدّم نفسه والكواكب المشرقة من أبنائه وأخوته وأبناء عمومته قرابين خالصة لوجه الله ، وقد طافت به المصائب والأزمات التي يذوب من هولها الجبال ، وامتحن بما لم يمتحن به أحدٌ من أنبياء الله وأوليائه ، كل ذلك في سبيل الله تعالى ، فقد رأى أهل بيته وأصحابه الممجدين صرعى ، ونظر إلى حرائر النبوة وعقائل الوحي ، وهنّ بحالة تميد من هولها الجبال ، وقد أحاطت به أرجاس البشرية وهم يوسعونه ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ، ليتقرّبوا بقتله إلى سيّدهم ابن مرجانة ، لقد قال وهو بتلك الحالة كلمته الخالدة ، قال :

« لك العتبى يا ربّ إن كان يرضيك هذا ، فهذا إلى رضاك قليل » ، ولمّا ذُبح ولده الرضيع بين يديه ، قال :

« هوّن ما نزل بي أنّه بعين الله »[1] .

أرأيتم هذا الإيمان الذي لا حدود له !

أرأيتم هذا الانقطاع والتبتل إلى الله !

وكانت حفيدة الرسول زينب سلام الله عليها كأبيها وأخيها في عظيم إيمانها وانقطاعها إلى الله ، فقد وقفت على جثمان شقيقها الذي مزّقته سيوف الشرك ، هو جثة هامدة بلا رأس ، فرمقت السماء بطرفها ، وقالت كلمتها الخالدة التي دارت مع الفلك وارتسمت فيه :

« اللّهمّ تقبّل منّا هذا القربان »[2] .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٣ : ٣٠٤ .

إنّ الإنسانية تنحني إجلالاً وخضوعاً أمام هذا الإيمان الذي هو السرّ في خلودها وخلود أخيها .

لقد تضرّعت بطلة الإسلام بخشوع إلى الله تعالى أن يتقبّل ذلك القربان العظيم الذي هو ريحانة رسول الله ﷺ .

فأيّ إيمان يماثل هذا الإيمان ؟!

وأيّ تبتّل إلى الله تعالى يضارع هذا التبتّل ؟!

لقد أظهرت حفيدة الرسول بهذه الكلمات الخالدة معاني الوراثة النبوية ، وأظهرت الواقع الإسلامي وأنارت السبيل أمام كلّ مصلح اجتماعي ، وأنّ كلّ تضحية تُؤدّى للأُمّة يجب أن تكون خالصة لوجه الله غير مشفوعة بأيّ غرض من أغراض الدنيا .

ومن عظيم إيمانها الذي يبهر العقول ، ويحيّر الألباب أنها أدّت صلاة الشكر إلى الله تعالى ليلة الحادي عشر من المحرّم على ما وفّق أخاها ووفّقها لخدمة الإسلام ورفع كلمة الله .

لقد أدّت الشكر في أقسى ليلة وأفجعها ، والتي لم تمرّ مثلها على أيّ أحدٍ من بني الإنسان ، فقد أحاطت بها المآسي التي تذوب من هولها الجبال ، فالجثث الزواكي من أبناء الرسول وأصحابهم أمامها لا مغسّلين ولا مكفّنين ، وخيام العلويات قد أحرقها الطغاة اللئام ، وسلبوا ما على بنات رسول الله ﷺ من حُلي وما عندهنّ من أمتعة وهن يعجن بالبكاء لا يعرفن ماذا يجري عليهن من الأسر والذلّ إلى غير ذلك من المآسي التي أحاطت بحفيدة الرسول ﷺ وهي تؤدي صلاة الشكر لله تعالى على هذه النعمة التي أضفاها عليها وعلى أخيها .

تدول الدول وتفنى الحضارات وهذا الإيمان العلوي أحقّ بالبقاء ، وأجدر بالخلود من هذا الكوكب الذي نعيش فيه .

الصبر:

من النزعات الفذة التي تسلّحت بها مفخرة الإسلام وسيدة النساء زينب عليها السلام هي الصبر على نوائب الدنيا وفجائع الأيام ، فقد تواكبت عليها الكوارث منذ فجر الصبا ، فرزئت بجدّها الرسول صلى الله عليه وآله الذي كان يحدب عليها ، ويفيض عليها بحنانه وعطفه ، وشاهدت الأحداث الرهيبة المروعة التي دهمت أباها وأمّها بعد وفاة جدّها ، فقد أُقصي أبوها عن مركزه الذي أقامه فيه النبي صلى الله عليه وآله ، وأجمع القوم على هضم أمّها حتى توفيت وهي في روعة الشباب وغضارة العمر ، وقد كوت هذه الخطوب قلب العقيلة إلّا أنّها خلدت إلى الصبر ، وتوالت بعد ذلك عليها المصائب ، فقد رأت شقيقها الإمام الحسن الزكي عليه السلام قد غدر به أهل الكوفة ، حتى اضطر إلى الصلح مع معاوية الذي هو خصم أبيها وعدوّه الألد ، ولم تمض سنين يسيرة حتى اغتاله بالسمّ ، وشاهدته وهو يتقيأ دماً من شدة السمّ حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

وكان من أقسى ما تجرّعته من المحن والمصاعب يوم الطف ، فقد رأت شقيقها الإمام الحسين عليه السلام قد استسلم للموت لا ناصر له ولا معين ، وشاهدت الكواكب المشرقة من شباب العلويين صرعى قد حصدتهم سيوف الأمويين ، وشاهدت الأطفال الرضع يذبحون أمامها .

إن أي واحدة من رزايا سيدة النساء زينب لو ابتلي بها أيّ إنسان مهما تذرّع بالصبر وقوة النفس لأوهنت قواه ، واستسلم للضعف النفسي ، وما تمكن على مقاومة الأحداث ، ولكنّها سلام الله عليها قد صمدت أمام ذلك البلاء العارم ، وقاومت الأحداث بنفس آمنة مطمئنة راضية بقضاء الله تعالى وصابرة على بلائه ، فكانت من أبرز المعنيين بقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1] ، وقال

---

(١) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [١] ، وقال تعالى : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُو يَعْمَلُونَ﴾ [٢] ، لقد صبرت حفيدة الرسول ﷺ وأظهرت التجلّد وقوة النفس أمام أعداء الله ، وقاومتهم بصلابة وشموخ ، فلم يشاهد في جميع فترات التأريخ سيدة مثلها في قوة عزيمتها وصمودها أمام الكوارث والخطوب .

يقول الحجّة الشيخ هادي آل كاشف الغطاء في صبرها وعظيم محنتها :

لله صبر زينب العقيلة ... كم شاهدت مصائباً مهولة
رأت من الخطوب والرزايا ... أمراً تهون دونه المنايا
رأت كرام قومها الأماجد ... مجزرين في صعيد واحد
تسفي على جسومها الرياح ... وهي لذؤبان الفلا تباح
رأت رؤوساً بالقنا تشال ... وجثثاً أكفانها الرمال
رأت رضيعاً بالسهام يفطم ... وصبية بعد أبيهم أيتموا
رأت شماتة العدو فيها ... وصنعه ما شاء في أخيها
وإن من أدهى الخطوب السود ... وقوفها بين يدي يزيد

وقال السيّد حسن البغدادي :

يا قلب زينب ما لاقيت من محن ... فيك الرزايا وكل الصبر قد جمعا
لو كان ما فيك من صبر ومن محن ... في قلب أقوى جبال الأرض لانصدعا
يكفيك صبراً قلوب الناس كلهم ... تفطّرت للذي لاقيته جزعاً

لقد قابلت العقيلة ما عانته من الكوارث المذهلة والخطوب السود بصبر يذهل كل كائن حي .

---

(١) الزمر : ١٠ .

(٢) النحل: ٩٦ .

العزة والكرامة :

من أبرز الصفات النفسية الماثلة في شخصية سيدة النساء زينب ﷺ هـي : العـزة والكرامة ، فقد كانت من سيّدات نساء الدنيا في هذه الظاهرة الفذة ، فقد حُملت بعد مقتل أخيها من كربلاء إلى الكوفة سبية ومعها بنات رسـول الله ﷺ قـد نُـهب جميع ما عليهنّ من حُلي وما عندهنّ من أمتعة ، وقد أضرّ الجوع بأطفال أهل البيت وعقائلهم ، فترفعت العقيلة أن تـطلب مـن أولئك المـمسوخين ـمـن شـرطة ابـن مرجانة ـشيئاً من الطعام لهم ، ولمّا انتهى موكب السبايا إلى الكوفة ، وعلمن النساء أنّ السبايا من أهل بيت النبوة سارعن إلى تقديم الطعام إلى الأطفال الذيـن ذوت أجسامهم من الجوع ، فانبرت السيّدة زينب مخاطبة نساء أهل الكوفة قائلة :

« الصدقة محرّمة علينا أهل البيت . . » .

ولما سمع أطفال أهل البيت من عمّتهم ذلك ألقوا ما في أيديهم وأفواههم من الطعام ، وأخذ بعضهم يقول لبعض : إن عمّتنا تقول : الصدقة حرام علينا أهل البيت .

أيّ تربية فذّة تربّى عليها أطفال أهل البيت إنّها تربية الأنبياء والصدّيقين التي تسمو بالإنسان فترفعه إلى مستوى رفيع يكون من أفضل خلق الله .

ولمّا سُيِّرت سبايا أهل البيت من الكوفة إلى الشام لم تطلب السيّدة زيـنب طيلة الطريق أيّ شيء من الاسعافات إلى الأطفال والنساء مع شدّة الحاجة إليها ، فقد أنفت أن تطلب أيّ مساعدة من أولئك الجفاة الأنذال الذين رافقوا الموكب .

لقد ورثت عقيلة بني هاشم من جدّها وأبيها العزّة والكرامة والشرف والإباء ، فلم تخضع لأي أحدٍ مهما قست الأيام وتلبدت الظروف ، إنها لم تخضع إلّا إلى الله تعالى .

الشـجــاعـة :

ولم يشاهد الناس في جميع مراحل التأريخ أشجع ولا أربط جأشاً ولا أقوى جناناً من

الأُسرة النبوية الكريمة ، فالإمام أميرالمؤمنين (سلام الله عليه) عميد العترة الطاهرة كان من أشجع خلق الله ، وهو القائل :

« لو تضافرت العرب على قتالي لما وليت عنها » ، وقد خاض أعنف المعارك وأشدّها قسوة ، فجندل الأبطال ، وألحق بجيوش الشرك أفدح الخسائر ، وقد قام الإسلام عبل الذراع مفتول الساعد بجهاده وجهوده ، فهو معجزة الإسلام الكبرى ، وكان ولده أبو الأحرار الإمام الحسين ﷺ مضرب المثل في بسالته وشجاعته ، فقد حيّر الألباب وأذهل العقول بشجاعته وصلابته وقوة بأسه ، فقد وقف يوم العاشر من المحرم موقفاً لم يقفه أي أحدٍ من أبطال العالم ، فإنه لم ينهار أمام تلك النكبات المذهلة التي تعصف بالحلم والصبر ، فكان يزداد انطلاقاً وبشراً كلما ازداد الموقف بلاءً ومحنةً ، فإنه بعدما صُرِعَ أصحابه وأهل بيته زحف عليه الجيش بأسره ـ وكان عدده فيما يقول الرواة ثلاثين ألفاً ـ فحمل عليهم وحده وقد طارت أفئدتهم من الخوف والرعب ، فانهزموا أمامه كالمعزى إذا شدّ عليها الذئب ـ على حد تعبير بعض الرواة ـ وبقي صامداً كالجبل يتلقى الطعنات والسهام من كل جانب ، لم يوهن له ركن ، ولم تضعف له عزيمة .

يقول العلوي السيّد حيدر :

فـتلقى الجـموع فـرداً	ولكن كل عضو في الروع منه جموع
رمـحه مـن بـنانه وكأن مـن	عـزمه حـد سـيفه مـطبوع
زوّج السـيف بـالنفوس ولكـن	مـهرها المـوت والخـضاب النجيع

ولما سقط (سلام الله عليه) على الأرض جريحاً قد أعياه نزف الدماء تحامى الجيش الأُموي من الإجهاز عليه خوفاً ورعباً منه ، يقول السيّد حيدر :

عـفيراً مـتى عـاينته الكـماة	يـختطف الرعب ألوانـها
فـما أجـلت الحـرب عـن مـثله	صـريعاً يـجبّن شـجعانها

وتمثلت هذه البطولة العلوية بجميع صورها وألوانها عـند حـفيدة الرسـول وعقيلة بني هاشم السيّدة زينب (سلام الله عليها) ، فإنّها لمّا مثلت أمام الإرهابي المجرم سليل الأدعياء ابن مرجانة احتقرته واستهانت بـه ، فـاندفع الأثـيم يـظهر الشماتة بلسانه الألكن قائلاً:

الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم ، وكذّب أُحدوثتكم . . .

فانبرت حفيدة الرسول بشجاعة وصلابة قائلة :

« الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِنَبِيِّهِ ، وَطَهَّرَنَا مِنَ الرِّجْسِ تَطْهِيراً ، إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْفَاسِقُ وَيَكْذِبُ الْفَاجِرُ ، وَهُوَ غَيْرُنَا ، وَهُوَ غيرنَا يَابْنَ مَرْجَانَة . . »[1] .

لقد قالت هذا القول الصارم الذي هو أمض من السلاح ، وهي والمخدرات من آل محمّد في قيد الأسر ، وقد رفعت فوق رؤوسهن رؤوس حماتهن ، وشهرت عليهن سيوف الملحدين .

لقد أنزلت العقيلة ـ بهذه الكلمات ـ الطاغية من عرشه إلى قبره ، وعرّفته أمام خدمه وعبيده أنّه المفتضح والمنهزم ، وأنّ أخـاها هـو المـنتصر ، ولم يـجد ابـن مرجانة كلاماً يقوله سوى التشفّي بقتل عترة رسول الله ﷺ ، قائلاً:

كيف رأيت صنع الله بأخيك . . ؟[2] .

وانطلقت عقيلة بن هاشم ببسالة وصمود ، فأجابت بكلمات الظفر والنصر لها ولأخيها قائلة :

« مَـا رَأَيْتُ إِلاَّ جَـمِيلاً ، هٰـؤُلاءِ قَـوْمٌ كَـتَبَ اللهُ عَـلَيْهِمُ الْقَتْلَ ، فَـبَرَزُوا إِلىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَسَيَجْمَعُ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، فَتُحَاجُّ وَتُخَاصَمُ ، فَانْظُرْ لِمَنِ الْفَلَجُ يَوْمَئِذٍ ، ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَابْنَ مَرْجَانَةَ . . » .

أرأيتم هذا التبكيت الموجع ؟ أرأيتم هذه الشجاعة العلوية ؟ فـقد سـجلت

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٦٣ .

(٢) زينب الكبرى : ٦١ .

حفيدة الرسول ﷺ بموقفها وكلماتها فخراً للإسلام وعزاً للمسلمين ومجداً خالداً للأُسرة النبوية .

أما موقفها في بلاط يزيد ، وموقفها مع الشامي وخطابها الثوري الخالد فقد هزّ العرش الأُموي ، وكشف الواقع الجاهلي ليزيد ومن مكّنه من رقاب المسلمين ، وسنعرض لخطابها وسائر مواقفها المشرّفة في البحوث الآتية .

الزهد في الدنيا :

ومن عناصر سيدة النساء زينب عليها السلام : الزهد في الدنيا ، قد بذلت جميع زينتها ومباهجها مقتدية بأبيها الذي طلّق الدنيا ثلاثاً لا رجعة له فيها ، ومقتدية بأُمّها سيّدة نساء العالمين زهراء الرسول ، فقد كانت فيما رواه المؤرّخون لا تملك في دارها سوى حصير من سعف النخل وجلد شاة ، وكانت تلبس الكساء من صوف الإبل ، وتطحن بيدها الشعير ، إلى غير ذلك من صنوف الزهد والإعراض عن الدنيا ، وقد تأثرت عقيلة الرسول ﷺ بهذه الروح الكريمة فزهدت في جميع مظاهر الدنيا ، وكان من زهدها أنّها ما ادّخرت شيئاً من يومها لغدها حسب ما رواه عنها الإمام زين العابدين عليه السلام[1] . وقد طلقت الدنيا وزهدت فيها وذلك بمصاحبتها لأخيها أبي الأحرار ، فقد علمت أنه سيستشهد في كربلاء أخبرها بذلك أبوها ، فصحبته وتركت زوجها الذي كان يرفل بيته بالنعيم ومتع الحياة ، رفضت ذلك كلّه وآثرت القيام مع أخيها لنصرة الإسلام والذبّ عن مبادئه وقيمه ، وهي على علم بما تشاهده من مصرع أخيها ، وما يجري عليها بالذات من الأسر والذل ، لقد قدّمت على ذلك خدمة لدين الله تعالى .

---

(١) صحيح الترمذي ٢ : ٣١٩ ، وقريب منه رواه الحاكم في مستدركه ٣ : ١٤٩ ، وابن الأثير في أُسد الغابة ٥ : ٥٢٣ ، والخطيب في تأريخ بغداد ٧ : ٣٦ ، وغيرهم .

أحداث مروّعة

وقطعت عقيلة بني هاشم شوطاً من حياة الصبا في كنف جدّها الرسول ﷺ وفي ذرى عطفه ، وهي ناعمة البال قريرة العين ، يتلقاها بمزيدٍ من الحفاوة والتكريم ، وترى أبويها وقد غمرتهما المودة والألفة والتعاون ، فكانت حياتهما أسمى مثل للحياة الزوجية في الإسلام ، وقد نشأت في ذلك البيت الذي سادت فيه تلاوة كتاب الله العزيز ، وآداب الإسلام وأحكامه وتعاليمه ، فكان مركزاً للتقوى ومعهداً لمعارف الإسلام ، كما شاهدت الانتصارات الرائعة التي أحرزها الإسلام في الميادين العسكرية ، واندحار القبائل القرشية التي ناهضت الإسلام وناجزته بجميع ما تملك من قوة ، فقد اندحرت وأذلّها الله ، فقد فتحت مكة وطُهِّر بيتها الحرام من الأصنام والأوثان التي كانت تُعبد من دون الله تعالى .

ولعلّ من أهمّ ما شاهدته العقيلة في أدوار طفولتها هو احتفاء جدها الرسول ﷺ بأبيها وأُمّها وأخويها ، فقد كانوا موضع اهتمامه وعنايته ، وقد أثرت عنه كوكبة من الروايات أجمع المسلمون على صحتها ، وهذه بعضها :

١ ـ روى زيد بن أرقم : أن رسول الله ﷺ قال لعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام : « أنا حربٌ لمن حاربتم ، وسلم لمن سالمتم »[١] .

---

(١) مسند أحمد ١ : ٧٧ . صحيح الترمذي ٢ : ٣٠١ . تهذيب التهذيب ١٠ : ٤٣٠ ، وجاء فيه : أنّ نصر بن عليّ حدّث بهذا الحديث ، فأمر المتوكّل بضربه ألف سوط ، فكلّمه فيه جعفر بن عبدالواحد وجعل يقول له : إنّه من أهل السنّة ، فلم يزل يترجّاه حتى تركه .

٢ ـ روى أحمد بن حنبل بسنده : أنّ النبي ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين ، وقال : « من أحبني وأحبَّ هذين وأباهما وأمّهما كان معي في درجتي يوم القيامة »[١] .

٣ ـ روى أبو بكر ، قال : رأيت رسول الله ﷺ خيّم خيمة ، وهو متكئ على قوس عربية ، وفي الخيمة عليّ وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : « معاشر المسلمين ، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، وحربٌ لمن حاربهم ، ووليّ لمن والاهم ، لا يحبّهم إلّا سعيد الجدّ ، ولا يبغضهم إلّا شقي الجدّ رديء الولادة »[٢] .

٤ ـ روى ابن عباس : أنّ النبيّ ﷺ قال : « النجوم أمانٌ لأهل الأرض من الغرق ، وأهل بيتي أمان لأمّتي من الاختلاف ، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس »[٣] .

٥ ـ روى زيد بن أرقم : أن رسول الله ﷺ قال : « إني تاركٌ فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما »[٤] .

٦ ـ روى أبو سعيد الخدري ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلّف عنها غرق ، وإنّما مثل أهل بيتي

---

(١) الرياض النضرة ٢ : ٢٥٢ .

(٢) مستدرك الحاكم ٣ : ١٤٩ . كنز العمّال ٦ : ١١٦ . الصواعق المحرقة : ١١١ . نصّ الحديث : « النجوم أمان لأهل الأرض وأهل بيتي أمان لأمّتي » .

(٣) صحيح الترمذي ٢ : ٣٠٨ . أسد الغابة ٢ : ١٢ . وما يقرب من هذا الحديث روي في : كنز العمّال ١ : ٤٨ . مجمع الهيثمي ٩ : ١٦٣ .

(٤) مجمع الزوائد ٩ : ١٦٨ . مستدرك الحاكم ٢ : ٤٣ . تأريخ بغداد ٢ : ١٩ . ذخائر العقبى : ٢٠ .

فيكم مثل باب حطّة في بني إسرائيل من دخله غفر له »[١] .

٧ ـ روى أبو برزة ، قال : صلّيت مع رسول الله ﷺ سبعة أشهر ، فإذا خرج من بيته ، أتى باب فاطمة ﷺ ، فقال : « السلام عليكم ، إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً »[٢] .

رأت العقيلة هذا الاحتفاء البالغ من جدّها الرسول ﷺ لأبيها وأمّها وأخويها ، ووعت الغاية من صنوف هذا التكريم والتعظيم ، وأنّه ليس مجرد عاطفة وولاء لهذه الأسرة الكريمة ، وإنّما هو للإشادة بما تتمتّع به من الصفات الفاضلة ، والقابليات الفذّة التي ترشحهم لقيادة الأمّة ، وتطويرها فكرياً واجتماعياً ، وأنّه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تحتلّ أمّته مركزاً كريماً تحت الشمس ، وتكون رائدة لأمم العالم وشعوب الأرض إلّا بقيادة السادة من عترته الذين وعوا الإسلام ، والتزموا بحرفية الرسول ﷺ .

خطوب مروّعة :

ولم تدم الحالة الهانئة للأسرة النبوية فقد دهمتهم كارثة مروّعة فقد بدت على الرسول ﷺ طلائع الرحيل عن هذه الدنيا تلوح أمامه ، فكان القرآن الكريم قد نزل عليه مرتين فاستشعر بدنوّ الأجل المحتوم منه[٣] ، وأخبر بضعته الزهراء ﷺ ، فقال لها :

---

(١) ذخائر العقبى : ٢٤ . روى أنس بن مالك : أنّ النبيّ ﷺ كان يمرّ ببيت فاطمة ستّة أشهر إذا خرج إلى الفجر ويقول : « الصلاة يا أهل البيت » ، ويتلو الآية الكريمة . جاء ذلك في : مجمع الزوائد ٩ : ١٦٩ . أنساب الأشراف ١ : ١٥٧ ، القسم الأوّل .

(٢) الخصائص الكبرى ٢ : ٣٦٨ .

(٣) تأريخ ابن كثير ٥ : ٢٢٣ .

« إن جبرئيل كان يعارضني بالقرآن في كل سنة مرة ، وأنّه عارضني بهذا العام مرتين ، وما أرى ذلك إلّا اقتراب أجلي »[١] .

وتفطّع قلب زهراء الرسول ألماً وحزناً ، وشاعت الكآبة والحزن عند أهل البيت وذوت عقيلة بني هاشم من هذا النبأ المريع ، وطافت بها وهي في فجر الصبا تيارات من الأسى .

ونزلت على النبي ﷺ سورة النصر فكان يسكت بين التكبير والقراءة ويقول :

« سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » .

وذُهل المسلمون ، وفزعوا إليه يسألونه عن هذه الحالة الراهنة ، فأجابهم :

« إن نفسي قد نعيت إليّ »[٢] .

وكادت نفوس المسلمين أن تزهق من هذا النبأ المريع ، فقد وقع عليهم كالصاعقة ، فلم يدرون ماذا سيجري عليهم لو خلت الدنيا من منقذهم ومعلّمهم وقائدهم .

رؤيا العقيلة :

ورأت العقيلة في منامها رؤيا أفزعتها ، وأذهلتها فأسرعت إلى جدها الرسول ﷺ تقصّها عليه ، ولما مثلت عنده أجلسها في حجره وجعله يوسعها تقبيلاً ، فقالت له :

« يا جدّاه ، رأيت رؤيا البارحة . . » .

« قصّيها عليّ » .

« رأيت ريحاً عاصفاً اسودّت الدنيا منه وأظلمت ، ففزعتُ إلى شجرة عظيمة فتعلقت بها من شدّة العاصفة ، فقلعتها الرياح وألقتها على الأرض ، فتعلقت بغصنٍ

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب ١ : ١٦٧ .

(٢) زينب الكبرى : ١٩ .

قويّ من تلك الشجرة فقطعتها الرياح ، فتعلقت بفرع آخر فكسرته الرياح أيضاً ، وسارعت فتعلّقت بأحد فرعين من فروعهما فكسرته العاصفة أيضاً ، ثم استيقظت من نومي » .

فأجهش النبيّ ﷺ بالبكاء ، وفسّر لها رؤياها قائلاً :

« أما الشجرة : فجدّك ، وأمّا الفرع الأوّل : فأُمّك فاطمة ، والثاني : أبوك عليّ ، والفرعان الآخران هما : أخواك الحسنان ، تسودّ الدنيا لفقدهم وتلبسين لباس الحداد في رزيتهم »(١) .

وساد الحزن والأسى في البيت النبوي ، وصدقت رؤيا العقيلة فلم تمض أيام حتى رزئت بجدّها وأُمّها ، وتتابعت عليها بعد ذلك الرزايا ، فقد استشهد أبوها وأخواها ، ولبست عليهم لباس الحزن والحداد .

حجة الوداع :

ولمّا علم النبي ﷺ أنّ لقاءه بربّه قريب ، رأى أن يحجّ إلى بيت الله الحرام ليلتقي بالمسلمين ، ويضع لهم الخطوط السليمة لنجاتهم ، ويقيم فيهم القادة والمراجع الذين يقيمون فيهم الحق والعدل .

وحجّ النبيّ ﷺ لهذا الغرض ، وهي حجّته الأخيرة الشهيرة بـ(حجة الوداع) ، وقد أشاع بين حجاج بيت الله أنّ التقاءه بهم في هذا العام هو آخر التقاء بهم ، وأنه سيسافر إلى الفردوس الأعلى ، وجعل يطوف بين الجماهير ، ويعرّفهم سبل النجاة ، ويرشدهم إلى ولاة أُمورهم من بعده قائلاً :

« أيّها الناس ، إني تركت فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي »(٢) .

---

(١) صحيح الترمذي ٢ : ٣٠٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٩١ ـ ٩٢ .

ثم وقف النبيّ ﷺ عند بئر زمزم وخطب خطاباً رائعاً وحافلاً بما تحتاج إليه الأُمّة في مجالاتها الاجتماعية والسياسية ، وقال فيما يخصّ القيادة الروحية والزمنية للأُمّة :

« إني خلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ألا هل بلّغت » .

فانبرت الجماهير بصوتٍ واحدٍ قائلين : اللّهمّ نعم[١] .

لقد عيّن الرسول ﷺ القيادة العامة لأُمّته وجعلها مختصة بأهل بيته ، فهم ورثة علومه ، وخزنة حكمته ، الذين يعنون بالإصلاح الاجتماعي ، ويؤثرن مصلحة الأُمّة على كل شيء .

مؤتمر غدير خم :

وقفل النبي ﷺ بعد أداء مراسيم الحج إلى يثرب وحينما انتهى موكبه إلى (غدير خم) نزل عليه الوحي برسالةٍ من السماء أن يُنصب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام خليفةً من بعده ، ومرجعاً عاماً للأُمّة ، لقد نزل عليه الوحي بهذه الآية :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢] .

ففي هذه الآية إنذار خطير إلى الرسول ﷺ ، إذ أنّه إن لم يقم بهذه المهمة فما بلّغ رسالة ربّه ، وضاعت جميع جهوده وأتعابه في سبيل هذا الدين ، فانبرى ﷺ فحطّ أعباء المسير ، ووضع رحله في رمضاء الهجير ، وأمر قوافل الحجّ أن تفعل مثل ذلك ، وكان الوقت قاسياً في حرارته فكان الرجل يضع طرف ردائه تحت قدميه

---

(١) الغدير ٢ : ٣٤ .

(٢) المائدة : ٦٧ . نصّ على نزول هذه الآية في يوم الغدير : الواحدي في أسباب النزول والرازي في تفسيره ، وغيرهما .

ليتقي به من حرارة الأرض ، وقام النبي ﷺ فصلّى بالناس ، وبعد أداء فريضة الصلاة أمر بأن يوضع له منبر من حدائج الإبل ، فصُنع له ذلك ، فاعتلى عليه ، واتّجهت الجماهير بعواطفها وقلوبها نحو النبيّ ﷺ ، فخطب خطاباً مهماً ، أعلن فيه ما لاقاه من عناء شاق في سبيل هدايتهم ، وتحرير إرادتهم ، وإنقاذهم من خرافات الجاهلية وعاداتها ، ثم ذكر طائفة من أحكام الإسلام وتعاليمه ، وألزمهم بتطبيقها على واقع حياتهم ، ثم التفت إليهم فقال :

« انظروا كيف تخلفوني في الثقلين . . » .

فناداه منادٍ من القوم :

ما الثقلان يا رسول الله ؟ .

فأجابه :

« الثقل الأكبر : كتاب الله ، طرف بيد الله عزّ وجلّ وطرف بأيديكم ، فتمسّكوا به لا تضلوا ، والآخر الأصغر : عترتي ، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فسألت ذلك لهما ربّي ، فلا تقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا . . » .

ثم أخذ بيد وصيّه وباب مدينة علمه وناصر دعوته الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ليفرض ولايته على جميع المسلمين فرفعها حتى بان بياض إبطيهما ، ونظر إليهما القوم ، ورفع النبي صوته قائلاً :

« أيها الناس ، من أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » .

فانبرت قوافل الحجاج رافعة عقيرتها :

الله ورسوله أعلم . . .

ووضع النبيّ ﷺ القاعدة الأصلية التي تصون المسلمين من الانحراف قائلاً :

« إنّ الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أوْلى بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه » .

وكرّر هذا القول ثلاث مرات ، أو أربع : ثم قال :

« اللهمّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وأحبَّ من أحبّه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب . . . » .

لقد أدّى النبي ﷺ رسالة ربّه ، فنصب الإمام أميرالمؤمنين خليفةً من بعده ، وقلّده منصب الإمامة والمرجعية العامة ، وأقبل المسلمون يهرعون صوب الإمام وهم يبايعونه بالخلافة ويهنئونه بإمرة المسلمين وقيادتهم ، وأمر النبيّ أُمّهات المؤمنين أن يهنئن الإمام بهذا المنصب العظيم ، ففعلن ، وأقبل عمر بن الخطاب نحو الإمام فصافحه وهنّأه ، وقال له :

هنيئاً يابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[1] .

وفي ذلك اليوم الخالد نزلت الآية الكريمة : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[2] .

لقد تمّت نعمة الله الكبرى على المسلمين بولاية بطل الإسلام ورائد العدالة الاجتماعية في الأرض الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد خطا النبيّ ﷺ الخطوة الأخيرة في أداء رسالته ، فصان أُمّته من الزيغ والانحراف ، فنصب لها القائد والموجّه ولم يتركها فوضى ـ كما يزعمون ـ تتلاعب بها الفتن والأهواء وتتقاذفها أمواج من الضلال ، إنّ وثيقة الغدير من أروع الأدلة وأوثقها على اختصاص الخلافة والإمامة بباب مدينة علم النبيّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وهي جزء من رسالة الإسلام وبند من أهم بنوده ؛ لأنها تبنّت القضايا المصيرية للعالم الإسلامي على امتداد التأريخ .

---

(١) مسند أحمد ٤ : ٢٨١ .

(٢) المائدة : ٣ . نصّ على نزول هذه الآية في يوم الغدير : الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٨ : ٢٩ ، السيوطي في الدرّ المنثور ، وغيرهما من أعلام أهل السنّة .

لقد وعت سيّدة النساء زينب ﷺ ، وهي في فجر الصبا هذه البيعة لأبيها ، وأنّ جدها قد قلّده بهذا المنصب الخطير لسلامة الأُمّة وتطورها ، والبلوغ بـها إلى أعلى المستويات من التقدّم ، والقيادة العامة لشعوب العالم وأُمم الأرض ، ولكن القوم قد سلبوا أباها هذا المنصب ، وجعلوه فـي مـعزل عـن الحـياة الاجـتماعية والسياسية ، وقـد أخـلدوا بـذلك للأمّـة المـحن والخـطوب ، وتـجرعت حـفيدة النبي ﷺ بالذات أهوالاً من المصائب والكوارث كانت ناجمة ـ من دون شك ـ عن هذه المؤامرة التي حيكت ضد أبيها ، فإنّا لله وإنا إليه راجعون .

مرض النبي ﷺ :

ولما قفل النبي ﷺ بعد حجة الوداع راجعاً إلى يثرب بدأت صحّته تنهار يوماً بعد يوم ، فقد ألمّ به المرض ، وأصابته حمى مبرحة ، حتى كأن به لهباً منها ، وكانت عليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعوّاده عليها أيديهم شعروا بحرّها [(١)] . وقد وضعوا إلى جواره إناءً فيه ماء بارد فكان يضع يده فيه ويمسح به وجهه الشريف ، وكان ﷺ يقول : « ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلته بـ(خيبر) ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم »[(٢)] . فقد قدمت له امرأة يهودية في خيبر ذلك الطعام الذي سمّته فأثّر فيه .

ولما أُشيع مرض النبيّ ﷺ هرع المسلمون إلى عيادته ، وقد خـيّم عـليهم الأسى والذهول ، فنعى ﷺ إليهم نفسه ، وأوصاهم بـما يسـعدون ويـفلحون بـه قائلاً :

« أيها الناس ، يوشك أن أُقبض قبضاً سريعاً فينطلق بي ، وقدمت إليكم القول

---

(١) البداية والنهاية ٥ : ٢٢٦ .

(٢) حياة الإمام الحسين ﷺ ١ : ٢٠٢ .

معذرة إليكم ، ألّا إنّي مخلّف فيكم كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي . . » .

ثم أخذ بيد وصيّه وخليفته الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال لهم :

« هـذا علي مع القرآن ، والقرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض . . »[١] .

لقد قرّر النبيّ صلى الله عليه وآله أهم القضايا المصيرية لأمّته ، فعيّن لها القائد العظيم الذي يحقّق لها جميع أهدافها وما تصبو إليه في حياتها .

سرية أسامة :

ورأى النبي صلى الله عليه وآله وهو في المرحلة الأخيرة من حياته التيارات الحزبية التي صممت على إقصاء عترته عن قيادة الأمّة ، فرأى أن خير وسيلة يتدارك بها الموقف أن يزج بجميع أصحابه في بعثة عسكرية حتى إذا وافاه الأجل المحتوم تكون عاصمته خالية من العناصر المضادة لوليّ عهده ، فأسند قيادة البعثة إلى أسامة بن زيد ، وهو شاب في مقتبل العمر ، وكان من بين الجنود أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الجراح ، وبشير بن سعد[٢] . وقال النبي لأسامة :

« سِر إلى موضع قتل أبيك ، فأوطئهم الخيل ، فقد ولّيتك هذا الجيش فاغزِ صباحاً على أهل أبنى[٣] وحرق عليهم ، وأسرع السير لتسبق الأخبار ، فإن أظفرك الله عليهم فاقلل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلّاء وقدّم العيون والطلائع معك . . » .

ومُني الجيش بالتمرّد وعدم الطاعة ، فلم يلتحق أعلام الصحابة بوحداتهم

---

(١) الصواعق المحرقة : ١٢٤ .

(٢) كنز العمّال ٥ : ٣١٢ . طبقات ابن سعد ٤ : ٤٦ . تأريخ الخميس ٢ : ٤٦ .

(٣) ابنى : ناحية بالبلقاء من أرض سوريا ، بين عسقلان والرملة ، تقع بالقرب من مؤتة ، وهي التي استشهد فيها زيد بن حارثة وجعفر الطيّار .

العسكرية ، ولمّا علم النبيّ ﷺ بذلك تألّم ، فخرج مع ما به من المرض ، فحثّ الجند على المسير ، وعقد بنفسه اللواء لأُسامة ، وقال له :

« اغز بسم الله ، وفي سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله . . » .

فخرج أُسامة بلوائه معقوداً ، ودفعه إلى بريدة ، وعسكر بـ (الجرف) ، وتثاقل جمعٌ من الصحابة عن الالتحاق بالمعسكر ، وأظهروا الطعن والاستخفاف بأُسامة القائد العام للجيش ، يقول له عمر :

مات رسول الله وأنت عليَّ أمير . . .

وانتهت كلماته إلى النبيّ ، وقد أخذت منه الحمّى مأخذاً عظيماً ، فخرج وهو معصّب الرأس قد برح به المرض ، فصعد المنبر والتأثّر بادٍ عليه ، فقال :

« أيّها الناس ، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أُسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أُسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وأيم الله ، إنّه كان خليقاً بالإمارة وأنّ ابنه من بعده لخليقٌ بها . . » .

ثم نزل عن المنبر ودخل بيته والتأثّر بادٍ عليه[1] . وجعل يوصي أصحابه بالالتحاق بالجيش قائلاً :

« جهزوا جيش أُسامة . . » .

« نفذوا جيش أُسامة . . » .

« لعن الله من تخلّف عن جيش أُسامة . . » .

ولم ترهف عزائم القوم هذه الأوامر المشدّدة ، فقد تثاقلوا عن الالتحاق بالجيش ، واعتذروا للرسول بشتّى المعاذير ، وهو ﷺ لم يمنحهم العذر ، وإنّما أظهر لهم السخط وعدم الرضا ، فقد استبانت له بصورة جلية نيّاتهم وتآمرهم ، كما عرفوا قصده بهذا الاهتمام البالغ من إخراجهم من يثرب .

---

(١) السيرة الحلبية ٣ : ٣٤ .

رزية يوم الخميس :

وأحاط النبي ﷺ علماً بالتحركات السياسية من بعض أصحابه وأنهم عازمون ومصرون على صرف الخلافة عن أهل بيته ، وإفساد ما أعلنه غير مرة من أن عترته الأزكياء هم ولاة أمر المسلمين من بعده ، فرأى ﷺ أن يحكم الأمر ، ويحمي أمّته من الفتن والزيغ ، فقال لمن حضر في مجلسه :

« إئتوني بالكتف والدواة ، أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً »[١] .

حقّاً إنّها فرصة من أثمن الفرص وأندرها في تأريخ الإسلام ، إنّه التزام واضح وصريح من سيّد الكائنات أن أمّته لا تصاب بنكسة وانحراف بعد هذا الكتاب .

ما أعظم هذه النعمة على المسلمين ، إنه ضمان من سيد الأنبياء أن لا تضل أمّته في مسيرتها وتهتدي إلى سواء السبيل في جميع مراحل تأريخها ، واستبان لبعض القوم ماذا يكتب رسول الله ﷺ ، إنه سينصّ على خلافة عليّ من بعده ، ويعزّز بيعة يوم الغدير ، وتضيع بذلك أطماعهم ومصالحهم ، فردّ عليه أحدهم قائلاً بعنف : حسبنا كتاب الله . . .

ولو كان هذا القائل يحتمل أنّ النبيّ ﷺ يوصي بحماية الثغور أو بالمحافظة على الشؤون الدينية ما ردّ عليه بهذه الجرأة ، ولكنه علم قصده أنّه سيوصي بأهل بيته وينصّ على خلافة عليّ من بعده .

وكثر الخلاف بين القوم ، فطائفة حاولت تنفيذ ما أمر به النبيّ ﷺ ، وطائفة أخرى أصرّت على معارضتها والحيلولة بين ما أراده النبيّ ﷺ ، وانطلقت بعض السيّدات فأنكرن على القوم هذا الموقف المتّسم بالجرأة على النبيّ وهو في الساعات الأخيرة من حياته ، فقلن لهم : ألا تسمعون ما يقول رسول الله ﷺ . . .

فثار عمر وصاح فيهنّ ، خوفاً أن يفلت الأمر منه ومن حزبه ، فقال للسيدات :

---

(١) الرواية أخرجها البخاري ومسلم ، والطبراني في الأوسط ، وغيرهم .

إنكنّ صويحبات يوسف إذا مرض عصرتن أعينكن ، وإذا صحّ ركبتن عنقه . . .

فنظر إليه النبي ﷺ ، بغضبٍ وغيظٍ ، وقال له :

« دعوهنّ فإنّهنّ خير منكم . . » .

وبدا صراع رهيب بين القوم ، وكادت أن تفوز الجهة التي أرادت تنفيذ أمر النبيّ ﷺ ، فانبرى أحدهم فأفشل ما أراده النبيّ وحال بينه وبين ما أراد من إسعاد أُمّته ، فقال ويا لهول ما قال : إنّ النبيّ ليهجر . .[1] .

ألم يسمع هذا القائل كلام الله تعالى الذي يتلى في آناء الليل وأطراف النهار وهو يعلن تكامل النبي في جميع مراحل حياته ، فقد زكّاه وعصمه من الهجر وغيره من ألوان الزيغ والانحراف ، وإنه أسمى شخصية في تكامله وسموّ ذاته ، قال تعالى : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[3] .

إنّ القوم لم يخامرهم أدنى شك في عصمة النبيّ وتكامل ذاته ، ولكن حبّ الدنيا ، والتهالك على السلطة دفعهم للجرأة على النبيّ ﷺ ، ومقابلتهم له بمرّ القول والطعن بشخصيته .

وكان ابن عباس إذا ذكر هذا الحادث الرهيب يبكي حتى تسيل دموعه على خديه كأنّها نظام اللؤلؤ ، وهو يصعد آهاته ، ويقول :

يوم الخميس وما يوم الخميس !! قال رسول الله ﷺ : « ائتوني بالكتف

---

(١) نصّ على هذه الحادثة المؤلمة جميع الرواة والمؤرّخين في الإسلام ، ذكرها : البخاري في صحيحه عدّة مرّات ، إلّا أنّه كتم اسم قائلها ، وفي نهاية غريب الحديث ، وشرح النهج ٣ : ١١٤ (صُرّح باسم القائل) .

(٢) النجم : ٢ ـ ٥ .

(٣) التكوير : ١٩ ـ ٢٢ .

والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أيداً » فقالوا : إن رسول الله يهجر . .[١] .

حقّاً إنّها رزية الإسلام الكبرى ، فقد حيل بين المسلمين وسعادتهم ونجاتهم من الزيغ والضلال .

لقد وعت السيّدة زينب هذا الحادث الخطير ، ووقفت على أهداف القوم من إبعاد أبيها عن المركز الذي نصبه جدّها فيه ، فقد جرّ هذا الحادث وغيره ممّا صدر من القوى المعارضة لأهل البيت الكوارث والخطوب لهم ، وما كارثة كربلاء إلّا من نتائج هذه الأحداث .

لوعة الزهراء :

ونخب الحزن قلب بضعة الرسول ، وبرح بها الألم القاسي وذهبت نفسها شعاعاً حينما علمت أن أباها مفارق لهذه الحياة ، فقد جلست إلى جانبه وهي مذهولة كأنها تعاني آلام الاحتضار وسمعته يقول :

« واكرباه . . . » .

فأسرعت وهي تجهش بالبكاء قائلة :

« واكربي لكربك يا أبتي . . » .

وأشفق الرسول ﷺ على بضعته ، فقال لها مسلّياً :

« لاكرب على أبيك بعد اليوم . . »[٢] .

وهامت زهراء الرسول في تيارات مروعة من الأسى والحزن فقد أيقنت أنّ أباها سيفارقها ، وأراد النبيّ ﷺ أن يسلّيها ويخفّف لوعة مصابها فأسرّ إليها بحديثٍ ، فلم تملك نفسها أن غامت عيناها بالدموع ، ثم أسرّ إليها ثانياً ، فقابلته

---

(١) مسند أحمد ١ : ٣٥٥ ، وغيره .

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ١١٢ .

ببسمات فيّاضة بالبشر والسرور ، فعجبت عائشة من ذلك وراحت تقول :

ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن . . .

وأسرعت عائشة فسألت زهراء الرسول عـما أسـرّ إليـها أبـوها ، فأشـاحت بوجهها الكريم عنها وأبت أن تخبرها ، ولكنها أخبرت بـعض السـيّدات بـذلك ، فقالت :

« أخبرني أنّ جبرئيل كان يعارضني بالقرآن في كلّ سنة مرّة ، وأنّه عارضني في هذا العام به مرتين ، ولا أراه إلّا قد حضر أجلي . . » .

وكان هذا هو السبب في لوعتها وبكائها ، أمّـا سـبب سـرورها وابـتهاجها ، فقالت :

« أخبرني أنّكِ أوّل أهل بيتي لحوقاً بي ، ونِعْمَ السلف أنا لك ، ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة . . »[1] .

ونظر إليها النبي ﷺ وهي خائرة القوى ، منهدة الركن ، فأخذ يخفّف عنها لوعة المصاب ، قائلاً :

« يا بنية ، لا تبكي ، وإذا متّ فقولي : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، فإن فيها من كل ميّت معوضة . . » .

وأجهشت بضعة الرسول بالبكاء قائلةً :

« ومنك يا رسول الله . . . » .

« نعم ومنّي . . . »[2] .

واشتدّ المرض برسول الله ﷺ والزهراء إلى جانبه وهي تبكي وتقول لأبيها :

« يا أبت ، أنت كما قال القائل فيك :

---

(١) المصدر السابق ١ : ١١٣ .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ١٣٣ ، القسم الأوّل .

وأبـيض يسـتسقى الغـمام بـوجهه ثـمال اليـتامى ، عـصمة الأرامـل »

فقال لها رسول الله ﷺ : « هذا قول عمّك أبي طالب ، وتلا قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1] .

وتقطّع قلب زهراء الرسول ألماً وحزناً على أبيها ، فانكبّت عليه ومعها الحسنان ، فألصقت صدرها بصدره وهي غارقة في البكاء ، فأجهش النبي بالبكاء ، وهو يقول :

« اللّهمّ أهل بيتي ، وأنا مستودعهم كل مؤمن . . . » .

وجعل يردّد ذلك ثلاث مرات حسبما يرويه أنس بن مالك[2] .

أمّا حفيدة الرسول زينب ، فقد شاركت أمّها في لوعتها وأحزانها ، وقد ذابت نفسها حزناً وموجدة على أمّها التي هامت في تيارات مذهلة من الأسى والشجون على أبيها الذي هو عندها أعزّ من الحياة .

إلى الفردوس الأعلى :

وبعدما أدّى النبيّ العظيم رسالة ربّه إلى المسلمين ، وأقام صروح الإسلام ، وعيّن القائد العام لأُمّته الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، فقد اختاره الله تعالى إلى جواره لينعم في الفردوس الأعلى ، فقد هبط عليه ملك الموت ، فاستأذن بالدخول عليه ، فخرجت إليه زهراء الرسول فأخبرته أنّ رسول الله ﷺ مشغول بنفسه عنه ، فانصرف ثم عاد بعد قليل يطلب الإذن ، فأفاق النبيّ ﷺ من إغمائه ، والتفت إلى بضعته فقال لها :

« يا بنية ، أتعرفيه ؟ » .

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ١٣٣ ، القسم الأوّل .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١ : ٢١٦ .

« لا يا رسول الله . . . » .

« إنّه معمّر القبور ، ومخرّب الدور ، ومفرّق الجماعات . . » .

وجمدت بضعة الرسول ، وأخرسها الخطب ، ولم تملك نفسها أن رفعت صوتها ودموعها تتبلور على وجهها الشريف قائلةً :

« وا أبتاه لخاتم الأنبياء ، وا مصيبتاه لممات خير الأتقياء ولانقطاع سيّد الأصفياء ، وا حسرتاه لانقطاع الوحي من السماء ، فقد حرمت اليوم كلامك . . » .

وتصدّع قلب النبيّ على بضعته وأشفق عليها ، فقال لها مسلياً :

« لا تبكي فإنّك أوّل أهلي لحوقاً بي . . »[١] .

وسكنت روعتها لمّا أخبرها أنّها لا تبقى بعده إلّا قليلاً . . وأذن النبي ﷺ لملك الموت ، فلمّا مثُلَ أمامه ، قال له :

« يا رسول الله ، إنّ الله أرسلني إليك ، وأمرني أن أُطيعك في كل ما أمرتني ، إن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتني أن أتركها تركتها . . » .

فبهر النبيّ ﷺ وقال له :

« أتفعل يا ملك الموت ذلك . . » .

« بذلك أُمرت أن أُطيعك في كل ما أمرتني . . » .

وهبط جبرئيل على النبي ﷺ ، فقال له :

« يا أحمد ، إن الله قد اشتاق إليك . . »[٢] .

واختار النبيّ ﷺ جوار ربّه والرحيل عن هذه الدنيا ، فأذن لملك الموت بقبض روحه العظيمة ، وفي هذه اللحظات ألقى الحسنان بأنفسهما على جدّهما ، وهما يذرفان الدموع ، والنبي يوسعهما تقبيلاً ، وأراد الإمام أميرالمؤمنين أن ينحّيهما عنه فأبى النبيّ ، وقال له :

---

(١) درّة الناصحين : ٦٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢ : ٤٨ .

« دعهما يتمتّعان منّي وأتمتّع منهما فسيصيبهما بعدي إثرة . . » .

والتفت النبيّ إلى عوّاده فأوصاهم بعترته قائلاً :

« قد خلّفت فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فالمضيّع لكتاب الله كالمضيع لسنّتي ، والمضيّع لسنّتي كالمضيّع لعترتي ، إنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض . . »[١] .

والتفت النبيّ ﷺ إلى باب مدينة علمه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، فقال له :

« ضع رأسي في حجرك فقد جاء أمر الله ، فإذا فاضت نفسي فتناولها وامسح بها وجهك ، ثم وجّهني إلى القبلة ، وتولّ أمري ، وصلّ عليّ أوّل الناس ، ولا تفارقني حتى تواريني في رِمسي ، واستعن بالله عزّ وجلّ »[٢] .

وأخذ الإمام أميرالمؤمنين رأس النبيّ فوضعه في حجره ، ومدّ يده اليمنى تحت حنكه وشرع ملك الموت بقبض روحه الطاهرة ، والرسول يعاني آلام الموت وقسوته حتى فاضت روحه العظيمة فمسح بها الإمام وجهه[٣] .

لقد ارتفع ذلك اللطف الإلهي الذي أضاء العقول وحرّر الأفكار ، وأقام مشاعل النور في جميع بقاع الأرض .

لقد سمت روح النبي ﷺ إلى بارئها ، وهي أقدس روح سمت إلى السماء منذ خلق الله هذه الأرض .

لقد أشرقت الآخرة لقدومه ، وأظلمت الدنيا لفقده ، وما أصيبت الإنسانية بكارثة أقسى وأعظم من فقد الرسول العظيم .

---

(١) مقتل الحسين ـ الخوارزمي ١ : ١١٤ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١ : ٢٢٠ .

(٣) المناقب ١ : ٢٩ ، وتضافرت الأخبار بأنّ النبيّ ﷺ توفّي ورأسه الشريف في حجر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، جاء ذلك في : كنز العمّال ٢ : ٥٥ ، طبقات ابن سعد ، وغيرهما .

تجهيزه:

وانبرى الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام وهو خائر القوى ، منهدّ الركن إلى تـجهيز جـثمان سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله فغسّل الجسد الطاهر ، وهو يقول بذوب روحه :

« بأبي أنت وأمي ، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك مـن النـبوة والأنباء وأخبار السماء ، خصصت حتى صرت مسلياً عمّن سواك ، وعممت حتى صار الناس فيك سواء . ولولا أنّك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع لأنفذنا عليك ماء الشؤون ، ولكان الداء مماطلاً ، والكد مخالفاً »[1] .

وكان العباس وأسامة يناولانه الماء من وراء الستر[2] .

وكان بدن رسول الله صلى الله عليه وآله تفوح منه روائح الطيب ، والإمام عليه السلام يقول :

« بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، طبت حيّاً وميّتاً . . »[3] .

وبعد الفراغ من غسله أدرجه الإمام في أكفانه ووضعه على السرير .

وأوّل من صلّى على الجثمان العظيم هو الله تـعالى مـن فـوق عـرشه ، ثـمّ جبرئيل ، ثم إسرافيل ، ثم الملائكة زمراً زمراً[4] .

وبعد ذلك صلّى عليه الإمام أميرالمـؤمنين ، ثـم أقـبل المسـلمون للـصلاة عليه ، فقال لهم الإمام : « لا يقوم عليه إمام منكم ، هو إمامكم حيّاً وميّتاً » ، فكانوا يدخلون رسلاً رسلاً فيصلّون عليه صفاً واحداً ليس لهم إمام ، وأميرالمؤمنين واقف إلى جانب الجثمان وهو يقول :

« السلام عليك أيّها النبي ورحمة الله وبركاته ، اللّهمّ إنّا نشهد أنّه قد بلّغ ما

---

(١) نهج البلاغة ـ محمّد عبده ٢ : ٢٥٥ .

(٢) وفاء الوفاء ١ : ٢٢٧ . البداية والنهاية ٥ : ٦٣ .

(٣) حلية الأولياء ٤ : ٧٧ .

(٤) المصدر السابق .

أُنزل إليه لأُمّته ، وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله دينه وتمّت كلمته . اللّهمّ فاجعلنا ممّن يتّبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه . . » .

وكانت الجماهير تقول : آمين[١] . وقد نخب الحزن قلوبهم فقد مات من دعاهم إلى الحق ، وحرّرهم من خرافات الجاهلية وأوثانها ، وأقام لهم دولة تدعو إلى إنصاف المظلوم ، وردع الظالم ، وإشاعة الرفاهية والرخاء والأمن بين الناس .

مواراة الجثمان المقدس :

وبعد أن فرغ المسلمون من الصلاة على الجثمان العظيم وودّعوه الوداع الأخير ، قام الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام فوارى الجسد الطاهر في مثواه الأخير ووقف على حافة القبر وهو يروي ثراه بدموع عينيه ، ويقول :

« إنّ الصبر لجميل إلّا عنك ، وإن الجزع لقبيح إلّا عليك ، وإنّ المصاب بك لجليل ، وإنّه قبلك وبعدك لجلل . . »[٢] .

لقد مادت أركان العدل وانطوت ألوية الحق ، فقد غاب عن هذه الحياة سيّد الكائنات الذي غيّر مجرى التأريخ ، وأقام صروح الوعي والفكر في دنيا العرب والإسلام .

فجيعة الزهراء :

وكان أكثر أهل بيت النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله جزعاً وأشدّهم مصاباً بضعة الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله ، وحبيبته فاطمة الزهراء ، فقد أشرفت على الموت ، وهي تبكي أمرّ البكاء وأقساه ، وتقول :

« وا أبتاه ، وا رسول الله ، وا نبيّ الرحمتاه ، الآن لا يأتي الوحي ، الآن ينقطع

---

(١) كنز العمّال ٤ : ٥٤ .

(٢) نهج البلاغة ـ محمّد عبده ٣ : ٢٢٤ .

عنّا جبرئيل . اللّهمّ إلحق روحي بروحه ، واشفعني بالنظر إلى وجهه ، ولا تحرمني أجره وشفاعته يوم القيامة »[1] .

وقالت بذوب روحها :

« وا أبتاه إلى جبرئيل أنعاه ، وا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، وا أبتاه وا أبتاه أجاب رباً دعاه . . » .

وأحاطت بالأسرة النبوية موجات من الأسى والحزن على هذا المصاب العظيم كما أحاطت بها تيارات من الفزع والخوف ؛ لأنّ رسول الله ﷺ قد وتر الأقربين والأبعدين فخافوا من انقضاض العرب عليهم ، يقول الإمام الصادق عليه السلام :

« لمّا مات النبي ﷺ بات أهل بيته كأنّ لا سماء تظلّهم ولا أرض تقلّهم ؛ لأنّه وتر الأقرب والأبعد . . » .

لقد عانت حفيدة النبيّ ﷺ زينب عليها السلام وهي في سنّها المبكّر هذه المصيبة الكبرى وما تنطوي عليه من أبعاد ، وما ستعانيه هي وأهلها من فوادح الرزايا بعد وفاة جدّها كما فقدت بموته العطف والحنان الذي كان يغدقه عليها ، وكان عمرها الشريف خمس سنين ، وقد غزت قلبها هذه المحنة الشاقة ، فقد رأت جدّها يوارى في مثواه الأخير ، ورأت أباها بادي الهمّ والحزن على فراق ابن عمّه ، وشاهدت أمّها الرؤوم وهي ولهى قد ذابت من الأسى ، وهي تندب أباها بأشجى ما تكون الندبة ، ومنذ ذلك اليوم لازمها الأسى والحزن حتى لحقت بالرفيق الأعلى .

---

(١) تاريخ الخميس ٢ : ١٩٢ .

في عهد الخلفاء

لا يستطيع أيّ كاتب مهما كان بارعاً في تصوير دقائق النفوس ، وكشف أسرار المجتمع وأحداث التأريخ أن يصوّر بدقة عمق الكوارث والأوبئة التي داهمت الأُمّة الإسلامية بعد وفاة نبيّها العظيم ،كما صوّرها القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾[1] .

إنّه تصوير هائل للأزمات المفجعة والنكبات السود التي مُني بها العالم الإسلامي ، إنه انقلاب على الأعقاب ، وانسلاخ عن العقيدة الإسلامية ، وتدمير لشريعة الله ، فأيُّ زلزال مدمّر كهذا الزلزال الذي عصف بالأُمّة الإسلامية وأخلد لها الفتن والكوارث على امتداد التأريخ .

وكان من أقسى ما فجعت به الأُمّة إبعاد العترة الطاهرة عن المسرح السياسي وتحويل القيادة إلى غيرها ، الأمر الذي نجم عنه فوز الأُمويين وغيرهم بالحكم ، وإمعانهم بوحشية قاسية في ظلم العلويين ومطاردتهم ، ومجزرة كربلاء كانت من النتائج المباشرة لصرف الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام .

وعلى أيّ حال ، فإنّا نعرض ـ بإيجاز ـ لبعض تلك الأحداث ، والتي منها حكومة الخلفاء الذين عاصرتهم حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله ، فإنها ترتبط ارتباطاً موضوعياً بالكشف عن حياتها وما عانته من كوارث وأهوال ، وفيما يلي ذلك :

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

مؤتمر السقيفة:

أمّا مؤتمر السقيفة فهو مصدر الفتنة الكبرى التي مُني بها المسلمون والتي كان من جرّائها الأحداث المروّعة التي رزئ بها أهل البيت ، يقول الإمام محمّد حسين آل كاشف الغطاء:

تالله ما كربلاء لولا (سقيفتهم) ومثل هذا الفرع ذاك الأصل أنتجه

ويقول بولس سلامة:

وتوالت تحت السقيفة أحدا ث أثارت كوامناً وميولا

نزعات تفرقت كغصون الـ ـعوسج الخفيّ شائكاً مدخولاً

لقد أسرع الأنصار إلى عقد مؤتمرهم في (سقيفة بني ساعدة) ، لترشيح أحدهم لمنصب الخلافة ، وإقامة حكومة تضمن مصالحهم وترعى شؤونهم ، لقد عقدوا مؤتمرهم في وقت كان جثمان الرسول الأعظم ﷺ لم يوارَ في مثواه الأخير ، وأكبر الظنّ إنّما قاموا بهذه السرعة الخاطفة بذلك لأنّهم خافوا من استيلاء المهاجرين على الحكم ، فقد رأوا تحرّكهم السياسي في صرف الخلافة عن الإمام أميرالمؤمنين وكراهيتهم له .

وعلى أي حال ، فقد خطب سعد بن عبادة زعيم الخزرج في الأنصار ، وكان منطق خطابه الإشادة بنضال الأنصار وجهادهم في نصرة الإسلام وقهر القوى المعادية لهم ، فهم الذين حملوا النبي ﷺ ونصروه في أيام محنته ، فإذاً هم أوْلى بمركز النبي ﷺ وأحقّ بمنصبه من غيرهم ، كما حفل خطابه بالتنديد بالأُسر القرشية التي ناهضت النبي ﷺ وناجزته الحرب حتى اضطر للهجرة إلى يثرب ، فهم خصومه وأعداؤه ولا حقّ لهم بأيّ حالٍ في التدخل بشؤون الدولة ومصيرها .

وقام زعيم آخر من الأنصار هو الحبّاب بن المنذر ، فحذّر الأنصار من القرشيّين ،

وأهاب بهم أن يجعلوا لهم نصيباً في الحكم ، قائلاً :

لكنّنا نخاف أن يليها بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم . . .

وتحقّق تنبؤ الحبّاب ، فإنّه لم يكن ينتهي حكم الخلفاء حتى آل الأمر إلى الأمويّين فأمعنوا في إذلال الأنصار وإشاعة البؤس والفقر فيهم ، وقد انتقم منهم معاوية كأشرّ وأقسى ما يكون الانتقام . ولمّا وليَ الأمر من بعده يزيد جهد في الوقيعة بهم ، فأباح أموالهم ودماءهم وأعراضهم لجيوشه في واقعة (الحرة) التي أُنتهكت فيها جميع ما حرّمه الله .

وعلى أيّ حال ، فقد تجاهل سعد وغيره من الأنصار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو من النبيّ بمنزلة هارون من موسى ، وأبو سبطيه ، وباب مدينة علمه ، وسيّد عترته . ولا نرى أيّ مبرر لسعد في إغضائه وتجاهله حق الإمام عليه السلام ، فقد فتح باب الشرّ على الأمّة ، وأخلد لها المصاعب والفتن على امتداد التأريخ .

مباغتة الأنصار :

وحينما كان الأنصار في سقيفتهم يدبّرون أمرهم ويتداولون الرأي في شؤون الخلافة إذ خرج من مؤتمرهم عويم بن ساعدة الأوسي ومعن بن عدي حليف الأنصار ، وكانا من أولياء أبي بكر ومن أعضاء حزبه ، وكانا يحقدان على سعد ، فانطلقا مسرعَين إلى أبي بكر فأخبراه بالأمر ، ففزع أبو بكر ، واسرع ومعه عمر وأبو عبيدة الجرّاح وسالم مولى أبي حذيفة وآخرون من المهاجرين(١) ، فكبسوا الأنصار في ندوتهم ، فذهل الأنصار وأسقط ما بأيديهم لأنهم أحاطوا ندوتهم بسرّية وكتمان ، وتغيّر لون سعد ، فقد انهارت جميع مخطّطاته ، وفشلت جميع تدابيره .

---

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٦٢ .

خطاب أبي بكر:

واستغلّ أبو بكر الموقف ، وأراد صاحبه عمر أن يفتح الحديث مع الأنصار ، فنهره أبو بكر لعلمه بشدّته ، وهي لا تساعد في مثل هذا الموقف الملبّد الذي يجب أن تستعمل فيه الأساليب السياسية والكلمات الناعمة لكسب الموقف ، فبادر أبو بكر فخاطب الأنصار بكلمات معسولة وبسمات فيّاضة بالبشر ، قائلاً:

نحن المهاجرون أوّل الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأمسّهم برسول الله ﷺ ، وأنتم اخواننا في الإسلام ، وشركاؤنا في الدين ، نصرتم الإسلام ، وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلّا لهذا الحيّ من قريش ، فلا تنفسوا على اخوتكم المهاجرين ما فضّلهم الله به ، فقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ـ يعني: عمر بن الخطّاب وأبا عبيدة بن الجراح ـ . . [1] .

ولم يعرض هذا الخطاب إلى وفاة النبي ﷺ التي هي أعظم كارثة مُني بها المسلمون ، فكان الواجب أن يعزّي المسلمين بوفاة منقذهم ونبيّهم ، كما أنّ الواجب يقضي بتأخير المؤتمر إلى بعد مواراة النبيّ ﷺ حتى يجتمع جميع المسلمين وينتخبوا عن إرادتهم وحرّيتهم من شاؤوا .

وشيء آخر في هذا الخطاب أنّه لم يمعن إلّا بطلب الإمرة والسلطان ، فقد طلب من الأنصار أن يتنازلوا عن الخلافة إلى المهاجرين ، وأنّهم سينالون عوض ذلك الوزارة ، إلّا أنّه لمّا تمّ الأمر لأبي بكر أقصاهم ولم يمنحهم أيّ منصبٍ من مناصب الدولة .

وممّا يؤخذ على هذا الخطاب أنّه تجاهل بصورة كاملة أهل البيت الذين هم

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٦٢.

وديعة النبيّ في أُمّته ، والثقل الأكبر فيها ، فلم يشر إليهم أبو بكر بقليل ولا بكثير .

بيعة أبي بكر:

وانبرى حزب أبي بكر إلى تأييده ، فكان من أعظم المناصرين له عمر بن الخطاب ، وسارع إلى بيعته مع بقية أعضاء حزبه خوفاً من تطوّر الأحداث ، واشتدّ عمر في إرغام الناس على بيعة أبي بكر ، وقد لعبت درته شوطاً في الميدان ، وقد سمع الانصار يقولون : قتلتم سعداً ! ، فجعل يقول بعنف : اقتلوه ، قتله الله ، فإنّه صاحب فتنة[1] .

وبعدما تمّت البيعة لأبي بكر بهذه السرعة الخاطفة أقبل به حزبه يزفّونه زفاف العروس إلى مسجد رسول الله ﷺ ، ولم يشترك أبو بكر ولا أي فرد من حزبه في تشييع جثمان رسول الله ﷺ ومواراته ، فقد انشغلوا بالمُلك والسلطان وتدبير أمورهم .

لقد أهمل في بيعة أبي بكر رأي العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم ، فلم يُعنَ بها ولم يؤخذ رأيها ، ومنذ ذلك اليوم واجهت جميع ألوان الرزايا والنكبات ، وما كارثة كربلاء وغيرها من مآسي العترة الطاهرة إلّا وهي متفرّعة من يوم السقيفة ، حسبما نصّت عليه الوثائق التاريخية والدراسات العلمية .

امتناع الإمام عن البيعة :

والتاع الإمام أميرالمؤمنين ؑ من بيعة أبي بكر ، واعتبرها تعدّياً صارخاً عليه ، فقد كان محلّه من الخلافة محلّ القطب من الرحى ، ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٦٢ .

الطير ـ على حدّ تعبيره ـ ، وقد تخلف عن بيعة أبي بكر وأعلن معارضته لها ، وقد شاع ذلك بين المسلمين ، ومن يقرأ نهج البلاغة يجد فيه لوحات من تذمّره وأساه على ضياع حقّه .

إرغامه على البيعة:

وأجمع أبو بكر وسائر أعضاء حزبه على إرغام الإمام على البيعة لأبي بكر وحمله بالقوّة عليها ، فأرسلوا إليه شرطتهم ، فكبسوا داره وأخرجوه منها بالقسر والقوّة ، وجاءوا به إلى أبي بكر ، فصاحوا به :

بايع أبا بكر . . .

فأجابهم الإمام بمنطقه الفيّاض وحجّته الحاسمة ، قائلاً:

« أنا أحقّ بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أوْلى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ ، وتأخذونه منّا أهل البيت غصباً !

ألستم زعمتم للأنصار أنّكم أوْلى بهذا الأمر منهم لما كان محمّد ﷺ منكم ، فأعطوكم المقادة وسلّموا إليكم الإمارة ، وأنا أحتجّ عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار ، نحن أوْلى برسول الله ﷺ حيّاً وميّتاً ، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلّا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون . . » .

وأعلن الإمام بهذا الخطاب الرائع أنّه أوْلى بمركز النبيّ ﷺ ، وأحقّ بخلافته من غيره ، فهو أقرب الناس وألصق بالرسول ﷺ من المهاجرين الذين فازوا بالحكم لقربهم من النبيّ ، فهو ابن عمّه وأبو سبطيه ، ولا يملك أحد من القرب إلى النبيّ غيره . . وثار ابن الخطاب بعد أن أعوزته الحجة والبرهان ، فاندفع بعنفٍ قائلاً :

إنّك لست متروكاً حتى تبايع . . .

فزجره الإمام قائلاً:

احلب حلباً لك شطره ، واشدد له اليوم أمره ، يردده عليك غداً . . » .

وكشف الإمام الوجه في اندفاع ابن الخطاب وتهالكه على نصرة أبي بكر ، فإنّه يأمل أن ترجع إليه الخلافة والملك بعد أبي بكر .

وثار الإمام وهتف قائلاً:

« والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه . . . » .

وخاف أبو بكر من تطوّر الأحداث ، وخشي أن ترجع إلى المسلمين حوازب أحلامهم فيقصوه عن منصبه ، فخاطب الإمام بناعم القول :

إن لم تبايع فلا أُكرهك . . .

وانبرى أبو عبيدة بن الجراح وهو من أبرز حزب أبي بكر ، فخاطب الإمام قائلاً:

يابن عمّ ، إنك حدث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى إلّا أبا بكر أقوى على هذا الأمر منك ، وأشدّ احتمالاً واضطلاعاً به ، فسلّم لأبي بكر هذا الأمر ، فإنّك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق ، وبه حقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك . . » .

وليس في هذا القول إلّا الخداع والتضليل فإن التقدّم في السن ليس له أي ترجيح في منصب الخلافة التي تتطلّب الطاقات الخلّاقة بما تحتاج إليه الأُمّة في الميادين السياسية والاقتصادية والقضائية ، ولا يملك أحد من المسلمين ذلك غير الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام .

وأثارت مخادعة أبي عبيدة كوامن الألم في نفس الإمام ، فانبرى يخاطب المهاجرين قائلاً:

الله الله يا معشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمّد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه . فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحقّ الناس به لأنا أهل البيت ، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ، ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنّه لفينا ، فلا تتّبعوا الهوى فتضلّوا عن سبيل الله ، فتزدادوا من الحق بُعداً . . .[١] .

وحفلت هذه الكلمات بالصفات الرفيعة الماثلة في أهل بيت النبوة من الفقه بدين الله ، والعلم بسنن رسول الله ﷺ ، والإحاطة بما تحتاج إليه الأمّة في مجالاتها الاقتصادية والسياسية ، ولا تتوفر بعض هذه الصفات في غيرهم ، ولو أنّ القوم استجابوا لنداء الإمام لجنّبوا العالم الإسلامي الكثير من المشكلات والأزمات ولكنّهم انسابوا وراء أطماعهم وشهواتهم وتهالكهم على الإمرة والسلطان .

وعلى أيّ حال ، فقد رجع الإمام (عليه السلام) إلى داره لم يبايع أبا بكر ، وقد أحاطت به موجات من الأسى على ضياع حقّه وحرمان الأُمّة من قيادته ، وقد التاعت سيّدة النساء زينب وغزاها الحزن على ما حلّ بأبيها من الآلام والكوارث ، فقد رأته جالساً في بيته يساور الهموم والأحزان ، وحوله أمّها سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (عليها السلام) وهي تبكي أباها وتندبه بأشجى ما تكون الندبة ، وقد شاركت زوجها في مصابه على ضياع حقّه ، ونهب مركزه ومقامه .

إجراءات صارمة :

وقضت سياسة أبي بكر أن يقابل الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام) بجميع الإجراءات الصارمة

---

(١) [illegible] ١ : ١١ ـ ١٢ .

لأنه الممثّل الوحيد للقوى المعارضة لحكومته ، ومن بين تلك الوسائل التي سلكها أبو بكر :

١ ـ إسقاط الخمس:

أمّا الخمس فهو حق مفروض لآل رسول الله ﷺ نصّ عليه القرآن الكريم ، قال تعالى : **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾**(١) ، وأجمع الرواة أنّ النبيّ ﷺ كان يختصّ بسهم من الخمس ويخصّ أرحامه بسهم آخر منه ، وكانت هذه سيرته إلى أن اختاره الله إلى جواره ، ولمّا ولي أبو بكر أسقط سهم النبيّ وسهم ذي القربى ، ومنع بني هاشم من الخمس(٢) .

وبذلك فقد قضى على أهم مورد اقتصادي لهم ، وقد أرسلت سيّدة النساء فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر تسأله أن يدفع إليها ما بقي من خمس (خيبر) ، فأبى أن يدفع إليها شيئاً(٣) . وبذلك فقد ترك شبح الفقر على آل النبي ، وحجب عنهم ما فرضه الله لهم .

٢ ـ الاستيلاء على تركة النبيّ:

واستولى أبو بكر على جميع ما تركه الرسول ﷺ من بلغة العيش وحازه إلى بيت المال ، وبذلك فقد فرض حصاراً اقتصادياً على آل الرسول ﷺ حتى لا يتمكّنون من القيام بأيّ حركة ضده .

٣ ـ تأميم فدك:

وأمّم أبو بكر (فدكاً) وصادرها من أهل البيت ، ومنعهم من أخذ وارداتها .

---

(١) الأنفال : ٤١.

(٢) الكشّاف : ٢ : ١٥٨ ـ ١٥٩ (في تفسير آية الخمس) .

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١ : ٢٦٠ .

وقد ضيّق عليهم بذلك غاية التضييق . ومنع عنهم جميع وسائل العيش .

الزهراء مع أبي بكر :

والتاعت بضعة رسول الله ﷺ من أبي بكر ، فقد سدّ عليها جميع نوافذ الحياة الاقتصادية ، فخرجت سلام الله عليها غضبى ، فلاثت خمارها ، واشتملت بجلبابها ، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها ، تطأ ذيولها ، ما تخرم مشيتها مشية أبيها رسول الله ﷺ حتى دخلت على أبي بكر وهو في جامع أبيها ، وكان في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فنيطت دونها ملاءة فوقفت مفخرة الإسلام فأنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء ، وارتجّ المجلس ، فأمهلتهم حتى إذا سكن نشيجهم وهدأت فورتهم افتتحت خطابها الخالد بحمد الله والثناء عليه ، وانحدرت في خطابها كالسيل ، فلم يُسمع أخطب ولا أبلغ منها ، وحسبها أنّها بضعة رسول الله ﷺ الذي أفاض عليها بمكرمات نفسه ، وغذّاها بحكمه وآدابه .

وتحدّثت في خطابها عن معارف الإسلام ، وفلسفة تشريعاته ، وعلل أحكامه ، وعرضت إلى الحالة الراهنة التي كانت عليها أُمم العالم وشعوب الأرض قبل أن يشرق عليها نور الإسلام ، فقد غرقت الأُمم بالجهل والانحطاط خصوصاً (الجزيرة العربية) فقد كانت في أقصى مكان من الذّل والهوان ، وكانت الأُكثرية الساحقة تقتاد القِدَّ ، وتشرب الطَّرْقَ ، وترسف في قيود الفقر والبؤس إلى أن أنقذها الله بنبيّه محمّد ﷺ ، فرفعها إلى واحات الحضارة وجعلها سادة الأُمم والشعوب ، فما أعظم عائدته على العرب والمسلمين !

وعرضت سيدة نساء العالمين في خطبتها إلى فضل ابن عمّها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وعظيم جهاده في نصرة الإسلام ، وذبّه عن حياض الدين ، في حين أنّ المهاجرين من قريش بالخصوص كانوا في رفاهية من العيش وادعين آمنين ، لم

يكن لهم أي ضلع في نصرة القضية الإسلامية والدفاع عنها . فلم يُؤثر عن أعلامهم أنّهم قتلوا مشركاً أو برزوا ببسالة وصمود إلى مقارعة الأقران في الحروب ، وإنّما كانوا ينكصون عند النزال ، ويفرّون من القتال ـ على حدّ تعبيرها ـ وكانوا يتربّصون الدوائر بأهل بيت النبوة ويتوقعون بهم نزول الأحداث .

وأعربت مفخرة الإسلام في خطابها عن أسفها البالغ على ما مُنِي به المسلمون من الزيغ والانحراف والاستجابة لدواعي الهوى والغرور وذلك بإقصائهم لأهل البيت عن مركز القيادة العامة ، وتنبّأت عمّا سيحلّ بهم من الكوارث والخطوب التي تدع فيئهم حصيداً ، وجمعهم بديداً من جرّاء إبعادهم لأهل بيت النبوة عن مقامهم الذي نصبهم فيه رسول الله ﷺ .

ثم عرضت إلى حرمانها من إرث أبيها رسول الله ﷺ ، فقالت :

« وَأَنتُم تَزْعُمُونَ أَنْ لَا إِرْثَ لِي مِن أَبِي ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . . وَيْهاً أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَأُغْلَبُ عَلىٰ تُرَاثَ أَبِي . . » .

ثم وجهت خطابها إلى أبي بكر:

« يَابْنَ أَبِي قُحَافَةَ ! ! أَفِي كِتَابِ اللهِ أَن تَرِثَ أَبَاكَ وَلَا أَرِثُ أَبِي؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيّاً . أَفَعَلىٰ عَمْدٍ تَرَكْتُمْ كِتَابَ اللهِ وَنَبَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ إِذْ يَقُولُ : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ .

وَقَالَ فِيمَا اقْتَصَّ مِنْ خَبَرِ يَحْيىٰ بن زَكَرِيّا ، إِذْ يَقُولُ : ﴿فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾ .

وَقَالَ : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُم لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ .

وَقَالَ : ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ .

وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَا حَظْوَةَ لِي وَلَا إِرْثَ مِنْ أَبِي ، وَلَا رَحِمَ بَيْنَنَا أَفَخَصَّكُمُ اللهُ بِآيَةٍ أَخْرَجَ مِنْهَا أَبِي ؟

أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّ أَهْلَ مِلَّتَيْنِ لَا يَتَوَارَثَانِ ، أَوَ لَسْتُ أَنَا وَأَبِي مِنْ أَهْلِ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ ؟ أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِخُصُوصِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِهِ مِنْ أَبِي وَابْنِ عَمِّي ؟ » .

وبعدما أدلت بهذه الحجج الدامغة المدعمة بآيات من القرآن الكريم التي فنّدت فيها مزاعم أبي بكر من أنّ الأنبياء لا يورثون ، ثم التفتت إليه فوجّهت إليه هذه الكلمات اللاذعة قائلةً :

فَدُونَكَهَا مَرْحُولَةً مَزْمُومَةً تَكُونُ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ ، وَتَلْقَاكَ يَوْمَ حَشْرِكَ ، فَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ ، وَنِعْمَ الزَّعِيمُ مُحَمَّدٌ ، وَالْمَوْعِدُ الْقِيَامَةُ ، وَعِنْدَ السَّاعَةِ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، و﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ .

ثمّ اتّجهت نحو فتيان المسلمين تستنهض هممهم ، وتوقظ عزائمهم للمطالبة بحقها والثورة على الحكم القائم ، قائلة :

« يَا مَعْشَرَ النَّقِيبَةِ ، وَأَعْضَادَ الْمِلَّةِ ، وَحَضَنَةَ الْإِسْلَامِ ، مَا هٰذِهِ الْغَمِيزَةُ فِي حَقِّي وَالسِّنَةُ عَنْ ظُلَامَتِي ؟ أَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْمَرْءُ يُحْفَظُ فِي وُلْدِهِ » ؟ لَسَرْعَانَ مَا أَحْدَثْتُم ! وَعَجْلَانَ ذَا إِهَالَةً !

أَتَقُولُونَ : مَاتَ مُحَمَّدٌ ؟ لَعَمْرِي ، خَطْبٌ جَلِيلٌ ، إِسْتَوْسَعَ وَهْيُهُ ، وَاسْتَنْهَرَ فَتْقُهُ ، وَفُقِدَ رَاتِقُهُ ، وَأَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِغَيْبَتِهِ ، واكْتَأَبَتْ خِيرَةُ اللهِ لمُصِيبَتِهِ ، وَخَشَعَتِ الْجِبَالُ ، وَأَكْدَتِ الْآمَالُ ، وَاُضِيعَ الْحَرِيمُ ،

وَأُزِيلَتِ الْحُرْمَةُ . فتلك نَازِلَةٌ أَعْلَنَ بِهاكِتَابُ اللهِ فِي أَفْنِيَتِكُمْ ، مُمساكُمْ وَمُصْبِحِكُمْ ، هِتافاً هِتافاً : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾.

وأخذت سيّدة النساء تحفّز الأنصار ، وتذكّرهم بجهادهم المشرق في نصرة الإسلام وحماية مبادئه وأهدافه وكفاحهم لأعدائه القرشيّين ، طالبة منهم الثورة ضد الحكم القائم وإرجاع الحق إلى عترة رسول الله ﷺ قائلة :

« أيهاً بَنِي قِيلَةَ[١] أَأُهْضَمُ تُرَاثَ أَبِي وَأَنْتُمْ بِمَرْأَىٰ مِنِّي وَمَسْمَعٍ وَمُنْتَدىٰ وَمَجْمَعٍ ، تَلْبَسُكُمُ الدَّعْوَةُ ، وَتَشْمَلُكُمُ الْخُبْرَةُ ، وَأَنْتُمْ ذَوُو الْعُدَّةِ وَالْعَدَدِ وَالْأَدَاةِ وَالْقُوَّةِ ، وَعِنْدَكُمُ السِّلَاحُ وَالْجُنَّةُ[٢] تُوَافِيكُمُ الدَّعْوَةُ فَلَا تُجِيبُونَ . وَتَأْتِيكُمُ الصَّرْخَةُ فَلَا تُغِيثُونَ وَأَنْتُمْ مَوْصُوفُونَ بِالْكِفَاحِ . مَعْرُوفُونَ بِالْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، وَالنُّخْبَةُ الَّتِي انتُخِبَتْ ، وَالْخِيَرَةُ الَّتِي اخْتِيرَتْ لَنَا ـ أهل البيت ـ قَاتَلْتُمُ الْعَرَبَ . وَتَحَمَّلْتُمُ الْكَدَّ وَالتَّعَبَ ، وَنَاطَحْتُمُ الْأُمَمَ ، وَكَافَحْتُمُ الْبُهَمَ . فَلَا نَبْرَحُ أَوْ تَبْرَحُونَ . نَأْمُرُكُمْ فَتَأْتَمِرُونَ . حَتَّىٰ إِذَا دَارَتْ بِنَا رَحَى الْإِسْلَامِ ، وَدَرَّ حَلَبُ الْأَيَّامِ ، وَخَضَعَتْ نُعَرَةُ الشِّرْكِ ، وَسَكَنَتْ فَوْرَةُ الْإِفْكِ ، وَخَمَدَتْ نِيرَانُ الْكُفْرِ . وَهَدَأَتْ دَعْوَةُ الْهَرَجِ . وَاسْتَوْسَقَ نِظَامُ الدِّينِ ، فَأَنَّىٰ جرْتُمْ[٣] بَعْدَ الْبَيَانِ . وَأَسْرَرْتُمْ بَعْدَ الْإِعْلَانِ . وَنَكَصْتُمْ بَعْدَ الْإِقْدَامِ ، وَأَشْرَكْتُمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، بُؤْساً لِقَوْمٍ

(١) بنو قيلة : هم الأوس والخزرج من الأنصار .

(٢) الجنّة بالضمّ : ما يستتر به من السلاح .

(٣) جرتم : أي ملتم .

نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

ولما رأت وهن الأنصار وتخاذلهم عن إجابة الحق ، وجّهت لهم أعنف القول وأشد العتب والتقريع قائلة لهم :

« أَلَا وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ هٰذَا عَلَىٰ مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِالْخِذْلَةِ الَّتِي خَامَرَتْكُمْ ، وَالْغَدْرَةِ الَّتِي اسْتَشْعَرَتْهَا قُلُوبُكُمْ ، وَلٰكِنَّهَا فَيْضَةُ النَّفْسِ ، وَبَثَّةُ الصَّدْرِ ، وَنَفْثَةُ الْغَيْظِ ، وَتَقْدِمَةُ الْحُجَّةِ ، فَدُونَكُمُوهَا فَاحْتَقِبُوهَا دَبِرَةَ الظَّهْرِ ، نَقِبَةَ الْخُفِّ ، بَاقِيَةَ الْعَارِ ، مَوْسُومَةً بِغَضَبِ اللهِ ، وَشَنَارِ الْأَبَدِ ، مَوْصُولَةً بِـ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ﴾ عَيْنِ اللهِ مَا تَفْعَلُونَ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ » .

وَأَنَا إِبْنَةُ نَذِيرٍ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، فَاعْمَلُوا إِنَّا عَامِلُونَ ، ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [(١)] .

وهذا أروع خطاب ثوري عرفه التأريخ الإسلامي ، فقد وضعت فيه مفخرة الإسلام النقاط على الحروف ، ووضعت المسلمين أمام الأمر الواقع ، وكشفت لهم عمّا سيواجهونه من الويلات والكوارث والأزمات من جراء تخاذلهم عن نصرة الإسلام أمام هذه المحنة الحازبة ، وقد وجلت القلوب وخشعت الأبصار ، وأوشكت الثورة أن تحدث على أبي بكر ويقصى عن منصبه إلّا أنّه سيطر على الموقف بلباقة مذهلة فقد قابل بضعة الرسول بكل حفاوة وتكريم ، وتصاغر أمامها ، وأظهر لها أنّه لم يتقلّد منصب الحكم ، ولم يتّخذ معها الإجراءات القاسية

---

(١) أعلام النساء ٣ : ٢٠٨ . بلاغات النساء : ١٢ ـ ١٩ .

عن رأيه الخاص ، وإنّما كان عن رأي المسلمين واتّفاقهم ، متى ولا نعلم أنّه حتى استشار أحداً في تقمصه للخلافة ، ومصادرته لتركة النبي ﷺ ، وتأميمه لفدك وغيرها ، مما أوجب التضييق الاقتصادي على العترة الطاهرة .

وعلى أي حال ، فقد حفظت السيّدة زينب وهي في عهد الصبا هذا الخطاب الخالد ، وهي إحدى رواته ، وكان ذلك آية في نبوغها فقد روته بحرفيته ، وكانت مع أمّها حينما أدلت بهذا الخطاب الذي هو أحد الركائز المهمة في مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وقد رجعت معها وهي تجرّ أذيال الخيبة ، قد مزّق الأسى فؤادها فلم يرع أبو بكر مكانتها ، ولم يستجب المسلمون لمطالبها ، وقد استولت عليها الآلام والهموم على ما تُمنى به الأمّة من الكوارث والأزمات من جراء إقصاء أهل البيت عليهم السلام عن القيادة العامة للعالم الإسلامي .

اعتذار مرفوض :

وجهد أبو بكر وعمر على إرضاء زهراء الرسول وتطييب خاطرها على ما اقترفاه في حقها ، فاستأذنا بالدخول عليها فأبت أن تأذن لهما ، وعرضا على الإمام عليه السلام رغبتهما الملحّة في مقابلة سيّدة النساء ، فانطلق الإمام نحو الصدّيقة والتمس منها إجابتهما ، فسمحت لهما بالدخول ، فلمّا مثلا عندها أشاحت بوجهها عنهما ، وقدّما إليها اعتذارهما ، فقالت :

« أرأيتكما إن حدّثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ تعرفانه وتعملان به ؟ » .

فأجابا : نعم .

فقالت :

« نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله ﷺ يقول : رضا فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني ، ومن أرضى

فاطمة فقد أرضاني ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟ » .

فقالا :

نعم ، سمعناه من رسول الله ﷺ .

فانبرت حبيبة رسول الله ﷺ وهي مغيظة محنقة فخاطبت أبا بكر وشاركت معه صاحبه قائلة :

« إنّي أشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت النبيّ لأشكونكما إليه . . » .

وفزع أبو بكر وقال رافعاً عقيرته :

أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .

ووجّهت إليه أعنف القول قائلة :

« والله لأدعونّ الله عليك في كل صلاة أُصليها . »[1] .

وخرج أبو بكر ولم يظفر برضا زهراء الرسول ﷺ وكان ذلك من أعظم الصدمات التي واجهها في أيام حكومته .

ومن الطبيعي أن عقيلة بني هاشم قد شاركت أُمّها البتول في سخطها على أبي بكر ، وعدم رضائها عنه .

مآسي البتول :

وطافت موجات قاسية من الآلام والأحزان ببضعة الرسول ووديعته ، فقد استغرق الأسى قلبها الرقيق المعذّب وغشيتها سُحب قاتمة من اللوعة والحزن على فقد أبيها الذي كان عندها أعزّ من الحياة ، وكانت تزور بلهفة جسده الطاهر فتطوف حوله

---

(١) الإمامة والسياسة ١ : ١٤ ، الطبعة الأُولى .

وهي ذاهلة اللبّ منهدة الكيان فتلقي بنفسها عليه ، وتأخذ حفنة من ترابه الطاهر فتضعه على عينيها ، وهي تبكي أمرّ البكاء وأقساه ، وتقول :

مَاذَا عَلى مَن شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ	أَنْ لَا يَشم مدى الزمان غواليا
صبت علىّ مصائب لو أنها	صبت على الأيام صرن لياليا
قل للمغيب تحت أطباق الثرى	إن كنت تسمع صرختي وندائيا
قد كنت ذات حمى بظل محمد	لا أختشي ضيماً وكان جماليا
فاليوم أخضع للذليل وأتقي	ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا
فإذا بكت قمرية في ليلها	شجناً على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤنسي	ولأجعلنّ الدمع فيك وشاحيا[١]

وحكت هذه الأبيات ما عانته زهراء الرسول من لوعة وشجون على فراق أبيها الذي استوعب حبّه عواطفها ومشاعرها ، وقد بلغ من عظيم حزنها عليه أنّه لو صبّت مصائبها على الأيام لخلعت ضياءها ولبست السواد القاتم .

كما صوّرت هذه الأبيات الرقيقة مدى عزّتها وعظيم مكانتها في أيام أبيها سيّد الكائنات ، فقد كانت من أعزّ وأمنع نساء المسلمين ، ولكنها بعد فقد أبيها تنكّر لها أصحابه ، وأجمعوا على هضمها والغضّ من شأنها حتى صارت تخضع للذليل ، وتتقي الظالمين لها بردائها ، إذ ليس عندها قوة تحميها ولم تكن تأوي إلى ركن شديد .

وقد خلدت بضعة الرسول ﷺ ووديعته إلى الأسى والحزن ، وقد وجدت في البكاء راحة نفسية لها ، وبلغ من عظيم وجدها على أبيها أنّ أنس بن مالك استأذن عليها ليعزّيها بمصاب أبيها ، وكان ممّن وسّد رسول الله ﷺ في مثواه الأخير

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٢ : ١٣١ .

فقالت له :

« هذا أنس بن مالك ؟ » .

نعم ، يا بنت رسول الله .

فانبرت وهي تلفظ قطعاً من قلبها المذاب قائلة :

«كيف طابت نفوسكم أن تحثّوا التراب على رسول الله ﷺ ؟ »[١] .

وغرق أنس في البكاء ، وانصرف وقد نخب الأسى فؤاده . وبلغ من عظيم حزن الصدّيقة على أبيها أنّها كانت تطالب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أن يريها القميص الذي غُسّل فيه أباها رسول الله ﷺ ، فإذا جاء به إليها تأخذه بلهفة وتوسعه تقبيلاً وشمّاً لأنّها تجد فيه رائحة أبيها الذي غاب في مثواه .

وخلدت زهراء الرسول إلى البكاء في وضح النهار وفي غلس الليل ، وظل شبح أبيها يطاردها في كل فترة من حياتها القصيرة الأمد ، وكانت ابنتها الصدّيقة الطاهرة زينب في حزن بهيم تنظر إلى أمّها وقد أشرفت على الموت من كثرة البكاء على أبيها فكانت تشاركها في أحزانها وآلامها ولوعتها .

وثقل على أتباع أبي بكر بكاء الصدّيقة على أبيها فشكوا ذلك إلى الإمام أمير المؤمنين ، وطلبوا منه أن يجعل لبكائها وقتاً خاصاً ، فعرض الإمام عليها ذلك فأجابته ، فكانت في نهارها تمضي إلى خارج المدينة وتصحب معها ولديها الحسن والحسين وزينب فتجلس تحت شجرة من الأراك ، وتأخذ باللوعة والبكاء على أبيها طيلة النهار فإذا أوشكت الشمس أن تغرب قفلت مع أبنائها إلى الدار ، وعمد القوم إلى تلك الشجرة فقلعوها فكانت تبكي في حرّ الشمس ، فسارع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فبنى لها بيتاً سماه (بيت الأحزان) ، وظل هذا البيت رمزاً لأساها وغضبها على القوم على مرّ العصور ، ويقول الرواة إن الإمام قائم آل محمد عليه السلام قال

---

(١) سنن ابن ماجة : ١٨ . المواهب اللدنية ٢ : ٣٨١ .

في هذا البيت :

أم تراني اتخذت لا وعلاها بعد بيت الأحزان بيت سرور

وكانت بضعة رسول الله وحبيبته مع أطفالها يمكثون طيلة النهار في ذلك البيت الحزين ، وهي تناجي أباها وتندبه وتبكيه ، فإذا جاء الليل أقبل الإمام عليه السلام فأرجعها مع أطفالها إلى الدار .

واستولى الحزن على بضعة الرسول وذاب جسمها ، وقد فتكت بها الأمراض فلازمت فراشها ، ولم تتمكّن من النهوض والقيام ، وكانت ابنتها العقيلة إلى جانبها تقوم بخدماتها ورعايتها ، وبادرت السيّدات من نساء المسلمين إلى عيادتها فقلن لها :

كيف أصبحت من علّتك يا بنت رسول الله ؟

فرمقتهن بطرفها وأجابتهن بصوتٍ خافت مشفوع بالأسى والحسرات قائلة :

« أجدني كارهة لدنياكن ، مسرورة لفراقكن ، ألقى الله ورسوله بحسرات ، فما حُفِظ لي الحق ، ولا رعيت مني الذمّة ، ولا قبلت الوصية ، ولا عُرِفت الحرمة . . »[١] .

أجل لم يحفظ حقّها ، ولم ترع ذمّتها ، فقد أصرّ القوم على هضمها والتنكر لها ، وانصرفن النسوة وقد غامت عيونهن بالدموع ، وعرضن على أزواجهن كلمات زهراء الرسول وغضبها عليهم ، وقد عرفوا مدى تقصيرهم في حقها . . وهرعت بعض أُمّهات المؤمنين إلى عيادتها فقلن لها :

يا بنت رسول الله ، صيري لنا في حضور غسلك حظاً[٢] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٩٥ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ١ : ٢٧ .

فلم تجبهن إلى ذلك ، وقالت : « لا حاجة لي في حضوركن » .

إلى جنة المأوى:

وذوت بضعة الرسول ﷺ كما تذوي الأزهار ، ومشى إليها الموت سريعاً وهي في شبابها الغضّ الإهاب ، وبدت لها طلائع الرحيل عن هذه الحياة التي استهانت بها ، وطلبت حضور ابن عمّها أمير المؤمنين ﷺ ، فعهدت إليه بوصيتها ، وأهم ما فيها :

١ ـ أن يواري جثمانها المقدّس في غلس الليل البهيم .

٢ ـ أن لا يحضر جنازتها أحد من الذين هضموها وظلموها فإنّهم أعداؤها وأعداء أبيها على حدّ تعبيرها .

٣ ـ أن يعفي موضع قبرها ويخفيه ليكون رمزاً لغضبها على القوم غير قابل للتأويل والتصحيح على ممر الأجيال الصاعدة . وضمن لها الإمام جميع ما عهدت به إليه ، وانصرف عنها وهو غارق في الأسى والشجون .

وطلبت بضعة الرسول ﷺ من أسماء بنت عميس أن يصنع لها سرير يواري جسدها الطاهر ، فقد كانت العادة بوضع الأموات على لوحة تبدو فيها أجسامهم ، وكرهت ذلك سيّدة النساء ، فعملت لها أسماء سريراً يستر من فيه كانت قد رأته حينما كانت في الحبشة ، فلما نظرت إليه ابتسمت وهي أول ابتسامة شوهدت لها منذ أن لحق أبوها بالرفيق الأعلى[1] .

وفي آخر يوم من حياة الصدّيقة أصبحت وقد ظهر عليها بعض التحسّن ، وبدا عليها الفرح والسرور فقد علمت أن هذا اليوم هو خاتمة حياتها وفيه تلتحق بأبيها الذي هو عندها أعزّ من الحياة ، وعمدت الصدّيقة إلى أطفالها فغسلتهم

---

(١) مستدرك الحاكم ٣ : ١٦٢ .

وصنعت لهم من الطعام ما يكفيهم يومهم ، ثم أمرت ولديها الحسن والحسين أن يخرجا لزيارة قبر جدهما ولا يشاهدا وفاتها ، وألقت عليهما وعلى بنتها زينب نظرة الوداع وقلبها الزاكي يذوب ألماً وحزناً ، وخرج الحسنان وقد هاما في تيارات من الهواجس وأحسّا ببوادر مخيفة أغرقتهما بالهموم والأحزان .

والتفتت وديعة النبيّ ﷺ إلى أسماء بنت عميس ، وكانت تتولّى تمريضها وخدمتها ، فقالت لها :

« يا أمّاه » .

نعم يا حبيبة رسول الله .

« اسكبي لي غسلاً » .

فسارعت أسماء وأتتها بالماء فاغتسلت فيه ، وقالت لها :

« ايتيني بثيابي الجدد » .

فأحضرتها لها ، وقالت لها :

« اجعلي فراشي في وسط البيت » .

وذعرت أسماء : وعلمت أن الموت قد دنا من وديعة النبيّ ، وصنعت لها ما أرادت فاضطجعت في فراشها ، واستقبلت القبلة ونادت أسماء قائلة بصوت خافت :

« يا أمّاه : إني مقبوضة الآن ، وقد تطهّرت فلا يكشفني أحد » .

وأخذت تتلو آيات من القرآن الكريم حتى صعدت روحها الطاهرة إلى الله تحفّها ملائكة الرحمن ، ويستقبلها أبوها الذي كرهت الحياة من بعده

لقد سمت تلك الروح إلى جنان الخلد فأشرقت الآخرة بقدومها ، وأظلمت الأرض لفقدها ، فما أظلّت سماء الدنيا مثلها في قداستها وطهرها ، وقد انقطع بموتها آخر من كان في الدنيا من نسل رسول الله ﷺ ، وكانت زينب إلى

جانب أمّها وقد رأتها جثة هامدة قد انقطعت عنها الحياة فذابت أسى ، وعجّت بالبكاء والعويل .

وقفل الحسنان من مسجد رسول الله ﷺ إلى الدار فلم يجدا أمّهما فيها فبادرا يسألان أسماء قائلين :

« اين أمّنا ؟ » .

فأجابتهما وهي غارقة في البكاء قائلة :

يا سيّدي إنّ أمّكما قد ماتت فأخبرا بذلك أباكما .

وكانت هذه المفاجأة كالصاعقة فهرعا إلى جثمان أمّهما ، فوقع عليها الحسن وهو يقول :

« يا أمّاه كلّميني قبل أن تفارق روحي بدني . . » .

وألقى الحسين بنفسه عليها وهو يعجّ بالبكاء قائلاً :

« يا أمّاه أنا ابنك الحسين كلّميني قبل أن ينصدع قلبي . . » .

وأخذت أسماء توسعهما تقبيلاً وتواسيهما بمصابهما الأليم ، وطلبت منهما أن يخبرا أباهما بموت سيّدة النساء وسارعا نحو مسجد رسول الله ﷺ ، وقد علا صوتهما بالبكاء فاستقبلهما المسلمون قائلين :

ما يبكيكما يا بُني رسول الله ، لعلّكما نظرتما قبر جدكما فبكيتما .

فأجابا :

« أوَليس قد ماتت أمّنا فاطمة ! » .

وهزّ النبأ المؤلم مشاعرهم ، فقد ندموا على تقصيرهم تجاه بضعة الرسول ﷺ ، فقد ماتت وهي ساخطة عليهم لأنّهم لم يحفظوا مكانتها من رسول الله ﷺ .

ولمّا علم الإمام بموت الصدّيقة تصدّع قلبه وودّ مفارقة الحياة ، ورفع صوته

قائلاً :

« بمن العزاء يا بنت محمّد ،كنت بك أتعزّى ، ففيم العزاء من بعدك . . » .

وخفّ مسرعاً نحو البيت وهو يذرف أحرّ الدموع ، وألقى نظرة على جثمان حبيبة رسول الله ﷺ وهو يقول :

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

وكانت العقيلة زينب إلى جانبها أمّها وهي تعجّ بالبكاء قد ذاب قلبها فقد فقدت جميع آمالها ، وليس شيء أوجع على الطفل من فراق أمّه .

وهرع الناس من كل صوب نحو بيت الإمام ، وقد ساد فيهم وجوم رهيب ، وعهد الإمام إلى سلمان الفارسي أن يخبر الجماهير بأن مواراة جثمان بضعة الرسول قد أُجّل هذه العشية فقفلوا إلى منازلهم ، وأقبلت عائشة وهي تريد الدخول إلى بيت الإمام لتشاهد جثمان حبيبة رسول الله ﷺ فحجبتها أسماء ومنعتها من الدخول قائلة :

قد عهدت إليّ أن لا يدخل عليها أحد[1] .

ولمّا مضى شطر من الليل قام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فغسّل الجسد الطاهر ، ومعه الحسنان وأسماء وزينب وهي تنظر إلى جثمان أمّها وقد نخب الحزن قلبها ، وتبكي عليها كأقسى وأمرّ ما يكون البكاء ، وبعد الفراغ من الغسل أدرجها في أكفانها ، ودعا بأطفالها الذين لم ينتهلوا من حنان أمّهم ليلقوا عليها نظرة الوداع ، فألقوا بنفوسهم على جثمان أمّهم وهم يوسعونها تقبيلاً وقد مادت الأرض من كثرة صراخهم وبكائهم ، وبعد انتهائهم من الوداع عقد الإمام عليها الرداء ، ولمّا حلّ

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٣ : ٣٦٥ .

الهزيع الأخير من الليل قام فصلى على الجسد الطيب ، وعهد إلى من كان معه من خلّص صحابة رسول الله ﷺ أمثال سلمان الفارسي وبني هاشم فحملوا الجثمان المقدّس إلى مثواه الأخير ، وأودعها في قبرها ، وأهال عليها التراب ، وعفى موضع قبرها ليكون دليلاً حاسماً على غضبها ونقمتها على من غصب حقها ، ووقف الإمام الثاكل الحزين على حافة القبر وهو يروي ثراه بدموع عينيه ، وقد طافت به موجات من الحزن والألم القاسي ، فأخذ يؤبّن زهراء الرسول بهذه الكلمات التي تحكي لوعته وأساه على هذا الرزء القاصم وقد وجّه خطابه إلى رسول الله ﷺ يعزّيه قائلاً :

« السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك السريعة اللحاق بك .

قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورقّ عنها تجلّدي ، إلّا أنّ في التأسّي بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعزٍ ، فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أمّا حزني فسرمد ، وأمّا ليلي فمسهّد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر أُمّتك على هضمها ، فأحفها السؤال ، واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودعٍ لا قالٍ ولا سئم ، فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أُقم فلا عن سوء ظنٍ بما وعد الله الصابرين . . »[١] .

وحكت هذه الكلمات الحزن العميق والألم الممض الذي في نفس الإمام ، فقد أعلن شكواه إلى رسول الله ﷺ على ما منيت به حبيبته من الخطوب والنكبات ، ويطلب منه أن يلحّ في السؤال منها لتخبره بما جرى عليها من الظلم في الفترة القصيرة التي عاشتها بعده .

---

(١) نهج البلاغة ـ محمّد عبده ٢ : ٢٠٧ .

كما أعلن الإمام عن أساه وشجاه على فقده لبضعة الرسول ، فهو في حزن دائم وليل مسهد ، لا تنطفئ عنه نار اللوعة عليها حتى يلتحق إلى جوار الله ، وإنّه إذ ينصرف عن قبرها المقدّس فليس ذلك عن سأم ولا عن ملالة وكراهية ، ولكن استجابة لتعاليم الإسلام الآمرة بالخلود إلى الصبر ، ولولا ذلك لأقام عنده ولا يريم عنه .

وعاد الإمام إلى داره بعد أن وارى جثمان سيّدة نساء العالمين في مثواها الأخير ، وقد نخب الحزن فؤاده ينظر إلى أطفاله وهم يبكون أمّهم أمرّ البكاء وأشجاه خصوصاً العقيلة زينب فكانت تندب أمّها بذوب روحها تبكي عليها صباحاً ومساءً قد خلدت إلى الأسى والحزن .

لقد قطعت عقيلة بني هاشم دور طفولتها الحزينة وقد طافت بها الآلام القاسية والرزايا الموجعة ، فقد فقدت جدّها رسول الله ﷺ الذي كان يفيض عليها بعطفه وحنانه ، ولم تمض بعد وفاته إلّا أيام يسيرة حتى فقدت أمّها الرؤوم التي عاشت في هذه الدنيا وعمرها كعمر الزهور ، وفاجأها الموت وهي في شبابها الغضّ الأهاب ، فقد صبّت عليها الكوارث والمصائب ، والتي كان من أقساها جحد القوم لحقّها وإجماعهم على هضمها وهي ابنة نبيّهم الذي برّ بدينهم ودنياهم .

لقد وعت حفيدة الرسول ﷺ وهي في سنّها الباكر الأهداف الأساسية التي دعت القوم إلى هضم أمّها وجحد حقوقها وإقصاء أبيها عن قيادة الأمّة ، كل ذلك طمعاً بالحكم والظفر بالامرة والسلطان .

وفاة أبي بكر:

ولم يطل سلطان أبي بكر فقد ألمّت به الأمراض بعد مضي ما يزيد على سنتين من حكمه ، وقد قلّد صاحبه عمر شؤون الخلافة ، وقد لاقى معارضة شديدة من أعلام

الصحابة كان من بينهم طلحة ، فقد قال له :

ماذا تقول لربّك وقد ولّيت علينا فظّاً غليظاً ، تفرق منه النفوس ، وتنفض منه القلوب[١] .

وسكت أبو بكر فاندفع طلحة يشجب عهده لعمر قائلاً :

يا خليفة رسول الله ، إنّا كنّا لا نحتمل شراسته وأنت حيّ تأخذ على يده ، فكيف يكون حالنا معه وأنت ميّت وهو الخليفة .

وسارع أكثر المهاجرين والأنصار إلى أبي بكر وهم يعلنون رفضهم وسخطهم وكراهيتهم لخلافة عمر قائلين :

نراك استخلفت علينا عمراً وقد عرفته وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا ، فكيف إذا ولّيت عنّا ، وأنت لاق الله عزّ وجلّ فسائلك ، فما أنت قائل .

فأجابهم أبو بكر :

لئن سألني الله لأقولنّ استخلفت عليهم خيرهم من نفسي[٢] .

وكان الأجدر به أن يستجيب لعواطف أكثر المسلمين ورغباتهم إلّا أنّه لم يحفل بهم ، وأقام صاحبه خليفة من بعده ، وتوفّي أبو بكر وانتهت بذلك خلافته القصيرة الأمد ، وقد حفلت بأحداث رهيبة كان من بينها معاملة العترة الطاهرة التي هي وديعة النبيّ ﷺ في أمّته كأشخاص عاديّين فقد جرّد عنها هالة التقديس الذي أضفاه عليها النبيّ ﷺ ، كما فتحت الباب للحكومات التي تلت حكومة الخلفاء إلى ظلم آل البيت والإمعان في قتلهم تحت كل حجر ومدر ، ولعلّ أقسى ما جرى عليهم من الكوارث فاجعة كربلاء الخالدة في دنيا الأحزان ، فقد استشهد الإمام الحسين

---

(١) شرح النهج ١ : ٥٥ .

(٢) شرح النهج ٦ : ٣٤٣ ، دار إحياء الكتب العربية .

ريحانة رسول الله ﷺ بصورة مروّعة ومُثّل بجثمانه المقدّس بوحشية لم يعهد لها مثيل ، وسبيت عائلته ومعها حفيدة الرسول وعقيلة بني هاشم من كربلاء إلى الشام ، كل هذه الرزايا كانت ناجمة عن إقصاء أهل البيت عن مركز القيادة العامة للمسلمين .

في عهد عمر :

وتولّى عمر بعد وفاة أبي بكر شؤون الدولة الإسلامية ، وقد قبض على الحكم بيد من حديد ، وساس البلاد بعنفٍ حتى تحامى لقاءه أكابر الصحابة ، فإنّ درته ـ فيما يقول المؤرخون ـ كانت أهيب من سيف الحجاج ، حتى أن ابن عباس مع قربه للنبي ﷺ ومكانته العلمية لم يستطع أن يجهر برأيه في حلّية المتعة إلّا بعد وفاته ، كما تحاماه أهله وعياله فلم يستطع أحد منهم أن يجهر برأيه أو يفرض إرادته عليه .

وعلى أي حال فقد نهج عمر في سياسته منهجاً خاصاً لا يتّفق في كثير من بنودها مع سياسة أبي بكر ، خصوصاً في السياسة المالية ، فقد كان السائد في سياسة أبي بكر المساواة بين المسلمين إلّا أنّ عمر عدل عنها ، وميّز بعض المسلمين على بعض ، ففضّل العرب على الموالي ، وقريشاً على سائر العرب ، وقد أدّى ذلك إلى إيجاد الطبقية بين المسلمين[١] .

اعتزال الإمام :

واعتزل الإمام أميرالمؤمنين عليه‌السلام عن الحياة الاجتماعية والسياسية طيلة خلافة عمر كما اعتزل في أيام أبي بكر ، وقد انطوت نفسه على حزن عميق وأسى مرير على

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه‌السلام ١ : ٢٨٤ .

ضياع حقه وسلب تراثه ، فقد جهد القوم على الغضّ من شأنه ، وعزله عن جميع ما يتعلّق بأمر الدولة ، حتى ألصق خده بالتراب ـ على حد تعبير بعض المؤرخين ـ ، يقول محمد بن سليمان في أجوبته عن أسئلة جعفر بن مكي :

إنّ عليّاً وضعه الأولون ـ يعني الشيخين ـ وأسقطاه وكسرا ناموسه بين الناس ، فصار نسياً منسياً[1] .

وقد صار جليس بيته تساوره الهموم ، ويسامر النجوم ، ويتوسّد الأرق ، ويتجرّع الغصص ، قد كظم غيظه ، وأسلم أمره إلى الله .

وانطوت نفوس أبنائه على حزن لاذع وأسىً عميق على عمر ، فقد روى المؤرخون أن الحسين خفّ إلى عمر وكان على المنبر يخطب فصاح به :

« انزل ، انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك . . » .

وبهت عمر ، واستولت عليه الحيرة ، وراح يقول :

صدقت لم يكن لأبي منبر .

وأخذه فأجلسه إلى جنبه وجعل يفحص عمّن أوعز إليه بذلك قائلاً :

من علّمك ؟

« والله ما علّمني أحد » .

شعور طافح بالأسى والألم انبعث عن إلهام وعبقرية ، رأى الإمام الحسين عليه السلام منبر جدّه الملهم الأوّل لقضايا الفكر الإنساني وأنّه لا يليق أن يرقاه غير أبيه باب مدينة علم النبيّ صلى الله عليه وآله ورائد العلم والحكمة في دنيا الإسلام .

وعلى أي حال فقد كان هذا الشعور سائداً عند ذرّية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يقتصر على الإمام الحسين وإنّما كان شاملاً للعقيلة زينب كما يدلّل على ذلك

---

(١) نهج البلاغة ٩ : ٢٨ .

خطابها الرائع في البلاط الأموي ، فقد قالت ليزيد : « وسيعلم من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين » ، وهذه الكلمات صريحة فيما ذكرناه .

وقد بحثنا عن شؤون عمر وأيام حكومته في كتابنا (حياة الإمام الحسين) ، فلا نعيد تلك البحوث .

اغتيال عمر :

وبقي عمر على دست الحكم يتصرّف في شؤون الدولة حسب رغباته وميوله ، وكان فيما يقول المؤرخون شديد البغض والكراهية للفرس ، يبغضهم ويبغضونه ، فقد حظر عليهم دخول يثرب إلّا من كان سنّه دون البلوغ[١] . وتمنّى أن يحول بينهم وبينه جبل من حديد ، وأفتى بعدم إرثهم إلّا من ولد منهم في بلاد العرب[٢] ، وكان يعبر عنه بالعلوج[٣] .

وقد قام باغتياله أبو لؤلؤة وهو فارسي ، أمّا السبب في اغتياله له فهو أنّه كان فتى متحمّساً لوطنه وأمّته ، ورأى عمر قد بالغ في احتقار الفرس وإذلالهم ، وقد خفّ إليه يشكو ممّا ألمّ به من ضيق وجهد من جراء ما فرض عليه المغيرة من ثقل الخراج ، وكان مولى له ، فزجره عمر وصاح به :

ما خراجك بكثير من أجل الحرف التي تحسنها .

وألهبت هذه الكلمات قلبه فأضمر له الشر ، وزاد في حنقه عليه أنّه اجتاز على عمر فسخر منه وقال له :

بلغني أنّك تقول : لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت .

---

(١) شرح النهج ١ : ١٨٥ .

(٢) الموطأ ٢ : ١٢ .

(٣) شرح النهج ١٢ : ١٨٥ .

ولذعته هذه السخرية فخاطب عمر :

لأصنعن لك رحى يتحدّث الناس بها .

وفي اليوم الثاني قام بعملية الاغتيال[١] . فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت السرّة فخرقت الصفاق[٢] ، وهي التي قضت عليه ، ثم هجم على من في المسجد فطعن أحد عشر رجلاً ، وعمد إلى نفسه فانتحر[٣] ، وحمل عمر إلى داره وجراحاته تنزف دماً ، فقال لمن حوله :

من طعنني ؟

غلام المغيرة .

ألم أقل لكم : لا تجلبوا لنا من العلوج أحداً فغلبتموني[٤] .

وأحضر أهله له طبيباً فقال له :

أيّ الشراب أحبّ إليك ؟

النبيذ .

فسقوه منه فخرج من بعض طعناته صديداً ، ثم سقوه لبناً فخرج من بعض طعناته ، فيئس منه الطبيب ، وقال له :

لا أرى أن تمسي[٥] .

الشورى :

ولمّا أيقن عمر بدنوّ الأجل المحتوم منه أخذ يطيل التفكير فيمن يتولّى شؤون

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢١٢ .

(٢) الصفاق : الجلد الأسفل الذي تحت الجلد .

(٣) شرح النهج ١٢ : ١٨٥ .

(٤) شرح النهج ١٢ : ١٨٧ .

(٥) الاستيعاب (المطبوع على هامش الإصابة) ٢ : ٤٦١ .

الحكم من بعده ، وقد تذكّر أعضاء حزبه الذين شاركوه في تمهيد الحكم لأبي بكر ، فأخذ يبدي حسراته عليهم لأنهم جميعاً قد اقتطفتهم المنية ، فقال بأسى وأسف :

لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته لأنّه أمين هذه الأمّة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفته لأنّه شديد الحبّ لله تعالى .

لقد استعرض الأموات ، وتمنّى أن يقلّدهم الحكم ولم يعرض لسيّد العترة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ولا للصفوة الطاهرة من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله أمثال عمّار بن ياسر الطيّب ابن الطيّب ، ولا لأبي ذرّ ، ولا لرؤساء الأنصار من الذين ساهموا في بناء الإسلام واستشهد أبناؤهم في سبيله .

لقد تمنّى حضور أبي عبيدة وسالم ليقلّدهما منصب رئاسة الدولة ، مع العلم أنّهما لم يكن لهما أية سابقة تُذكر في خدمة الإسلام .

لقد رأى عمر أن يجعلها شورى بين المسلمين وانتخب من يمثّلهم ، وهم ستة :

١ ـ الإمام أمير المؤمنين .

٢ ـ عثمان بن عفان الأموي .

٣ ـ طلحة .

٤ ـ عبدالرحمن بن عوف .

٥ ـ الزبير .

٦ ـ سعد بن أبي وقاص .

وقد اختار عمر هؤلاء النفر لصرف الخلافة عن الإمام أمير المؤمنين ، فقد كان معظم أعضائها من المنحرفين عن الإمام والموالين لبني أُميّة ، ولم يكن مع الإمام سوى الزبير ، وهو لا يغني شيئاً ، وقد جمع عمر أعضاء الشورى ، وقدم في كلّ

واحد منهم سوى الإمام فانصرف عنه ، فقال عمر لمن حضر عنده :

والله إني لأعلم مكان رجل لو ولّيتموه أمركم لحملكم على المحجّة البيضاء .

فقالوا له :

من هو ؟ .

هذا المولي من بينكم .

ما يمنعك من ذلك ؟ .

ليس إلى ذلك من سبيل[(١)] .

ودعا عمر بأبي طلحة الأنصاري فعهد إليه بما يحكم أمر الشورى فقال له :

يا أبا طلحة ، إن الله أعزّ بكم الإسلام فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فالزم هؤلاء النفر بإمضاء الأمر وتعجيله ، والتفت إلى المقداد فعهد إليه بمثل ما عهد إلى أبي طلحة ثم قال له :

إذا اتفق خمسة وأبى واحد منهم فاضربوا عنقه ، وإن اتّفق أربعة وأبى اثنان فاضربوا عنقهما ، وإن اتّفق ثلاثة على رجل ورضي ثلاثة منهم برجلٍ آخر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .

والتاع الإمام وعرف أنّها مكيدة دبّرت ضدّه ، فقد قال لعمّه العباس :

« يا عمّ ، لقد عدلت عنّا » .

وسارع العباس قائلاً :

من أعلمك بذلك ؟ .

وكشف الإمام الغطاء عمّا دبّره عمر ضدّه قائلاً :

« لقد قرن بي عثمان ، وقال : كونوا مع الأكثر ، ثم قال : كونوا مع عبدالرحمن

---

(١) شرح النهج ١٢ : ١٩٥ .

وسعد ، لا يخالف ابن عمّه عبدالرحمن ، وعبدالرحمن صهر لعثمان ، وهم لا يختلفون ، فإمّا أن يولّيها عبدالرحمن عثمان أو يولّيها عثمان عبدالرحمن » .

وصدق تفرّس الإمام ، فقد ولّاها عبدالرحمن لعثمان إيثاراً لمصالحه ، وابتغاءً لرجوعها إليه من بعده .

إنّ أدنى تأمل في وضع الشورى يتّضح منه صرف الخلافة عن الإمام أمير المؤمنين ، ووضعها عند القوى المنحرفة عنه .

وعلى أي حال فإنّ الشورى بأسلوبها الهزيل ، قد ألقت الأمّة في شرّ عظيم ، وفرّقت كلمتها ، وأشاعت الطمع والتهالك على الحكم والسلطان بين أبنائها ، وقد أعلن هذه الظاهرة معاوية بن أبي سفيان ، فقد قال لأبي الحصين :

بلغني أنّ عندك ذهناً وعقلاً فأخبرني عن شيء أسألك عنه .

سلني عمّا بدا لك .

أخبرني ما الذي شتّت شمل أمر المسلمين وملأهم وخالف بينهم ؟ .

قتل الناس عثمان .

ما صنعت شيئاً .

مسير عليّ إليك وقتاله إياك .

ما صنعت شيئاً .

مسير طلحة والزبير وعائشة وقتال عليّ إيّاهم .

ما صنعت شيئاً .

ما عندي غير هذا .

وطفق معاوية يبيّن أسباب الخلاف والفرقة بين المسلمين قائلاً :

أنا أخبرك أنّه لم يشتّت بين المسلمين ، ولا فرّق أهواءهم إلّا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر .

وأضاف يقول :

ثم جعلها ـ عمر ـ شورى بين ستّة نفر ، فلم يكن رجل منهم إلّا رجاها لنفسه ورجاها له قومه ، وتطلّعت إلى ذلك نفسه[1] .

لقد شاعت الأطماع السياسية بشكل سافر عند بعض أعضاء الشورى وغيرهم ، فاندفعوا إلى خلق الحزبية في المجتمع الإسلامي للوصول إلى كرسي الحكم والظفر بخيرات البلاد .

وعلى أي حال فقد ذكرنا بصورة موضوعية وشاملة آفات الشورى في كتابنا (حياة الإمام الحسين) ، وقد ألمحنا إليها في هذه البحوث ؛ وذلك لأنّها تلقي الأضواء على الحياة الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر الذي عاشت فيه عقيلة بني هاشم والتي أدت إلى ما عانته من الأهوال والكوارث التي تذهل كل كائن حيّ .

انتخاب عثمان وحكومته :

واجتمع أعضاء الشورى في بيت المال ، وقيل في بيت مسرور بن مخرمة ، وتداولوا الحديث عِمّن أحقّ بأمر المسلمين ، وكثر الجدل فيما بينهم ، فانبرى الإمام أمير المؤمنين فحذّرهم من الخلاف والفتنة إن استجابوا لعواطفهم ، ولم يؤثروا المصلحة العامة للمسلمين قائلاً :

« لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقّ وصلة رحم وعائدة كرم ، فاسمعوا قولي وعوا منطقي عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتطي فيه السيوف ، وتخالف منه العهود حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة » .

ولم يعوا منطق الإمام ونصيحته ، فقد استجابوا لعواطفهم ، وكان الأمويون قد حفوا بأهل الشورى وهم يقدّمون لهم الوعود المعسولة إن انتخبوا عميدهم عثمان .

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٧٣ ـ ٧٤ .

وانقضت الثلاثة أيام التي حدّدها عمر ولم ينتخب أعضاء الشورى أحداً منهم ، فحذّرهم أبو طلحة الأنصاري وجعل يتهدّدهم ويتوعّدهم إن لم ينتخبوا أحداً منهم ، انبرى طلحة فوهب حقّه لعثمان لأنه كان شديد الكراهية للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لأنه نافس ابن عمّه أبا بكر على الخلافة ، ووهب سعد بن أبي وقّاص حقّه لابن عمّه عبدالرحمن بن عوف ، وأصبح رأيه هو الفيصل لأن عمر وضع ثقته به ، وكان رأيه مع عثمان لأنه صهره وقد زهّده القرشيون في الإمام وحرّضوه على انتخاب عثمان ؛ لأنه يحقّق رغباتهم وأطماعهم ، وأمر عبدالرحمن مسوراً بإحضار الإمام أمير المؤمنين وعثمان بن عفان ، فلمّا حضرا عنده في الجامع النبوي التفت إلى الحاضرين فقال لهم :

أيّها الناس ، إن الناس قد اجتمعوا على أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم فأشيروا عليّ .

وانبرى الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر فأشار عليه بما يضمن للأُمّة مصالحها ويصونها من الاختلاف والفرقة قائلاً :

إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً .

وأيد المقداد مقالة صاحبه عمار فقال :

« صدق عمار إن بايعت علياً سمعنا وأطعنا . . .

وشجبت الأُسر القرشية المعادية للإسلام والحاقدة عليه مقالة عمار ، ورشحت عميد الأُمويين عثمان بن عفان ، وقد كان الممثل لها عبدالله بن أبي سرح فخاطب ابن عوف قائلاً :

إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان .

وكأن شؤون الخلافة ومصير المسلمين موكول إلى قريش وهي التي حاربت رسول الله صلى الله عليه وآله وناهضت دعوته وعذّبت أنصاره حتى هرب منها ، وتابعته إلى يثرب

بجيوش مكثفة لاستئصال دعوته ومحو دينه ، ولكن الله تعالى ردّ كيدهم وأفشل خططهم ، ونصر نبيّه العظيم ، ولولا سماحة النبيّ ﷺ ورأفته لأجرى عليهم حكم بني قريضة ، ولكنّه عفا عنهم ، وجعلهم من الطلقاء .

وعلى أي حال فقد اندفع عبدالله بن أبي ربيعة فأيّد مقالة ابن سرح قائلاً :

إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا .

وانبرى الصحابي الجليل عمّار بن ياسر فردّ على ابن أبي سرح قائلاً :

متى كنت تنصح للمسلمين .

وصدق عمار فمتى كان ابن أبي سرح ينصح المسلمين وهو من ألدّ أعداء رسول الله ﷺ وقد أمر بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة[1] .

واحتدم الجدال بين الهاشميين وخصومهم الأُمويين ، وانبرى ابن الإسلام البار عمار بن ياسر فجعل يدعو لصالح المسلمين قائلاً :

أيّها الناس ، إن الله أكرمنا بنبيّه ، وأعزنا بدينه فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟

وانبرى رجل من مخزوم فقطع على عمّار كلامه قائلاً :

لقد عدوت طورك يابن سميّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها .

وطفحت الروح الجاهلية على هذه الكلمات ، فليس فيها إلّا الدعوة إلى الباطل ، فقد اعتبر المخزومي أمر الخلافة وشؤونها إلى قريش التي ما آمنت بالله وكفرت بقيم الإسلام ، فأيّ حق لها في خلافة المسلمين ، وقبله أعلن أحد أعلام القرشيين : أبت قريش أن تجتمع النبوة والإمامة في بيت واحد .

إن أمر الخلافة بيد جميع المسلمين يشترك فيه ابن سميّة وغيره من الضعفاء

---

(١) الاستيعاب ٢ : ٣٧٥ .

الذين أعزهم الله بدينه ، وليس لأيّ قرشي الحقّ في التدخل بشؤون المسلمين لو كان هناك منطق وحساب .

وعلى أي حال فقد احتدم النزاع بين القوى الإسلامية وبين القرشيّين ، فخاف سعد أن يفلت الأمر من أيديهم وتفوز الأُسرة النبوية بالحكم فالتفت إلى عبدالرحمن قائلاً له :

يا عبدالرحمن ، افرغ من أمرك قبل أن يفتتن الناس .

والتفت عبدالرحمن إلى الإمام فقال له :

هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيّه وفعل أبي بكر وعمر ؟ .

فرمقه الإمام بطرفه وأجابه بمنطق الإسلام قائلاً :

« بل على كتاب الله وسنّة رسوله ، واجتهاد رأيي » .

إن ابن عوف يعلم علماً جازماً أن الإمام لا يسوس المسلمين بسيرة الشيخين ولا يحفل بها ، وإنّما يسوسهم بكتاب الله وسنّة نبيّه ورأيه المشرق الذي هو امتداد ذاتي لرأي النبيّ ﷺ ، وإنّما شرط عليه ذلك لصرف الخلافة عنه .

ولو كان الإمام ممّن يبغي الحكم والسلطان لوافق على هذا الشرط ، ثم خالفه ، ولكنه سلام الله عليه في جميع أدوار حياته واكب الصدق والحقّ ولم يحد عنهما مهما كانت الظروف .

وعلى أي حال فإنّ عبدالرحمن لمّا يئس من إجابة الإمام اتّجه صوب عثمان فعرض عليه شروطه فأجابه بلا تردّد ، فصفق بكفّه على يده وقال له :

اللّهمّ إنّي قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان .

والتاع الإمام فخاطب ابن عوف :

« والله ما فعلتها إلّا لأنّك رجوت منه ما رجا صاحبها من صاحبه ، دقّ الله بينكما عطر منشم » .

لقد رجا ابن عوف من بيعته لعثمان أن يكون خليفة من بعده كما كان ذلك بالنسبة للشيخين ، واتّجه الإمام صوب القرشيّين فقال لهم :

« ليس هذا أوّل يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون » .

ولذع منطق الإمام ابن عوف فراح يهدّده :

يا عليّ ، لا تجعل على نفسك سبيلاً .

وغادر الإمام المظلوم قاعة الاجتماع وهو يقول :

« سيبلغ الكتاب أجله . . » .

والتفت الصحابي العظيم عمّار بن ياسر فخاطب ابن عوف :

يا عبدالرحمن ، أما والله لقد تركته ، وإنّه من الذين يقضون بالحقّ وبه كانوا يعدلون .

وانبرى المقداد فرفع صوته قائلاً:

تالله ما رأيت مثل ما أتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيّهم ! وا عجباً لقريش لقد تركت رجلاً ما أقول ولا أعلم أن أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ، لو أجد أعواناً .

وصاح به عبدالرحمن :

اتّق الله يا مقداد ، فإنّي خائف عليك الفتنة .

وانتهت بذلك مأساة الشورى التي وضعها عمر لصرف الخلافة عن أهل بيت النبوة ومنحها لبني أُميّة ، وقد رأت عقيلة الوحي السيّدة زينب عليها السلام أضغان القرشيّين وحقدهم على أبيها ، وإنّهم قد عملوا جاهدين على إطفاء نور الله ، والإجهاز على رسالة الإسلام الهادفة لتطوير الوعي الاجتماعي ، وإشاعة الخير والهدى بين الناس .

لقد خلقت الشورى العمرية الفتن والضغائن بين المسلمين وحجبت الأُسرة النبوية عن القيادة العامة للعالم الإسلامي ، وسلّطت عليهم شرار خلق الله ، فأمعنوا في ظلمهم والتنكيل بهم ، وما كارثة كربلاء وما عانته عقيلة بني هاشم السيّدة زينب عليها السلام من صنوف الظلم والكوارث التي هي - من دون شك - من النتائج المباشرة لأحداث الشورى والسقيفة فإنهما الأساس لكل ما لحق بآل النبي صلى الله عليه وآله من الكوارث والخطوب .

حكومة عثمان:

وتسلّم عثمان قيادة الأُمّة ، وقد احتفّ به بنو أُميّة وآل أبي معيط ، وأخذوا يتصرفون في شؤون الدولة حسب رغباتهم وميولهم ولا شأن لعثمان في جميع المناحي السياسية والاقتصادية ، فقد كان بمعزل عنها ، وقد سيطر عليها وتسلّم قيادتها مروان بن الحكم الوزغ ابن الوزغ ، والذي يسمّيه معاصروه بالخيط الباطل ؛ وذلك لخبثه وسوء سريرته ، فكان وزيره ومستشاره .

وقد هام عثمان بحبّ أُسرته ، وتفانى في الولاء لهم فكان يقول : لو كانت مفاتيح الجنة بيدي لأعطيتها لبني أُميّة[1] .

وقد أسند مناصب الدولة لهم ، كما عيّنهم ولاة في معظم الأقاليم الإسلامية ، ووهبهم الثراء العريض فكانوا في طليعة الرأسماليين في العالم الإسلامي ، وقد عرضنا في بعض كتبنا[2] بصورة موضوعية وشاملة إلى الهبات المالية الهائلة التي منحها عثمان لأُسرته ، كما عرض لها الحجّة الأميني والدكتور طه حسين والعقّاد وغيرهم ، وقد أدت هباته ومنحه الامتيازات الخاصة لهم إلى نقمة المسلمين

---

(١) مسند أحمد ١ : ٦٢.

(٢) حياة الإمام الحسن ، وحياة الإمام الحسين عليهما السلام .

وشيوع السخط والتذمّر عليه في معظم الأقاليم الإسلامية .

الجبهة المعارضة :

ونقمت على عثمان ، وسخطت على سياسته معظم الصحابة وأعلام الإسلام وفي طليعتهم .

١ ـ أبو ذرّ الغفاري .

٢ ـ عمّار بن ياسر .

٣ ـ السيّدة عائشة .

٤ ـ طلحة .

٥ ـ الزبير .

٦ ـ عبدالرحمن بن عوف .

٧ ـ عبدالله بن مسعود ، وغيرهم من أقطاب الإسلام وحماته وقد نكّل عثمان بالكثيرين من معارضيه ، فقد نفى الصحابي العظيم أبا ذرّ الغفاري إلى الشام ، ثمّ نفاه إلى الربذة ، وهي صحراء قاحلة خالية من جميع مقومات الحياة ، وقد أنهكه الجوع حتى توفي غريباً جائعاً مظلوماً ،كما نكّل بالصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ، وقطع عنه مرتبه فلم يسعفه شيء حتى أهلكه الفقر وفي يد عثمان ذهب الأرض وخيراتها ،كما نكّل بأعظم صحابي وأجلّ مجاهد إسلامي وهو الطيّب ابن الطيّب عمّار بن ياسر فقد ضربه ضرباً مبرحاً حتى أصابه فتق وأُغمي عليه .

وقد رفعت السيّدة عائشة قميص رسول الله ﷺ وهي تقول : هذا قميص رسول الله ﷺ لم يبل وعثمان قد أبلى سنّته ،كما أفتت بحلّية قتله فقالت : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ، وقد اشتدّت عليه المعارضة وقويت ، وامتدّت إلى معظم الأقاليم الإسلامية ، وقد استجارت المعارضة بالعراق ومصر وغيرها لإنقاذ المسلمين من

عثمان وبطانته ، فخفتّ بعض الكتائب العسكرية فزحفت إلى يثرب ، وأحاطت بدار عثمان وطلبت منه إبعاد مروان وإقصاء بني أُميّة عنه أو الاستقالة من منصبه ، فوعدهم بتنفيذ أهم متطلباتهم وهي إقصاء بني أُميّة إلّا أنّه خان بوعده ، وكتب إلى ولاته على الأقطار بالتنكيل بمن استجاب للمعارضة ممّن قدموا إلى يثرب .

وقبض الثوار في أثناء رجوعهم إلى مدنهم على رسائله التي بعثها إلى ولاته في التنكيل بهم ففزعوا وقفلوا راجعين إلى يثرب ، وعرضوا عليه رسائله ، وطالبوه بالاستقالة الفورية من منصبه ، فلم يستجب لهم ، وأصرّ على الاحتفاظ بكرسي الحكم ، فعمدوا إلى الإجهاز عليه فقتلوه شرّ قتلة ، وتركوا جسده مرمياً على مزبلة من مزابل يثرب استهانة به ، ولم يسمحوا بمواراته إلّا أنّ الإمام أميرالمؤمنين توسط في دفنه فاستجاب له الثوار على كره فدفنوه في حش كوكب .

لقد انتهت حكومة عثمان ، وقد أخلدت للمسلمين المصاعب والفتن ، وألقتهم في شر عظيم ، فقد اتّخذت عائشة قتله وسيلة لتحقيق مآربها وأطماعها السياسية فراحت تطالب الإمام بدمه ، وهي التي أفتت بقتله وكفره ، كما اتّخذ الذئب الجاهلي معاوية بن هند قتل عثمان ورقة رابحة للتمرّد على حكومة الإمام والمطالبة بدمه .

وعلى أي حال فقد رأت حفيدة النبيّ ﷺ السيّدة زينب عليها السلام هذه الأحداث الجسام ووعت أهدافها السياسية فكان لها أعمق الأثر في نفسها ، فقد كان لها من المضاعفات السيئة ما اهتز من هولها العالم الإسلامي ، والتي كان من نتائجها كارثة كربلاء التي رزئت فيها السيّدة زينب ، فقد عانت من الكوارث والخطوب ما تذوب من هولها الجبال .

حكومة الإمام:

وبعدما أطاح الثوار بحكومة عثمان أحاطوا بالإمام أمير المؤمنين وهم يهتفون

بحياته ، ويعلنون ترشيحه لقيادة الأمّة فليس غيره أولى وأحق بهذا المركز الخطير ، فهو ابن عمّ النبيّ ﷺ وأبو سبطيه ، ومن كان منه بمنزل هارون من موسى ، وهو صاحب المواقف المشهورة في نصرة الإسلام والذبّ عنه ، وليس في المسلمين من يساويه في فضائله وعلومه وعبقرياته ، إلّا أنّ الإمام رفض دعوتهم ، ولم يستجب لهم لعلمه بما سيواجهه من الأزمات السياسية ، فإنّ منهجه في عالم الحكم يتصادم مع رغبات الأُسر القرشية التي تريد السيطرة على السلطة ، وإخضاعها لرغباتها الخاصة ، فقال عليه السلام للثوار:

« لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به . . » .

فهتفوا بلسان واحد :

ما نختار غيرك .

وعقدت القوات المسلحة مؤتمراً خاصاً عرضت فيه ما تواجهه الأُمّة من الأخطار إن بقيت بلا إمام يدير شؤونها ، وقد قرّرت إحضار المدنيّين وإرغامهم على انتخاب إمام للمسلمين ، فلمّا حضروا هدّدوهم بالتنكيل إن لم ينتخبوا إماماً وخليفة للمسلمين ، ففزعوا إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأحاطوا به رافعين عقيرتهم :

البيعة . . البيعة . .

فامتنع الإمام من إجابتهم ، فأخذوا يتضرّعون إليه قائلين :

أما ترى ما نزل بالإسلام ، وما ابتلينا به من أبناء القرى .

فأجابهم الإمام بالرفض الكامل قائلاً:

« دعوني ، والتمسوا غيري . . » .

ثم أعرب لهم الإمام عما ستعانيه الأُمّة من الأزمات قائلاً:

« أيها الناس ، إنّا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لا تقوم به القلوب ، ولا تثبت له العقول . . » .

لقد كشف الإمام عمّا سيواجهه المسلمون من الأحداث المروّعة التي تعصف بالحلم وتميد بالصبر ، الناجمة من الحكم المباد الذي عاث فساداً في الأرض ، فقد أقام عثمان أسرته حكّاماً وولاةً على الأقاليم الإسلامية ، فاستأثروا بأموال المسلمين واحتكروها لأنفسهم ، وإنهم حتماً سيقاومون كل من يريد الإصلاح الاجتماعي ، فلذلك امتنع الإمام من إجابة القوم .

ثم عرض الإمام على القوات المسلحة ، وعلى الصحابة وغيرهم منهجه فيما إذا ولي أمورهم قائلاً :

« إنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنّما أنا كأحدكم ، ألا وإنّي من أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه . . » .

واستجاب الجميع لما عرضه الإمام عليهم قائلين :

ما نحن بمفارقيك حتى نبايعك .

وأجّلهم الإمام إلى الغد لينظر في الأمور ، ولمّا أصبح الصبح هرعت الجماهير إلى الجامع الأعظم ، فأقبل الإمام فاعتلى أعواد المنبر فخطب الناس ، وكان من جملة خطابه :

« أيها الناس ، إنّ هذا أمركم ليس لأحد فيه حقّ إلّا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس ، وكنت كارهاً لأمركم ، فأبيتم إلّا أن أكون عليكم ألا وإنّه ليس لي أن آخذ درهماً دونكم ، فإن شئتم قعدت لكم وإلّا فلا آخذ على أحد . . » .

وتعالى هتاف الجماهير بالتأييد والرضا قائلين :

نحن على ما فارقناك عليه بالأمس .

وطفق الإمام قائلاً :

« اللّهمّ اشهد عليهم . . » .

وقد اتّجهت الناس كالموج صوب الإمام لتبايعه ، وأوّل من بايعه طلحة فبايعه

بيده الشلّاء التي سرعان ما نكث بها عهد الله فتطيّر منها الإمام وقال :

« ما أخلفه أن ينكث . . »[١] .

ثمّ بايعه الزبير وهو ممّن نكث بيعته ، وبايعته القوات العسكرية ، كما بايعه من بقي من أهل بدر والمهاجرين والأنصار كافة[٢] ، ولم يظفر أحد من خلفاء المسلمين بمثل هذه البيعة في شمولها ، وقد فرح بها المسلمون وابتهجوا ووصف الإمام عليه السلام مدى سرورهم بقوله :

« وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب . . » .

لقد ابتهج المسلمون ، وعمّت الفرحة الكبرى جميع الأوساط الإسلامية بخلافة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام رائد العدالة الاجتماعية ، والمتبنّي لحقوق الإنسان الذي شارك البؤساء والمحرومين في سغبهم ومحنهم ، القائل :

« أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ، ولا أُشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش » .

وجوم القرشيين :

واستقبلت قريش خلافة الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بكثير من الوجوم والقلق والاضطراب ، كما استقبلوا نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فإنّ الروح الجاهلية بما تحمل من عادات وتقاليد وكراهية للحق لم تزل ماثلة فيهم ولم يغيّر الإسلام من طباعهم أي شيء .

وقريش تعرف الإمام جيداً فهو الذي حصد رؤوس أعلامهم بسيفه ، ومحق

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٩٣ .

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٣٧٦ .

كبرياءهم في سبيل الإسلام الذي ناهضوه ، وقد خفّ إليه الأُمويّون ، وفي طليعتهم الوليد فقال للإمام :

إنّك قد وترتنا جميعاً ، أما أنا فقتلت أبي صبراً يوم بدر ، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر ، وكان أبوه من نور قريش ، وأمّا مروان فشتمت أباه ، وعبت على عثمان حين ضمّه إليه . فنبايع على أن تضع عنّا ما أصبنا ، وتعفو عنّا عمّا في أيدينا ، وتقتل قتلة صاحبنا .

فرد الإمام عليه مقالته التي لا بصيص فيها من نور الحق قائلاً :

« أما ما ذكرت من وتري إيّاكم فالحق وتركم ، وأمّا وضعي عنكم عمّا في أيديكم فليس لي أن أضع حقّ الله ، وأمّا إعفائي عمّا في أيديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم ، وأمّا قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتالهم اليوم لزمني قتالهم غداً ، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنّة نبيّه ، فمن ضاق عليه الحقّ فالباطل عليه أضيق ، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم »[1] .

إن الأُمويّين أرادوا المساومة فيما نهبوه من أموال المسلمين وما اختلسوه من بيت المال ، وهيهات أن يستجيب لهم رائد الحق والعدالة في دنيا الإسلام الذي لا تساوي السلطة عنده قيمة حذائه الذي كان من ليف ، وقد انصرفوا عنه وقلوبهم مترعة بالحقد والكراهية له .

وعلى أي حال فقد فزع القرشيّون من حكومة الإمام عليه السلام وخافوا على مصالحهم ونفوذهم وامتيازاتهم التي ظفروا بها في عهد الخلفاء ، لقد أيقنوا أن الإمام سيعاملهم معاملة عادية ، ولا يميّزهم على أيّ أحد من المسلمين ، وقد كان سيء الظنّ بهم ، وقد أعرب عن مدى استيائه منهم بقوله :

« ما لي ولقريش لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقتلنهم مفتونين ، والله لابقرنّ الباطل

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٥٥ .

حتى يظهر الحق من خاصرته ، فقل لقريش فليضج ضجيجها . . » .

لقد حقدت قريش على الإمام كما حقدت على ابن عمّه رسول الله ﷺ ، وقد صرفت الخلافة تارة عنه إلى تيم ، وإلى عدي أُخرى ، وإلى بني أُمية ثالثة ، وقد جهدت على محاربته وإشاعة التمرّد في أيام خلافته ، وقد ظهرت بوادر ذلك في حرب الجمل وصفين .

إجراءات حاسمة :

وقام الإمام رائد العدالة الاجتماعية بإجراءات حاسمة ضد الحكم المباد كان منها :

١ ـ مصادرة الأموال المنهوبة:

وأوّل عمل قام به الإمام أنّه أصدر أوامره بمصادرة القطائع التي اقتطعها عثمان ، وباسترجاع الأموال التي استأثر بها لنفسه ، والأموال التي منحها لبني أُميّة وآل أبي معيط لأنها أخذت بغير وجه مشروع ، وقد صودرت أموال عثمان حتى سيفه ودرعه ، وقد كتب عمرو بن العاص إلى معاوية رسالة جاء فيها :

ما كنت صانعاً فاصنع إذا قشّرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه ، كما تقشّر عن العصا لحاها . . .

وعمّ الذعر والخوف جميع الرأسماليين القرشيّين الذين أقطعهم عثمان ووهبهم الثراء العريض ، فقد خافوا من مصادرتها وتأميمها للدولة كما صنع الإمام بأموال عثمان فلذا أعلنوا التمرّد والبغي على حكومة الإمام .

٢ ـ عزل الولاة:

وقام رائد العدالة الاجتماعية بعزل ولاة عثمان لأنهم أظهروا الجور والفساد

في الأرض ، فقد عزل معاوية بن هند ، وقد نصحه جماعة من المخلصين له وطلبوا منه إبقاء معاوية فأبى وامتنع من المداهنة في دينه ، وكيف يبقي الإمام في جهاز حكمه هذا الذئب الجاهلي ، ويقرّه على عمله وهو رأس المنافقين ومصدر قوتهم .

وكذلك عزل غير معاوية من ولاة عثمان ، ولم يبق واحداً منهم والياً على قطر من الأقطار .

٣ ـ المساواة بين المسلمين:

وأعلن الإمام عليه السلام المساواة العادلة بين جميع المسلمين ، مساواة في العطاء ومساواة في الحقوق وغيرهما من الشؤون الاجتماعية ، وقد عوتب على مساواته في العطاء ، فأجاب :

« أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه ، والله ما أطور به ما سمر سمير ، وما أمّ نجم في السماء نجماً ، لو كان المال لي لسوّيت بينهم فكيف وإنّما المال مال الله ! ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله . . » .

وهكذا سلك عليّ في أيام حكومته مسلكاً مشرقاً لا التواء ولا منعطف فيه ، فطبق العدل ونشر المساواة ، فلم يؤثر أي أحد من أبنائه وأرحامه على غيرهم ، ولم يمنحهم أي امتياز في دولته ، وكان من بوادر عدله أنّه دخل بيت المال فقسّمه فجاءت طفلة إمّا للحسن أو للحسين فتناولت منه شيئاً فلمّا بصر بها أسرع إليها فأخذه منها وأرجعه إلى بيت المال ، فقال له أصحابه :

يا أمير المؤمنين ، إن لها فيه حقّاً . . .

فأنكر عليهم ذلك وقال :

« إذا أخذ أبوها منه فليعطها منه ما شاء »[1] .

لقد تحرج في سلوكه كأشدّ وأقسى ما يكون التحرج وأرهق نفسه إرهاقاً شديداً ، فلم يرق الناس مثل عدله في جميع فترات التاريخ .

على خطة العدل والشرف غذّى أبناءه ، وقد رأت ابنته حفيدة الرسول زينب عليها السلام هذه السيرة المشرقة التي تأخذ بأعماق القلوب قد سار عليها أبوها فكانت من عناصر تربيتها ومن مقوّمات ذاتها ، وهي التي خلقت له الخصوم والأعداء .

(١) أنساب الأشراف ١ : ١٦٠ ، القسم الأوّل .

التمرّد على حكومة الإمام

وثارت القوى المنحرفة عن الحقّ والمعادية للإصلاح الاجتماعي على حكومة الإمام رائد الحق والعدالة في دنيا الإسلام ، وقد أرادوا منه أن يعدل عن منهجه ، ويسير وفق مخططاتهم الهادفة إلى ضمان مصالحهم ، ومنحهم الامتيازات الخاصة ، فأبى عليه السلام إلّا أن يسير بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويطبّق قانون الإسلام وتعاليم القرآن ، ونشير إلى بعض هؤلاء المتمرّدين الذين شقّوا صفوف المسلمين ، وأغرقوا البلد في المحن والاضطراب ، وأشاعوا بين المسلمين الحزن والحداد ، وهم :

طلحة والزبير :

وبايع طلحة والزبير الإمام أميرالمؤمنين ، وانعقدت بيعته في أعناقهما ، ولكن الأطماع السياسية والشورى العمرية التي نفخت فيهما روح الطموح ، وساوت بينهما وبين بطل الإسلام وأخي رسول الله صلى الله عليه وآله ، هي التي دفعتهما إلى إعلان التمرّد ، وقد خفّا إلى الإمام عليه السلام وقد أترعت نفوسهما بالأطماع والكيد للإسلام ، فقالا للإمام :

هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين ؟

فأسرع الإمام قائلاً :

« نعم على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان . . » .

فرفضا ذلك ، وقالا :

لا ، ولكن بايعناك على أنا شريكاك في الأمر .

فرمقهما الإمام بطرفه ، وأوضح لهما ما ينبغي أن يكونا شريكين له قائلاً :

« لا ، ولكنّكما شريكان في القول والاستقامة ، والعون على العجز والأولاد » .

لقد أعربا عن أطماعهما وأنّ بيعتهما للإمام لم تكن من أجل صالح المسلمين وجمع كلمتهم ، وقاما مغضبين ، فقال الزبير في ملأ من قريش :

هذا جزاؤنا من عليّ ، قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب ، وسبّبنا له القتل ، وهو جالس في بيته ، وكفي الأمر ، فلمّا نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا . . .

وقال طلحة :

ما اللوم إلّا أنّا كنّا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا [(١)] وبايعناه ، وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا . . .

والشيء المؤكّد أنّهما لم يعرفا عليّاً ، ولم يعيا أهدافه في عالم الحكم ، ولو عرفاه ما نازعاه ، أو أنّهما عرفاه وحالت أطماعهما وجشعهما على منازعته ، وانتهى حديثهما إلى الإمام فاستدعى مستشاره عبدالله بن عباس فقال له :

« بلغك قول الرجلين . . » .

نعم .

« أرى أنّهما أحبّا الولاية فولِّ البصرة الزبير ، وولِّ طلحة الكوفة . . » .

ولم يرتض الإمام رأي ابن عباس ، فقال مفنّداً لرأيه :

« ويحك إنّ العراقين ـ البصرة والكوفة ـ بهما الرجال والأموال ، ومتى تملّكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ، ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوي بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ،

---

(١) يريد به سعد بن أبي وقّاص فإنّه امتنع عن بيعة الإمام عليه السلام والذي دفعه على ذلك حقده له .

ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي . . » .

لقد كان الإمام عالماً بأطماعهما ، وما انطوت عليه نفوسهما من التهالك على الامرة والسلطان ، ولو كان يعلم نزاهتهما واستقامتهما لولّاهما البصرة والكوفة .

ولمّا علم طلحة والزبير أنّ الإمام لا يولّيهما على قطر من أقطار المسلمين خفّا إليه طالبين منه الإذن بالخروج قائلين :

ائذن لنا يا أمير المؤمنين . . .

« إلى أين ؟ » .

نريد العمرة .

فرمقهما الإمام بطرفه ، وعرّفهما ما يريدان قائلاً لهما :

« والله ما العمرة تريدان ، بل الغدرة ونكث البيعة . . » .

فأقسما له بالأيمان المغلظة أنّهما لا يخلعان بيعته ، وأنّهما يريدان أن يعتمرا بالبيت الحرام ، وطلب منهما الإمام أن يعيدا له البيعة ثانياً ، ففعلا دون تردد ، ومضيا منهزمين إلى مكة يثيرا الفتنة ، ويلحقا بعائشة ليتّخذوها واجهة لتمرّدهما على الحق وشقّ كلمة المسلمين .

تمرّد عائشة :

ويجمع المؤرخون على أنّ عائشة في طليعة من أشعل نار الثورة على عثمان ، فقد أفتت بقتله ومروقه من الدين ، وكانت تسمّيه نعثلاً ، ولمّا أحاط به الثوار خرجت إلى مكة ، وبعد أدائها لمناسك الحج قفلت راجعة إلى يثرب ، وهي تجدّ في السير لتنظر ما آل إليه أمر عثمان ، فلمّا انتهت إلى سرف لقيها رجل من أخوالها كان قادماً من المدينة ، فأسرعت قائلة :

مهيم . .[١] .

---

(١) مهيم : كلمة استفهام من معانيها ما وراؤك .

قتلوا عثمان . . .

وأسرعت قائلة :

ثم صنعوا ماذا ؟

واجتمعوا على بيعة عليّ فجازت بهم إلى خير مجاز .

ولمّا سمعت أنّ الخلافة قد آلت إلى الإمام أميرالمؤمنين ﷺ انهارت أعصابها وتحطّمت قواها ، وهتفت وهي حانقة ، وبصرها يشير إلى السماء ثم ينخفض فيشير إلى الأرض قائلة :

والله ليت هذه انطبقت على هذه ، إن تمّ الأمر لابن أبي طالب ، قتل عثمان مظلوماً ، والله لأطلبنّ بدمه . . .

وبهر عبيد من منطقها ، فقال لها باستهزاء وسخرية :

ولِمَ ؟ فوالله إنّ أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر !!

وانبرت عائشة تبرّر هذا التناقض في كلامها وسلوكها ، فقالت له :

إنّهم استتابوه ثمّ قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأوّل .

وهي حجّة واهية لا واقع لها ، فهل أنّها كانت حاضرة حينما أحاط الثوار بعثمان فأعلن لهم توبته فلم يحفلوا بها ، وعدوا عليه فقتلوه ، كما تقول ولم يخف على ابن خالها هذا التناقض الصريح في قولها ، فراح يرد عليها :

مِنكِ البَداءُ وَمِنكِ الغِيَرْ وَمِنْكِ الريَاحُ وَمِنْكِ المَطر

وأنتِ أمرْتِ بِقَتْلِ الإمام وقُلْتِ لنا إنّه قد كَفَر

فَهَبْنا [1] أطَعْنَاكِ في قَتلِهِ وقاتِلُهُ عِنْدَنَا مَن أمَر

---

(١) في رواية : « ونحن » .

وَلَمْ يسقُطِ السقْفُ من فَوْقِنا ... ولَمْ يَنْكَسِفْ شَمْسُنا وَالقَمَر
وقد بايَعَ الناسُ ذو تُدْرَؤٍ[1] ... يُزِيلُ الشَّبَا ويُقيمُ الصَّعَرَ
وَيَلْبَسُ للحرْبِ أثوابَها ... وما مَنْ وفى مِثْلُ مَنْ قد غَدَر

وغاظها قوله فأعرضت عنه ، وقفلت راجعة إلى مكة[2] وهي كئيبة حزينة لأن الخلافة آلت إلى باب مدينة علم النبيّ ﷺ وأبي سبطيه .

وراحت تندب عثمان ، فقد اتّخذت قتله ورقة رابحة للإطاحة بحكم الإمام ، يقول شوقي :

أثأر عثمان الذي شجاها ... أم غصّة لم ينتزع شجاها
ذلك فتق لم يكن بالبال ... كيد النساء موهن الجبال

إنّ دم عثمان لا يصلح بأي حال من الأحوال أن يكون من بواعث ثورتها على حكومة الإمام ، فقد كانت هناك أسباب وثيقة دعتها إلى هذا الموقف الذي لا تحمد عليه ، وقد ذكرناها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسن) .

الزحف إلى البصرة :

وانضمّ طلحة والزبير إلى عائشة ، ومعهما جميع رجال الحكم المباد من ولاة عثمان وغيرهم من المعادين لحكومة الإمام ، وقد قرّر زعماء الفتنة الزحف إلى البصرة لاحتلالها ، ونادى المنادي في مكة :

أيّها الناس ، إنّ أمّ المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين والطلب بدم عثمان ، ولم يكن عنده مركب

---

(١) ذو تدرؤ: أي ذو عزيمة ومنعة . الشبا : المكروه . الصعر : ميل في الوجه أو في أحد الشفتين ، والمراد أنّه يقيم الشيء الملتوي .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٤٥٤ ، وغيره .

ولا جهاز فهذا جهازه ، وهذه نفقته . . .

وزوّدوا الجند بالسلاح والعتاد والأموال ، وقد كان قسم من النفقات من يعلي ابن أمية والي عثمان ، فقد أعان بأربعمائة ألف وحمل سبعين رجلاً[١] .

واعتلت عائشة على جملها ، ولم ترغب فيه ، وصادفوا في الطريق العرني ، وكان عنده جمل أعجب به أتباع عائشة ، فقالوا للعرني :

يا صاحب الجمل تبيع جملك ؟

نعم .

بِكَم ؟

بألف درهم .

مجنون أنت ، جمل يباع بألف درهم !!

نعم ، جملي هذا .

وممّ ذلك ؟

ما طلبت عليه أحداً إلّا أدركته ، ولا طلبني وأنا عليه قطّ إلّا فتّه .

لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا .

لمن تريده ؟

لأمّك .

قد تركت أمّي في بيتها قاعدة ما تريد براحاً .

إنّما نريده لأمّ المؤمنين عائشة .

هو لكم ، خذوه بغير ثمن .

لا .

ارجع معنا إلى الرحل نعطيك ناقة ونزيدك دراهم .

---

(١) الطبري ٣ : ٤٥٤ ، وغيره .

ورجع معهم فأعطوه ناقة مهرية وزادوه أربعمائة أو ستمائة درهم[١] .

واعتلت عليه عائشة ، وقد احتفى بها أنصارها من الأُمـويين وغـيرهم مـن الطامعين في الحكم .

ماء الحوأب :

وسارت قافلة عائشة تجدّ في السير لا تلوي على شيء ، فاجتازت على مكان يقال له الحوأب ، فتلقّت كلاب الحيّ القافلة بهرير وعواء ، فذعرت عائشة من شدّة ذلك النباح ، فقالت لمحمّد بن طلحة :

أيّ ماء هذا ؟

ماء الحوأب .

فذعرت عائشة ، وقالت :

ما أراني إلّا راجعة .

لِمَ يا أُمّ المؤمنين ؟

سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه : «كأنّـي بـإحداكـن قـد نـبحتها كـلاب الحوأب[٢] ، وإيّاك أن تكوني يا حميراء . . » .

فرد عليها محمّد وقال لها :

تقدمي رحمك الله ، ودعي هذا القول . . .

ولم تقتنع عائشة وذاب قلبها أسى على ما فرّطت في أمرها . وعلم طـلحة

---

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٤٧٥ .

(٢) روى ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنّه قال يوماً لنسائه وهنّ جميعاً عـنده : « أيّـتكنّ صـاحبة الجمل الأدْبب تنبحها كلاب الحوأب ، يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة كلّهم في النار ، وتَنْجُو بعد ما كادت » ، جاء ذلك في : شرح النهج ٢ : ٤٩٧ ، وهذا الحـديث مـن أعـلام النبوّة ، ومن إخباره بالمغيبات .

والزبير بإصرارها على الرجوع إلى يثرب فأقبلا يلهثان ؛ لأنّها متى انفصلت عن الجيش تفرّق وذهبت آمالهما أدراج الرياح ، فتكلّما معها في الأمر فامتنعت من إجابتهما ، فجاءوا لها بشهود اشتروا ضمائرهم فشهدوا عندها أنّه ليس بماء الحوأب ، وهي أوّل شهادة زور تقام في الإسلام[١] ، وبهذه الشهادة الكاذبة استطاعوا أن يحرفوها عمّا صمّمت عليه .

في ربوع البصرة :

وأشرفت قافلة عائشة على البصرة ، فلمّا علم ذلك عثمان بن حنيف والي البصرة أرسل إلى عائشة أبا الأسود الدؤلي ليسألها عن قدومها ، ولمّا التقى بها قال :

ما أقدمك يا أُمّ المؤمنين ؟

أطلب بدم عثمان .

فردّ عليها من منطقه الفياض قائلاً :

ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد .

صدقت ولكنّهم مع عليّ بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم .

فردّ عليها أبو الأسود ببالغ الحجّة قائلاً :

ما أنت من السوط والسيف ، إنّما أنت حبيبة رسول الله ﷺ ، أمرك أن تقرّي في بيتك وتتلي كتاب ربّك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهنّ الطلب بالدماء ، وأنّ عليّاً لأوْلى منك وأمسّ رحماً ، فإنّهما إبنا عبد مناف .

ولم تقنع عائشة وأصرّت على محاربة الإمام ، وقالت لأبي الأسود :

لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه ، أفتظنّ أبا الأسود أنّ أحداً يقدم

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٤٢ . تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٨١ .

على قتالي .

فأجابها أبو الأسود :

أما والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد .

ثمّ تركها وانصرف صوب الزبير فقابله ، وذكّره بماضي جهاده وولائه للإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام قائلاً له :

يا أبا عبدالله ، عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبوبكر آخذ بقائم سيفك تقول : لا أحد أوْلى بهذا الأمر من ابن أبي طالب ، وأين هذا المقام من ذاك ؟

فأجابه الزبير :

نطلب بدم عثمان .

ونظر إليه أبو الأسود فأجابه بسخرية :

أنت وصاحبك ولّيتماه فيما بلغنا .

ورأى الزبير في كلام أبي الأسود النصح والسداد فانصاع لقوله ، إلّا أنّه طلب منه مواجهة طلحة وعرض الأمر عليه ، فمضى أبو الأسود مسرعاً نحو طلحة وكلّمه في الأمر فلم يجد منه أيّة استجابة ، وقفل أبو الأسود راجعاً إلى ابن حنيف فأخبره بنيّة القوم وإصرارهم على الحرب .

وعقد الفريقان هدنة مؤقتة ، وكتبا في ذلك وثيقة وقّعها كلا الطرفين على أن لا يفتح أحدهما على الآخر باب الحرب ، حتى يستبين في ذلك رأي الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام .

مظاهرة نسوية لتأييد عائشة :

وقامت بعض السيّدات من النساء بمظاهرة لتأييد عائشة وهن يجبن في شوارع يثرب ويضربن بالدفوف ، وقد رفعن أصواتهن بهذا النشيد :

ما الخبر ، ما الخبر ، إن عليّاً كالأشقر ، إن تقدم عقر ، وإن تأخر نحر . . .

ولمّا سمعت ذلك أُمّ المؤمنين السيّدة أُمّ سلمة ، خرجت هي وحفيدة الرسول العقيلة زينب ؏ تحفّ بها إماؤها فجعلت توبخهنّ ، وقالت لهنّ : إن تظاهرتن على أبي ، فقد تظاهرتن من قبل على جدّي رسول الله ﷺ ، فاستحيت النساء وتفرّقن ، وعادت السيّدة زينب ؏ إلى بيتها [١] .

نقض الاتفاق :

وعمل حزب عائشة إلى نقض الهدنة ، فقد هجموا على والي البصرة ابن حنيف ، وكان مقيماً في دار الإمارة ، فاعتقلوه ونكّلوا به ، فنتفوا شعر رأسه ولحيته وحاجبيه ، ونهبوا ما في بيت المال ، وثارت الفتنة في البصرة ، فقد قتلوا خزّان بيت المال وبعض الشرطة ، ووقعت معركة رهيبة بين أنصار الإمام وحزب عائشة ، وقد حملوها على جمل ، وسمّيت تلك الوقعة بيوم الجمل الأصغر ، وقد استشهد فيها جمع من المسلمين [٢] .

زحف الإمام للبصرة :

وزحف الإمام أمير المؤمنين ؏ بجيوشه إلى البصرة للقضاء على هذا الجيب المتمرّد الذي ينذر بانتشار التمرّد وسقوط الحكم ، وحينما انتهى إلى البصرة بعث عبدالله بن عباس وزيد بن صوحان إلى عائشة وطلحة والزبير يدعوهم إلى السلم وعدم إراقة الدماء ، فلم يستجيبوا لدعوته وأصرّوا على التمرّد والبغي ومناجزة الإمام ، وأرسل الإمام فتىً نبيلاً وأمره أن يحمل كتاب الله تعالى ويدعوهم إلى تحكيمه ، فأخذ الفتى الكتاب العزيز وجعل يلوّح به أمام عسكر عائشة وهو يدعوهم إلى العمل بما فيه ويدعوهم إلى السلم والوئام ، فحملوا عليه فقطعوا

---

(١) زينب الكبرى : ٢٥ .

(٢) عرضنا لهذه الأحداث بصورة مفصّلة في كتابنا حياة الإمام الحسن ؏ .

يمينه فأخذ المصحف بيساره ، وجعل يدعوهم إلى السلم والعمل بما في الكتاب ، فحملوا عليه فقطعوا يساره ، فأخذ المصحف بأسنانه ، وجعل يناديهم:

الله في دمائنا ودمائكم .

فانثالوا عليه يرشقونه بسهامهم حتى سقط إلى الأرض جثة هامدة ، ولم تجد معهم هذه الدعوة الكريمة وأصرّوا على الحرب .

إعلان الحرب:

ولم تُجب مع عائشة وحزبها دعوة الإمام إلى السلم وعدم إراقة الدماء ، فقد أصرّوا على الحرب والتمرّد على الحق ، فاضطرّ الإمام إلى مناجزتهم ، فعبّأ جنوده ، ونظرت إليه عائشة وهو يجول بين الصفوف فقالت : انظروا إليه كأن فعله فعل رسول الله ﷺ يوم بدر ، أما والله ما ينتظر بكم إلّا زوال الشمس .

ومع علمها بأنّ فعله كفعل رسول الله ﷺ كيف ساغ لها أن تحاربه ، وخاطبها الإمام فقال لها :

« يا عائشة ، عمّا قليل ليصبحن نادمين »[1] .

وأعطى الإمام خطته العسكرية لجنوده ، فقال لهم :

« أيها الناس . . إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً ، ولا تتّبعوا مولّياً ، ولا تطلبوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثّلوا بقتيل ، ولا تهتكوا ستراً ، ولا تقربوا من أموالهم إلّا ما تجدونه في معسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله . . » .

ومثّلت هذه الوصية الشرف والرأفة والرحمة ، كما وضعت الأُصول الفقهية في حرب المسلمين بعضهم مع بعض ، كما أعلن ذلك بعض الفقهاء .

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه‌السلام ١ : ٤٤٧ .

واعتلت عائشة جملها المسمّى بعسكر وأخذت كفّاً من حصباء فرمت به أصحاب الإمام عليه السلام وقالت : شاهت الوجوه ، فأجابها رجل من شيعة الإمام : يا عائشة وما رميت إذ رميت ولكن الشيطان رمى .

وتولّت عائشة القيادة العامة للقوات المسلحة ، فكانت هي التي تصدر الأوامر للجيش .

وبدأ القتال كأشدّه ، وقد حمل الإمام على معسكر عائشة وقد رفع العلم بيسراه ، وشهر بيمينه ذا الفقار الذي طالما كشف به الكرب عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

واشتدّ القتال ، وقد بان الانكسار في جيش عائشة وقد قتل طلحة والزبير والكثيرون من قادة عسكر عائشة ، وأخذت عائشة تبثّ في نفوس عسكرها روح التضحية والنضال ، وقد دافعوا عنها بحماس بالغ ، وقد شاعت القتلى بين الفريقين .

عقر الجمل :

وأحاط أصحاب عائشة بجمل أمّهم ، فدعا الإمام عمّار بن ياسر ومالك الأشتر ، وأمرهما بعقر الجمل قائلاً :

« اذهبا فاعقرا هذا الجمل ، فإن الحرب لا يخمد ضرامها ما دام حياً ، فإنّهم قد اتّخذوه قبلة لهم . . » .

وانطلق الأشتر وعمار ومعهما فتية من مراد ، فوثب فتى يعرف بمعمر بن عبدالله إلى الجمل فضربه على عرقوبه فهوى إلى الأرض وله صوت منكر لم يُسمع مثله ، وتفرّق أصحاب عائشة حينما هوى الصنم الذي قدّموا له آلاف القتلى ، وأمر الإمام عليه السلام بحرقه وذرّ رماده في الهواء لئلا تبقى منه بقية يفتتن بها الغوغاء ، وبعدما فرغ من ذلك قال :

« لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل . . » .

ثم مدّ بصره نحو الرماد الذي تناهبته الريح وتلا قوله تعالى : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[1] .

وانتهت بذلك حرب الجمل التي أثارتها الأحقاد والأطماع ، وقد أشاعت بين المسلمين الضغائن والفتن ، وألقتهم في شرّ عظيم .

العفو العام :

وأصدر الإمام أوامره بالعفو العام عن جميع أعدائه وخصومه ، وطلبت عائشة من الإمام أن يعفو عن ابن أختها عبدالله بن الزبير وهو من ألدّ أعدائه فعفا عنه ، وكذلك عفا عن مروان بن الحكم ، وقد توسط في أمره الحسن والحسين عليهما السلام ، وآمن الأسود والأحمر ـ على حد تعبير اليعقوبي ـ ، ولم ينكّل بأيّ أحد من خصومه وأعدائه .

تسريح عائشة :

وسرّح الإمام عليه السلام عائشة ، وردّها إلى يثرب ، ولم يعرض لها بأي مكروه أو أذى ، وقد غادرت البصرة ونشرت في ربوعها الحزن والحداد والثكل ، وتصدّعت الوحدة بين المسلمين ، وشاعت بينهم الكراهية والبغضاء .

وعلى أي حال فقد وعت سيدة النساء زينب عليها السلام هذه الأحداث وعرفت ما تحمله الأُسر القرشية من العداء العارم والبغض الشديد لأبيها عليه السلام ، وأنّها قد شنّت الحرب عليه كما شنّته على أخيه رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل .

تمرّد معاوية :

ومهّدت عائشة الطريق إلى معاوية ، وفتحت له أبواب المعارضة لحكومة الإمام

(١) طه : ٩٧ .

أمير المؤمنين عليه السلام ، فلولاها لما تمكّن ابن هند من مناجزة الإمام ورفضه لبيعته .

وقد اتّخذ معاوية دم عثمان ورقة رابحة للمطالبة بدمه ، ومن المؤكّد زيف هذه الدعوى وعدم واقعيتها ، فقد استنجد به عثمان حينما حوصر وطلب منه أن يسعفه بقوة عسكرية لرفع الحصار عنه فلم يستجب له حتى أجهز عليه الثوار . إنّ الذي دعا معاوية إلى التمرّد على حكومة الإمام هو ما يعلمه من سيرة الإمام وسياسته الهادفة إلى إقامة الحق وتدمير الباطل ، فالإمام لا يُبقي معاوية في جهاز الحكم لحظة واحدة ، ويجرّده من جميع أمواله التي اختلسها من بيت مال المسلمين ، ويحاسبه حساباً عسيراً على جميع تصرّفاته المجافية لروح الإسلام من لبس الحرير والديباج واستعمال أواني الذهب والفضة والإسراف الفظيع في بناء القصور ، ولا يقرّ شرعية دعم عمر له وثنائه عليه ومبالغته في تأييده ، فهو الذي لم يحاسبه على أعماله التي تصادمت مع تعاليم الإسلام وقال فيه : إنّه كسرى العرب ، واعتبر الإمام ذلك تعدٍّ على سياسة العدل التي تبنّاها في جميع مراحل حكمه وحياته .

وعلى أيّ حال ، فقد بعث الإمام إلى معاوية جرير بن عبدالله البجلي ، وزوّده برسالة يدعوه فيها إلى مبايعته والدخول في طاعته ، إلّا أن معاوية أصرّ على غيّه ورفض الاستجابة لدعوة الحقّ والوئام ، فقد توفّرت عنده القوة العسكرية التي يستطيع بها على محاربة الإمام .

زحف معاوية لصفين :

وبعدما توفّرت لمعاوية الإمكانيات العسكرية والقوى المكثفة زحف بها إلى صفين وأقام فيها ، وكان أوّل عمل قام به احتلال الفرات واعتبر ذلك أوّل الفتح ؛ لأنّه حبس الماء على عدوّه ، وظلّت جيوشه مقيمة هناك تصلح أمرها وتنظّم قواها لتستعدّ إلى حرب وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه .

مسير الإمام إلى صفين :

وتهيّأ الإمام ﷺ للخروج إلى صفين ، وأمر الحارث بن الأعور أن ينادي في الناس بالخروج إلى معسكرهم في النخيلة فعجّت الكوفة بالنفار ، وخرج الإمام أمير المؤمنين ﷺ تحفّ به البقية الخيرة من صحابة رسول الله ﷺ وفي طليعتهم الصحابي العظيم عمّار بن ياسر .

ولزمت جيوش الإمام في زحفها السريع الفرات حتى انتهت إلى صفين ، فلم يجدوا شريعة يستقون منها الماء إلّا وعليها الحرس الكثير وهم يمانعونهم أشد الممانعة من الوصول إليه ، فأخبروا الإمام ﷺ فدعا صعصعة بن صوحان وأمره بمقابلة معاوية ليسمح لجنوده بورود الماء ، وسار إليه صعصعة وعرض عليه مقالة الإمام ، فامتنع من إجابته واعتبر ذلك أوّل الفتح .

وحملت جيوش الإمام حتى احتلت الفرات وانهزمت جيوش معاوية ، وطلب أصحاب الإمام منه أن يمنع الماء عن عسكر معاوية فأبى ﷺ ، وأبى أن يكيل لهم الصاع بالصاع ، وقابلهم مقابلة المحسن الكريم إلى أعدائه وخصومه .

الحـرب :

وأوفد الإمام إلى معاوية رسل السلام رجاءً في الصلح وحقن الدماء ، فردّهم بعنف وأعلمهم أنّه مصمّم على الحرب ، ورجعت كتائب السلام إلى الإمام ، وعرّفته برفض معاوية لدعوته وإصراره على الحرب .

ولم يجد الإمام بدّاً من الحرب ، فأصدر تعاليمه لعموم جيشه بعدم قتل المدبر ، وعدم الإجهاز على الجريح ، وعدم المُثلة بأي قتيل منهم ، وعدم أخذ أموالهم إلّا ما وجد في معسكرهم ، وغير ذلك من صنوف الشرف والرحمة التي لم يعهد لها نظير في عالم الحروب .

وبدت الحرب بين جيش الإمام وجيش معاوية فكانت كتائب من عسكر

الإمام تخرج إلى فرق من أهل الشام فيقتتل الفريقان نهاراً كاملاً أو طرفاً منه ، ولم يرغب الإمام أن تقع حرب عامة بين الفريقين رجاء أن يجيب معاوية إلى الصلح .

وخرج الزعيم الكبير مالك الأشتر يتأمّل في رايات أهل الشام فإذا هي رايات المشركين التي خرجت لحرب رسول الله ﷺ فراح يقول لأصحابه :

أكثر ما معكم رايات كانت مع رسول الله ﷺ ، ومع معاوية رايات كانت مع المشركين على عهد رسول الله ﷺ ، فما يشكّ في قتال هؤلاء إلّا ميّت القلب .

وخطب الصحابي العظيم عمّار بن ياسر فجعل يبيّن للمسلمين واقع معاوية وأنّه جاهلي لا إيمان له ، وأنّه معاد لله ورسوله .

وعلى أي حال فلم تقع حرب عامة بين الفريقين ، وقد سئم الجيش العراقي هذه الحرب وآثر العافية ، كما سئم ذلك جيش أهل الشام .

الحرب العامة :

ولمّا رأى الإمام أنّه لا أمل في الإصلاح وجمع الكلمة عبّأ أصحابه وتهيّأ للحرب العامة ، وفعل معاوية مثل ذلك ، وبدأ الهجوم العام ، وبذلك فقد استعرت نار الحرب واشتدّ أوارها ، وقد خيّم الذعر والفزع على كلا الجيشين ، وقد انكشفت ميمنة الإمام وتضعضع قلب جيشه إلّا أنصار ربيعة قد ثبتت في الميدان ، وأخذت على عاتقها أن تقوم بحماية الإمام ونصرة الحقّ .

وقد استشهد في المعركة بطل الإسلام المجاهد العظيم عمّار بن ياسر ، وقد حزن عليه الإمام كأشد ما يكون الحزن ، وكذلك استشهد غيره من أعلام الإسلام وكان لفقدهم أثر كبير في انهيار الجيش العراقي .

هزيمة معاوية :

وبدا الانكسار في جيش ابن هند وكاد أصحابه يبلغون فسطاطه ، وهمّ بالفرار إلّا أنّه

تذكر قول ابن الإطنابة :

أبت لي عفتي وحياء نفسي وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلّما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فردّه هذا الشعر إلى الثبات وعدم الهزيمة كما كان يتحدّث بذلك أيام العافية .

مكيدة رفع المصاحف :

ولم تكن مكيدة رفع المصاحف وليدة الساعة ولم تأت عفواً ، وإنّما كانت نتيجة مؤامرة سرّية بين عمرو بن العاص وبعض قادة الجيش العراقي وعلى رأسهم الخائن العميل الأشعث بن قيس .

لقد رفع أهل الشام المصاحف على أطراف الرماح وهم يدعون الجيش العراقي إلى تحكيم كتاب الله ، فاندفعت كتائب من عسكر الإمام وهم يهتفون :

لقد أعطاك معاوية الحقّ ، دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه .

لقد استجاب لهذه الدعوة الكاذبة السذّج والسائمون من الحرب والطامعون في الحكم وعملاء الحكم الأُموي ، وجعل الأشعث بن قيس يشتدّ كالكلب رافعاً صوته ليسمع الجيش :

ما أرى الناس إلّا قد رضوا ، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد .

وأخذ الأشعث يلحّ على الإمام وهو يمتنع من إجابته وكثرة إلحاحه ، وقد استجابت له فرق من الجيش فلم يجد الإمام بُدّاً من إجابته ، فمضى مسرعاً نحو معاوية فقال له :

« لأيّ شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ . . » .

والأشعث يعلم لِمَ رفعوا المصاحف ولاذوا بها فأجابه معاوية :

لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عزّ وجلّ في كتابه ، تبعثون منكم رجلاً ترضون به ونبعث منّا رجلاً ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ، ثم نتّبع ما اتّفقنا عليه .

وهل ابن هند يؤمن بكتاب الله ويتّبع ما حكم به ؟! أو ليس خروجه على السلطة الشرعية مجافية لتعاليم القرآن .

وعلى أي حال فقد انبرى الخائن الأشعث يصدّق مقالة معاوية قائلاً :

هذا هو الحقّ .

وانبرى الإمام فزيّف دعوة التحكيم ، وعرّف الجماهير أنها خدعة ومكيدة ، وأنّ معاوية وحزبه لا يؤمنون بالقرآن ، وأنّهم على ضلالهم القديم ، وأصرّ جيش الإمام على الاستجابة لدعوة معاوية وهدّدوه بالقتل إن رفض ما أرادوه ، فاستجاب ﷺ مرغماً مكرهاً على ذلك ، وقد أشرفت بعض قطعات جيشه بقيادة الزعيم الكبير مالك الأشتر على الفتح ، ولم يبق بينها وبين القبض على معاوية إلّا مقدار حلبة شاة ، فطلب منه الإمام في تلك الساعة الحرجة أن يسحب الجيش ويوقف القتال ، فلم يستجب أوّلاً إلى ذلك ، فأمره الإمام ثانياً بالانسحاب ؛ لأنّ جيشه قد أحاط به وأعلنوا العصيان وهدّدوه بالقتل ، فاستجاب الأشتر وانسحب عن ميدان القتال .

وعلى أي حال فقد أوقف القتال ، وكان ذلك فوزاً ساحقاً لمعاوية ، فقد سلم من الخطر المحدق به ، ومُني جيش الإمام بالتمرّد والعصيان ، وشاعت في جميع قطعاته التفرقة والخلاف .

انتخاب الأشعري :

وأصرّ المتمرّدون على انتخاب الأشعري ليكون ممثلاً للجيش العراقي ، فرفض

الإمام ذلك ورشّح عبدالله بن عباس أو مالك الأشتر ، فلم يستجيبوا له وأرغموه ثانياً على انتخابه ، فخلّى بينهم وبين رغباتهم ، وقد ذابت نفسه أسى وحسرات على ذلك ، فقد أيقن بانتهاء حكومته وفوز معاوية بالحكم .

وانتخب الشاميون عمرو بن العاص ممثّلاً لهم ، وهو أدهى سياسي في ذلك العصر ، وبذلك فقد عقدت هدنة مؤقتة راح فيها معاوية يبني جيشه ويصلح شؤونه ، وأمّا جيش الإمام فقد مُني بالتفكّك والانحلال والتخاذل ، وانتشرت في جميع قطعاته الفكرة الهدامة وهي فكرة الخوارج كما سنتحدّث عن ذلك .

اجتماع الحكمين :

وأوفد معاوية إلى الإمام رسله يستنجزه الوفاء بالتحكيم ، وإنّما طلب منه ذلك لعلمه بما أُصيب به جيش الإمام من التخاذل والفتن والانحلال ، وأجابه الإمام إلى ذلك فأوفد أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانئ الحارثي وهو من أجلّ أصحاب الإمام ، كما كان معهم عبدالله بن عباس حبر الأُمّة ، ومعهم قاضي التحكيم الخامل الغبي أبو موسى الأشعري ، فأرشاه ابن العاص بالولائم وقابله بمزيد من الحفاوة والتكريم ليجعله طوع إرادته ، وقد اتّفق معه على أن يعزل كلّاً صاحبه ، ويرشّحا عبدالله بن عمر ، وقدّم ابن العاص الأشعري فاعتلى المنبر ، فخلع عليّاً عن منصبه وكذلك خلع معاوية ورشّح ابن عمر ، وقام بعده ابن العاص فأقرّ صاحبه وخلع عليّاً .

ولمّا أعلن ابن العاص خلعه لعليّ وإقامته لمعاوية انطلق صوبه الأشعري فقال له :

ما لك عليك لعنة الله ما أنت إلّا كمثل الكلب تلهث .

فصاح ابن العاص :

لكنّك مثل الحمار يحمل أسفاراً .

نعم هما كلب وحمار ، وهرب الأشعري إلى مكة يصحب معه الخزي والعار

بعدما أحدث الفتنة والانشقاق بين جيش الإمام ، وقد أكثر شعراء ذلك العصر في ذمّه يقول فيه أيمن بن خزيم الأسدي :

لو كان للقوم رأي يعصمون به — من الضلال رموكم بابن عباس

لله درّ أبيه أيما رجل — ما مثله لفصال الخطب في الناس

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن — لم يدر ما ضرب أخماس بأسداس

إن يخل عمرو به يقذفه في لجج — يهوي به النجم تيساً بين أتياس

أبلغ لديك علياً غير عاتبه — قول امرىء لا يرى بالحق من باس

ما الأشعري بمأمون أبا حسن — فاعلم هديت وليس العجز كالراس

فاصدم بصاحبك الأدنى زعيمهم — إن ابن عمك عباس هو الآسى

لقد امتحن الإمام كأشدّ وأقسى ما يكون الامتحان بهؤلاء الأوغاد الذين وقفوا أمام الإصلاح الاجتماعي ، ومكّنوا الظالمين والمنحرفين من الاستبداد بأمور المسلمين .

فتنة الخوارج :

وتمرّد الخوارج على الإمام وألزموه بأمر التحكيم ، وهم الذين أرغموه على ذلك وهدّدوه بالقتل إن لم يوقف القتال مع معاوية ، وأخذوا يعيثون في الأرض فساداً ، فقد رحلوا عن الكوفة وعسكروا في النهروان ، فاجتاز عليهم الصحابي الجليل عبدالله بن خبّاب بن الأرت فأحاطوا به قائلين :

من أنت ؟

رجل مؤمن .

ما تقول في عليّ بن أبي طالب .

إنّه أمير المؤمنين ، وأوّل المسلمين إيماناً بالله ورسوله .

ما اسمك ؟

عبدالله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله .

أفزعناك ؟

نعم .

لا روع عليك .

حدّثنا عن أبيك بحديث سمعه عن رسول الله ﷺ لعلّ الله أن ينفعنا به ؟

نعم ، حدّثني عن رسول الله ﷺ أنّه قال : « ستكون فتنة بعدي يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسي مؤمناً ، ويصبح كافراً » .

فهتفوا جميعاً :

لهذا الحديث سألناك والله لنقتلنّك قتلة ما قتلنا بمثلها أحداً .

وعمدوا مصرّين على الغيّ والعدوان فأوثقوه كتافاً وأقبلوا به وبامرأته ، وكانت حبلى قد أشرفت على الولادة ، فأنزلوهما تحت نخل فسقطت رطبة منها فبادر بعضهم إليها فوضعها في فيه ، فأقبل إليه بعضهم منكراً عليه قائلاً :

بغير حلّ أكلتها .

فألقاها بالوقت من فيه ، واخترط بعضهم سيفه فضرب به خنزيراً لأهل الذمّة فقتله ، فصاح به بعضهم :

إنّ هذا من الفساد في الأرض .

فبادر الرجل إلى الذمّي فأرضاه ، ولمّا نظر عبدالله بن خباب احتياط هؤلاء في هذه الأمور سكن روعه وقال لهم :

لئن كنتم صادقين فيما أرى ، ما عليّ منكم بأس ، ووالله ما أحدثت حدثاً في الإسلام ، وإنّي لمؤمن وقد آمنتموني وقلتم لا روع عليك .

فلم يعن هؤلاء الأخباث الذين هم صفحة خزي وعار على البشرية ، فجاءوا به وبامرأته فأضجعوه على شفير النهر ووضعوه على ذلك الخنزير الذي قتلوه ، ثمّ ذبحوه ، وأقبلوا على امرأته ، وهي ترتعد من الخوف فقالت لهم مسترحمة :

إنّما أنا امرأة ، أما تتّقون الله .

فلم يعنوا باسترحامها وأقبلوا عليها كالكلاب فقتلوها ، وبقروا بطنها ، وانعطفوا على ثلاث نسوة فقتلوهنّ ، وفيهنّ أمّ سنان الصيداوية ، وكانت قد صحبت النبي ﷺ ، ولم يقف شرّ هؤلاء الأرجاس عند هذا الحدّ ، وإنّما أخذوا يذيعون الذعر وينشرون القتل والفساد في الأرض .

واقعة النهروان :

وبعدما أعلن الخوارج تمرّدهم على حكومة الإمام ، ورفعوا شعارهم « لا حكم إلّا لله » ولكنّه لم يَعد في جميع تصرفاتهم وشؤونهم ظلاً وواقعاً لهذا الشعار ، فقد كان شعارهم الحقيقي لا حكم إلّا للسيف والفساد .

ولمّا أراد الإمام الخروج إلى محاربة معاوية ، وعبّأ أصحابه وجنوده لذلك ، أشار عليه بعض أصحابه بمناجزة الخوارج ، فإنّ خطرهم أعظم من خطر معاوية ، وإنّهم إذا نزحوا من الكوفة سوف يُحدثون القتل والدمار فيها ، فاستصوب الإمام رأيهم ، وتحرّكت قوات الإمام لقتالهم ، وقبل أن تندلع نار الحرب ، وجّه الإمام إليهم الحارث بن مرّة يطلب منهم قتلة عبدالله بن خباب ليقتصّ منهم فأجابوا جميعاً :

إنّا كلّنا قتلناهم ، وكلّنا مستحلّ لدمائكم ودمائهم .

وأقبل الإمام عليه السلام بنفسه ، فوجّه لهم خطاباً رائعاً يدعوهم فيه إلى الطاعة ورفض التمرّد ، فلم يفهموا خطاب الإمام ونصيحته وطلبوا منه أن يشهد على نفسه بالكفر ويتوب إلى الله تعالى على قبوله للتحكيم ، فامتنع الإمام من إجابتهم ، فإنّه لم يقترف أي ذنب في أمر التحكيم وإنّما هم أرغموه على ذلك .

ولمّا يئس الإمام من إرجاعهم إلى الحق عبّأ جنوده لحربهم ، وفعل الخوارج مثل ذلك ، وهتف بعضهم :

« هل من رائح إلى الجنة . . » .

فأجابوه جميعاً الرواح إلى الجنة ، وهم يهتفون بشعارهم « لا حكم إلّا لله » ، وحملوا حملة منكرة على جيش الإمام ، وما هي إلّا ساعة حتى قتلوا عن آخرهم ولم يفلت منهم إلّا تسعة ، وبذلك فقد انتهت حرب النهروان ، وقد أعقبت هي وحرب صفين تمرّد الجيش العراقي ، فقد مُني بالتمرّد والانحلال والسئم من الحرب ، وأصبح الإمام يدعوهم فلا يستجيبون له ، كما فقد الإمام في هذين الحربين أعلام أصحابه وخيارهم الذين يعتمد على إخلاصهم وتفانيهم في الولاء له .

وعلى أي حال فقد رجع الجيش من النهروان إلى الكوفة ، وجبن عن ملقاة معاوية ، وأخذ الإمام يدعوهم إلى حربه فامتنعوا من إجابته .

أُفول دولة الحق :

وأفلت دولة الحقّ التي تبنّت حقوق الإنسان وقضاياه المصيرية ، وواكبت العدل الاجتماعي والعدل السياسي ، وأقامت صروح الحق ومعاقل الشرف والفضيلة لكل إنسان .

ولم يعهد الشرق في جميع مراحل تأريخه حكماً نزيهاً وعادلاً كحكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لم يخضع في جميع فتراته لأية عاطفة لا تتّصل بالحقّ ، فقد تجرّد حكمه عن كل نزعة يؤول أمرها إلى التراب . . وقد نقمت عليه كأشدّ ما يكون الانتقام الرأسمالية القرشية ، فقد خافت على مصالحها وخافت على أموالها التي استولت عليها بغير حقّ ، فوضعت الحواجز والسدود أمام مخططاته السياسية الهادفة إلى الإصلاح الشامل ، واتّهمته بالتآمر على قتل عثمان عميد الأُسرة الأُموية ، واتّخذت من قتله ورقة رابحة لفتح أبواب الحرب عليه ، فكانت حرب الجمل وصفين والنهروان ، وقد انهارت حكومة الإمام ، وبقي عليه السلام في أرض الكوفة يصعّد زفراته وآهاته ، وقد استفحل شرّ معاوية وقوي سلطانه واتّسع نفوذه ،

وزادت قواته العسكرية وتسلّحت بجميع المعدّات الحربية في ذلك العصر ، وأخذ معاوية يشنّ الغارات على معظم الأقاليم الإسلامية الخاضعة لحكم الإمام ، فكانت جيوشه تقتل وتنهب الأموال ، وذلك لإسقاط هيبة حكومة الإمام وأنّها لا تقدر على حماية الأمن العام للمواطنين ، وقد انتهت الغارات إلى الكوفة ، والإمام يدعو جيشه لحماية البلاد وصدّ العدوان الغادر على الناس فلم يستجيبوا له ، فقد خلدوا إلى الراحة وسئموا الحرب وشاعت في أوساطهم أوبئة الخوف من معاوية ، وأخذ الإمام الممتحن يناجي ربّه ويدعوه أن ينقذه من ذلك المجتمع الذي لم يعِ مبادئه وسياسته الهادفة إلى نشر العدل وإشاعة المساواة بين الناس .

وتوالت المحن الشاقة يتبع بعضها بعضاً على الإمام ، وكان من أشقّها عليه الغارات المتّصلة التي تشنّها قوات معاوية على أطراف البلاد الإسلامية ، وترويعها للنساء والأطفال والعُجّز ، والإمام مسؤول عن توفير الأمن لهم وحمايتهم من كلّ أذى أو مكروه ، ولكنّه لم يجد سبيلاً لذلك لأنّ جيشه قد تمرّد عليه ، وسرت فيه أوبئة الخوف وأفكار الخوارج ممّا جعلته أعصاباً رخوة لا حراك فيها ولا حياة ، وكان من بين الذين اعتنقوا مبادئ الخوارج الأثيم المجرم عبدالرحمن بن ملجم ، فنزح مع عصابة من الخوارج إلى مكة وعقدوا فيها مؤتمراً عرضوا فيه ما لاقاه حزبهم من القتل والتنكيل ، وما مُني به العالم الإسلامي من الفتن والخطوب ، وعزوا ذلك إلى الإمام ومعاوية وابن العاص فصمّموا على اغتيالهم فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم عليّ ابن أبي طالب ، وقال عمرو بن بكير التميمي : أنا أكفيكم عمرو بن العاص ، وضمن الحجاج بن عبدالله الصريمي اغتيال معاوية ، واتّفقوا على يوم معيّن وهو يوم الثامن عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة ، كما عيّنوا ساعة الاغتيال وهي ساعة خروجهم إلى صلاة الصبح ، وقفل ابن ملجم إلى الكوفة ، وهو يحمل معه الشرّ والشقاء لجميع سكان الأرض ، والتقى بقطام وكان هائماً في حبّها ، وكانت تعتنق فكرة الخوارج فقد قُتل أبوها وأخوها في واقعة النهروان ، وعرض عليها الزواج ،

فشرطت عليه مهراً وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد وقينة ، وقتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، واتّفقا على هذا المهر المشؤوم وفيه يقول الفرزدق :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب عليّ بالحسام المسمّم
فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلى ولا فتك إلّا دون فتك ابن ملجم[1]

ولمّا أطلّت ليلة الثامن عشر من شهر رمضان المبارك اضطرب الإمام ، وجعل يمشي في صحن الدار وهو محزون النفس خائر القوى ، وهو ينظر إلى الكواكب ويتأمّل فيها يزداد قلقه وهو يقول :

« ما كذبتُ ولا كُذّبت ، إنّها الليلة التي وعدت فيها » .

وصادفت تلك الليلة ليلة الجمعة ، وقد أحياها بالصلاة وتلاوة كتاب الله ، ولمّا عزم على الخروج إلى الجامع ليؤدي الصلاة صاحت في وجهه وزّ أُهديت إلى الإمام الحسن ، فتنبّأ عن وقوع الحادث العظيم قائلاً :

« لا حول ولا قوة إلّا بالله ، صوائح تتبعها نوائح »[2] .

وأقبل الإمام على الباب ليفتحه فعسر عليه ، لأنّها كانت من جذوع النخل لا من الساج فاقتلعها فانحلّ إزاره فشدّه وهو يقول :

اشدد حيازمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حلّ بناديكا[3]

وخرج الإمام فلمّا انتهى إلى بيت الله جعل على عادته يوقظ الناس لصلاة الصبح ، وشرع الإمام في أداء الصلاة ، فلمّا استوى من السجدة الأُولى هوى عليه

---

(١) مستدرك الحاكم ٣ : ١٤٣ .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٢٩١ .

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام ١ : ٥٥٧ .

الوغد الأثيم ابن ملجم بسيفه وهو يهتف بشعار الخوارج : « الحكم لله لا لك » .

وضرب الإمام على رأسه فقدّ جبهته الشريفة ، وانتهت الضربة القاسية إلى دماغه المقدّس الذي ما فكّر إلّا في إقامة العدل وتدمير الظلم وإسعاد البؤساء والفقراء .

ولمّا أحسّ الإمام بلذع السيف رفع صوته قائلاً :

« فزتُ وربِّ الكعبة . . » .

لقد فزت يا إمام المتقين ويعسوب الدين ، فأيّ فوز أعظم من فوزك ، لقد أقمت الإسلام بسيفك ، وجاهدت في سبيل الله كأعظم ما يكون الجهاد ، وحطّمت الشرك وأفكار الجاهلية وتقاليدها ، ورفعت كلمة الله مع ابن عمّك رسول الله ﷺ عالية في الأرض .

لقد فزت أيّها الإمام العظيم ، فأنت أوّل حاكم في دنيا الإسلام طلّقت الدنيا ثلاثاً فلم تغرّك مباهجها ، ولم تخدعك السلطة ، فلم تبن لك بيتاً ، ولم تدّخر لعيالك وأبنائك شيئاً من حطام الدنيا .

لقد فزت فقد كانت نهايتك المشرّفة في أقدس بيت من بيوت الله ، وفي أعظم شهر من شهور الله ، فبداية حياتك في الكعبة ونهايتها في هذا الجامع العظيم ، ولسانك يلهج بذكر الله .

ولمّا وقع الإمام صريعاً في محرابه هتف معرّفاً بقاتله قائلاً :

« قتلني ابن اليهودية عبدالرحمن بن ملجم فلا يفوتنّكم . . » .

وهرع الناس من كل جانب قد أذهلهم الخطب وأضناهم المصاب ، وبلغ بهم الحزن إلى قرار سحيق ، فوجدوا الإمام صريعاً في محرابه فأخذوا يندبونه بذوب أرواحهم ولم يستطع الإمام الصلاة بالناس ، فصلّى وهو جالس والدم ينزف منه ، وأمر ولده الإمام الحسن فصلّى بالناس ، وحُمل الإمام إلى منزله ، وأُلقي القبض على الوغد ابن ملجم فجيء به مخفوراً إلى الإمام عليه السلام فقال له بصوت خافت :

« لقد جئت شيئاً إدّاً ، وأمراً عظيماً ، ألم أشفق عليك وأُقدّمك على غيرك في العطاء فلماذا تجازيني بهذا الجزاء ؟ » .

والتفت الإمام إلى ولده الحسن فأوصاه بالبرّ والإحسان بابن ملجم قائلاً :

« يا بني ، ارفق بأسيرك وارحمه ، واشفق عليه . . » .

فبهر الحسن وقال :

« يا أبتاه ، قتلك هذا اللعين ، وفجعنا بك ، وأنت تأمرنا بالرفق به ! » .

فأجابه الإمام بما انطوت عليه نفسه من المُثل العليا قائلاً :

« يا بني ، نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، أطعمه ممّا تأكل ، واسقه ممّا تشرب ، فإن أنا مت فاقتصّ منه بأن تقتله ، ولا تمثّل بالرجل فإنّي سمعت جدّك رسول الله ﷺ يقول : إيّاكم والمُثلة ، ولو بالكلب العقور ، وإن أنا عشت فأعلم ما أفعله به ، وأنا أوْلى بالعفو ، فنحن أهل بيت لا نزداد على المذنب إلينا إلّا عفواً وكرماً . . » .

أيّ نفس ملائكية هذه النفس التي توصي بالبرّ والإحسان لقاتلها .

السيّدة أُمّ كلثوم مع ابن ملجم :

وبكت السيّدة أُمّ كلثوم وأخذت تندب أباها بأشجى ما تكون الندبة ، وأكبر الظنّ أنّها العقيلة زينب فقالت للباغي الأثيم ابن ملجم :

« يا عدو الله قتلت أمير المؤمنين . . » .

فردّ عليها الباغي الزنيم :

لم أقتل أمير المؤمنين ولكن قتلت أباك .

فردّت عليه :

« والله إنّي لأرجو أن لا يكون عليه بأس . . » .

فأجابها ابن ملجم بصلف وشماتة :

فلِمَ تبكين إذاً عليّ تبكين ، والله لقد أرهقت السيف ، ونفيت الخوف ، وخسئت الأجل ، وقطعت الأمل ، وضربته ضربة لو كانت بأهل عكاظ ـ وقيل : بربيعة أو مضر ـ لأتت عليهم ، والله لقد سممته شهراً فإن أخلفني فأبعده سيفاً وأسحقه[١] .

لك الويل أيّها الأثيم فقد عمدت لاغتيال أقدس إنسان بعد الرسول ﷺ ، أراد أن يقيم الحقّ ويوزّع خيرات الله في الأرض على المحرومين والمضطهدين ، لقد خسرت صفقتك وبئت بغضب الله وعذابه الدائم .

العقيلة مع أبيها :

وهرعت عقيلة بني هاشم السيّدة زينب عليها السلام إلى أبيها وهي تبكيه وتندبه ، وقد ذابت نفسها حزناً وألماً ، وطلبت منه أن يحدّثها بالحديث الذي سمعته من المرأة الصالحة امّ أيمن عن رسول الله ﷺ عمّا يجري عليها من الكوارث والخطوب ، ولم يكن عند الإمام عليه السلام قوّة على الكلام فقال لها :

« الحديث كما حدّثتك أمّ أيمن ، وكأنّي بك وبنساء أهلك سبايا بهذا البلد ، أذلّاء خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس ، فصبراً صبراً ، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما لله على ظهر الأرض يومئذ وليّ غيركم وغير محبّيكم وشيعتكم ، ولقد قال لنا رسول الله ﷺ حين أخبرنا بهذا الخبر : إن إبليس لعنه الله في ذلك اليوم ـ أي يوم قتل الحسين ـ يطير فرحاً فيجول الأرض كلّها بشياطينه وعفاريته ، فيقول : يا معاشر الشياطين ، قد أدركنا من ذرية آدم الطلبة ، وبلغنا في هلاكهم الغاية ، وأورثناهم النار ، ألا من اعتصم بهذه العصابة فاجعلوا شغلكم بتشكيك الناس فيهم وحملهم على عداوتهم ، وإغرائهم بهم وأوليائهم ، حتى تستحكم ضلالة الخلق

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٢١٦ ، القسم الأوّل .

وكفرهم ، ولا ينجو منهم ناج ، ولقد صدق عليهم إبليس وهو كذوب ، أنّه لا ينفع مع عداوتكم عمل صالح ، ولا يضرّ مع محبتكم وموالاتكم ذنب غير الكبائر »[١] .

وصاياه:

وجعل الإمام عليه السلام وهو في الساعات الأخيرة من حياته يوصي أبناءه وفي طليعتهم سيّدا شباب أهل الجنة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام بمكارم الأخلاق والزهد في الدنيا ، ومن بنود وصيّته هذه الوصايا الخالدة ، قال عليه السلام :

« أُوصيكما بتقوى الله ، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء زوي عنكما ، وقولا للحقّ ، واعملا للأجر ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً .

أُوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم ، وصلاح ذات بينكم ، فإنّي سمعت جدكما صلى الله عليه وآله يقول : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ، الله الله في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم[٢] ، ولا يضيعوا بحضرتكم ، الله الله في جيرانكم فإنّهم وصيّة نبيّكم ، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنّه سيورثهم ، والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم ، الله الله في الصلاة فإنّها عمود دينكم ، الله الله في بيت ربّكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا ـ أي لم ينظر إليكم بالكرامة ـ ، الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله ، وعليكم بالتواصل والتباذل[٣] ، وإيّاكم والتدابر والتقاطع ، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولّى عليكم شراركم ، ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم » .

ثم وجّه وصيته إلى آله وذويه قائلاً :

---

(١) كامل الزيارات : ٢٦٦ .

(٢) لا تغبوا أفواههم : أي لا تقطعوا صلتكم عنهن ، وصلوا أفواههم بالطعام دوماً .

(٣) التباذل : العطاء والصلة .

« يا بني عبدالمطلب ، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً تقولون : قتل أميرالمؤمنين ، قتل أمير المؤمنين[(١)] .

ألا لا تقتلن بي إلّا قاتلي ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يُمثل بالرجل ، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : إيّاكم والمُثلة ولو بالكلب العقور . . »[(٢)] .

وحفلت هذه الوصية بالقيم الخالدة التي هي من أروع ما خلفه الأنبياء والمصلحون لأممهم وشعوبهم .

إقامة الحسن من بعده :

وأقام الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام خليفة على المسلمين من بعده ولده الأكبر سبط رسول الله ﷺ الإمام الحسن عليه‌السلام ، وأجمعت الشيعة على ذلك ، وذهب بعض أهل السنة إلى أن الإمام عليه‌السلام لم يستخلف أحداً من بعده ، مستدلين على ذلك بما رواه شعيب بن ميمون الواسطي أنّه قيل لعليّ : ألا تستخلف ؟ فقال : « إن يرد الله بالأُمّة خيراً يجمعهم على خيرهم » ، وهذه الرواية من موضوعات شعيب ومن مناكيره ، كما نصّ على ذلك ابن حجر[(٣)] .

إنّ الإمام الحسن عليه‌السلام هو أفضل إنسان في المجتمع الإسلامي ، فهو سيّد شباب أهل الجنة ، وإمام إن قام أو قعد ـ على حد تعبير رسول الله ﷺ ـ ، وقد توفرت فيه جميع الصفات الكريمة والنزعات الرفيعة فكيف لا يرشّحه الإمام لهذا المنصب الخطير ومن هو أحق به منه .

---

(١) يشير بذلك إلى مصرع عثمان الذي اتّخذ الأُمويّون دمّه ورقة رابحة في سبيل أطماعهم السياسية .

(٢) نهج البلاغة ٣ : ٨٥ .

(٣) تهذيب التهذيب ٤ : ٣٥٧ .

الوصية الأخيرة للإمام:

أمّا الوصية الأخيرة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقد روتها عقيلة بني هاشم السيّدة زينب عليها السلام قالت: «كان آخر عهد أبي إلى أخوي ـ الحسن والحسين عليهما السلام ـ أنّه قال لهما: يا بني، إذا أنا مت فغسّلاني، ثم نشّفاني بالبردة التي نُشّف بها رسول الله صلى الله عليه وآله وفاطمة عليها السلام، وحنّطاني وسجّياني على سريري، ثمّ انظروا حتى إذا ارتفع لكما مقدم السرير فاحملا مؤخره»[1].

إلى جنة المأوى:

ولمّا أدلى الإمام عليه السلام بوصاياه أخذ يعاني آلام الموت وهو يتلو آيات الذكر الحكيم ويكثر من الدعاء والاستغفار، ولمّا دنا منه الأجل المحتوم كان آخر ما نطق به: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[2]، ثم فاضت روحه الزكية إلى جنة المأوى، لقد ارتفع ذلك اللطف الإلهي الذي أضاء الدنيا بعدله وعمله وكماله، فما أظلت سماء الدنيا قطّ أفضل ولا أسمى منه ما عدا أخاه وابن عمّه رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد مادت أركان العدل، وانطمست معالم الحق، ومات أبو الغرباء والبؤساء.

سيّدي أبا الحسن:

لقد مضيت إلى عالم الخلود، وأنت مكدود مجهود، قد جُهل حقك، وأُبعدت عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد تظافرت الأُسر القرشية على حربك، ووضعت الحواجز والسدود أمام مخططاتك الإصلاحية، كما فعلت مثل ذلك مع ابن عمّك رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

---

(١) زينب الكبرى: ٣٨.

(٢) الصافّات: ٦١.

تجهيزه ودفنه:

وقام الإمام الحسن مع بقية إخوانه بتجهيز أبيه ، فغسّلوا الجسد الطاهر وأدرجوه في أكفانه ، وصلّوا عليه ، وفي الهزيع الأخير من الليل حملوا الجثمان المقدّس إلى مقرّه الأخير ، وكانت معهم العقيلة زينب[1] وهي تذرف الدموع ، وقد نخب الحزن فؤادها ، ودفنوا الجثمان المعظّم في النجف الأشرف حيث مقرّه الآن كعبة للوافدين وجامعة من أهم الجامعات في الإسلام .

لقد شاهدت السيّدة زينب الكوارث والخطوب التي أحاطت بأبيها فملئت قلبها الزاكي أسى وحزناً ، وعرفتها بما تكنّه قريش من الحقد والحسد لأبيها ، وسائر أبناء الأسرة النبوية .

عهد الإمام الحسن:

وفي صبيحة اليوم الذي وارى فيه الإمام الحسن عليه السلام جثمان أبيه انبرى إلى جامع الكوفة يحفّ به أخوته وسائر بني هاشم ، وقد اكتظّ الجامع بمعظم قطعات الجيش وقادة الفرق والوجوه والأشراف ، فاعتلى المنبر فابتدأ خطابه بتأبين أبيه عملاق الفكر الإسلامي ، وكان تأبينه منسجماً تمام الانسجام مع سموّ شخصية أبيه ، فقد وصفه بأبلغ وأروع ما يكون الوصف وصفه بهذه الكلمات الذهبية :

« لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون بعمل ولم يدركه الآخرون بعمل . . » .

ومعنى ذلك أنّ أباه نسخة فريدة لا مثيل لها في تأريخ الإنسانية في جميع الأزمان والآباد ، فإنّ من المحقّق أنّه ليس في ميدان الاصلاح الاجتماعي والسياسي زعيم كالإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نزاهته وتجرّده من جميع النزعات المادية ، فقد

---

(١) زينب الكبرى : ٣٨ .

تقلّد زمام الحكم وكان معظم الشرق خاضعاً لحكمه ، وكانت الأموال تجبى له كالسيل ، فلم يؤثر نفسه وأهله بشيء منها ، ولم يخلّف صفراء ولا بيضاء سوى سبعمائة درهم كان قد ادّخرها من راتبه ليشتري بها عبداً يستعين به أهله في حاجاتهم إلّا أنّه عدل عن ذلك ، وأمر ولده الحسن بإرجاعها إلى بيت المال ، كما أعلن ذلك الإمام الحسن في خطابه استمعوا له ، قال عليه‌السلام :

« وما خلّف صفراءً ولا بيضاءً إلّا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله ، وقد أمرني أن أردّها إلى بيت المال . . » .

وكان ذلك حقّاً هو منتهى السموّ والعظمة ، ومنتهى التجرّد عن الدنيا والزهد في جميع مظاهرها وملاذها .

ولمّا أنهى الإمام الحسن عليه‌السلام خطابه الرائع بايعه الجمهور وكانوا أصنافاً وهم :

١ ـ قادة الفرق والزعماء ، وهؤلاء كان معظمهم مع معاوية فقد استمالهم بأمواله وذهبه ، ووعدهم بالمناصب العالية إن انضموا إليه .

٢ ـ الخوارج ، وهم من ألد أعدائه وأعداء أبيه ، وكانوا يكيدون له في وضح النهار وغلس الليل .

٣ ـ المؤمنون من شيعته ممّن عرفوا حقّه ، ودانوا له بالولاء والطاعة ، وهم قلّة قليلة .

وعلى أي حال فقد علم معاوية ما مُني به جيش الإمام الحسن من الضعف والانحلال والتمرّد على قيادته ، فكتب إلى الإمام يستنجزه الحرب ، وزحف بجيوشه الذين تسودهم الطاعة والإخلاص له ، فانتهى إلى المدائن فعسكر فيها ، ولمّا أُذيع ذلك سرت أوبئة الرعب والخوف في نفوس جيش الإمام ، وقد دعاهم إلى مناجزة معاوية ، فلم يستجب له سوى بعض المؤمنين من أصحابه ، وجعل يستحثّ الناس على الخروج لحرب معاوية ، وبعد جهد شاق خرج معه أخلاط من الناس ـ على حدّ تعبير الشيخ المفيد ـ متباينون في أفكارهم وميولهم ، وأخذوا

يجدّون في السير لا يلون على شيء حتى انتهوا إلى المدائن فعسكروا فيها .

حوادث رهيبة :

ومُني الإمام الحسن عليه السلام بحوادث مروّعة حينما كان في مسكن كان من أقساها وأفجعها ما يلي :

١ ـ خيانة القائد العام:

وكان عبيد الله بن العباس قائداً لجميع القوات المسلّحة في جيش الإمام ، ولمّا تيقّن أنّ الدنيا قد تنكّرت للإمام انحرف عنه ومال إلى معسكر معاوية بعد أن تسلّم الرشوة منه ، وقد اضطرب جيش الإمام وماج بالفتن ، وكانت خيانته من أفجع النكبات التي مُني بها الإمام .

٢ ـ تسلل الوجوه إلى معاوية:

وتسلّل الوجوه والأشراف في جيش الإمام إلى معاوية بعد أن تسلّموا منه الأموال .

٣ ـ خيانة ثمانية آلاف:

والتحق بمعسكر معاوية ثمانية آلاف جندي مع قادتهم ، وأكبر الظنّ أنّهم من أتباع الخائن العميل الأشعث بن قيس ، وقد بان الانكسار والضعف بجيش الإمام بعد خيانة هذا العدد الكبير منهم .

٤ ـ خيانة ربيعة:

وتعتبر قبائل ربيعة العمود الفقري في جيش الإمام ، فقد أقبل زعيمها خالد ابن معمر إلى معاوية فقال له : أُبايعك عن ربيعة كلّها ، فبايعه على ذلك ، وفيه يقول الشاعر مخاطباً معاوية :

معاوي أكرم خالد بن معمر ... فإنك لولا خالد لم تؤمر

ولمّا انتهى الخبر إلى الإمام الحسن عليه السلام انهارت قواه واتّجه صوب الجيش

فقال لهم :

« يا أهل العراق ، أنتم الذين أكرهتم أبي على القتال والحكومة ثمّ اختلفتم عليه ، وقد أتاني أنّ أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية فبايعوه ، فحسبي منكم لا تغروني في نفسي وديني »[١] .

وكذلك بايع معاوية سرّاً عثمان بن شرحبيل زعيم بني تميم[٢] .

٥ ـ نهب أمتعة الإمام:

وعمدت تلك العصابة التي انمحت عن نفوسها جميع أفانين الشرف والكرامة إلى نهب أمتعة الإمام وأجهزته ، وأكبر الظنّ أنّ للخوارج ضلعاً كبيراً في هذه الجريمة .

٦ ـ محاولة اغتيال الإمام:

ولم تقف محنة الإمام الحسن عليه السلام في جيشه عند حدّ ، فقد عظم بلاؤه إلى أكثر من ذلك ، فقد قدّم المرتشون والخوارج على اغتياله وذلك في عدّة محاولات وهي :

١ ـ إنه كان يصلّي فرماه شخص بسهم .

٢ ـ طعنه الجرّاح بن سنان في فخذه .

٣ ـ طعنه بخنجر في أثناء الصلاة .

واتّضحت للإمام عليه السلام بعد هذه الاعتداءات الصارخة على حياته أنّه ليس عنده جيش يركن إليه لمناجزة معاوية .

٧ ـ الحكم عليه بالكفر:

ومن بين المحن الشاقة التي امتحن بها الإمام الحسن عليه السلام أنّ بعض العناصر في جيشه حكموا عليه بالشرك والإلحاد ، وأكبر الظنّ أنّهم الخوارج الذين لا نصيب لهم

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ٢٢٣ ، القسم الأوّل .

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢ : ١٢٧ .

من الإيمان والإسلام .

وعلى أي حال فقد انبرى الجرّاح بن سنان نحو الإمام وهو رافع صوته قائلاً :

أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل .

إنّ مجتمعاً يضمّ أمثال هؤلاء الأوغاد لهو مجتمع غير سليم .

ضرورة الصلح :

ودرس الإمام الحسن ﷺ الموقف من جميع جوانبه ووجوهه ورأى أنّه بين محذورين وهما :

الأول : أن يناجز معاوية ويفتح معه باب الحرب ، وهذا ما يطلبه ويبغيه لإنقاذ العالم الإسلامي من هذا العدو الظالم الذي يكيد له في الليل إذا يغشى وفي النهار إذا تجلّى ، فحربه أمر لازم وضروري ، ولكن ذلك لا سبيل له ، ولا تساعده الحكمة وعمق النظر وذلك لما يلي :

١ ـ إنّه ليس عند الإمام قوة عسكرية يستطيع أن يخوض بها الحرب ، فإنّ الأكثرية الساحقة من جيشه قد استجابت لمعاوية ، وآثرت السلم والعافية .

٢ ـ إنّ معاوية قد أرشى معظم قادة الفرق في جيش الإمام ، فصاروا طوع إرادته ، وضمنوا إنجاز ما يريد من اغتيال الإمام أو تسليمه له أسيراً .

٣ ـ إنّ من المؤكد أنّ معاوية هو الذي ينجح في الحرب ـ حسب الفنون العسكرية ـ فإذا استشهد الإمام فإنّه لا يستشهد وحده ، وإنّما يستشهد معه جميع أفراد أُسرته وخلّص شيعته ، ولا تستفيد القضية الإسلامية من تضحيتهم شيئاً ، فإنّ دهاء معاوية وما يتمتّع به من وسائل المكر والخداع يجعل تبعة ذلك على الإمام ، وبذلك يخسر العالم الإسلامي أهم رصيد روحي وفكري .

٤ ـ إنّ الإمام إذا لم يستشهد وأُخذ أسيراً لمعاوية ، فإنّ من المحقّق أنّه يمنّ عليه ، ويوصمه مع بقية أهل البيت بالطلقاء ، ويسجّل له بذلك يداً على العلويّين

ويمحو عنه وعن الأُمويّين وصمة الطلقاء التي أسداها عليهم النبيّ ﷺ حينما فتح مكة .

الثاني : أن يصالح معاوية على ما في الصلح من قذى العين وشجى الحلق ، وهذا هو المتعيّن في عرف السياسة وقوانين الحكمة ، وله مرجّحاته الواقعية والظاهرية التي أشرنا إليها .

وكان من أعظم فوائد الصلح ومن أهم ثمراته إبراز الواقع الأُموي الذي خفي على المسلمين فقد تظاهر الأُمويون بالإسلام ، وأشاعوا أنّهم حماة الدين ، وأقرب الناس إلى النبيّ ﷺ وأمسّهم رحماً به ، وبعد الصلح انكشف زيفهم ، وظهر واقعهم الجاهلي ، فقد تفجّرت سياسة معاوية بكل ما خالف كتاب الله وسنّة نبيّه ، فقد أعلن بعد الصلح مباشرة أمام الحشود فخاطب أهل العراق قائلاً :

إنّي ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتزكّوا ولا لتحجّوا وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك ، وإنّي قد أعطيت الحسن بن عليّ شروطاً لا أفي بواحد منها وها هي تحت قدمي .

ولو لم يكن للصلح من فائدة إلّا إبراز حقيقة معاوية وتجريده من كل إطار ديني لكفى ، فقد أبرز معاوية واقعه بهذا الخطاب ، فهو لم يقاتل أهل العراق من أجل الطلب بدم عثمان ، ولا من أجل ظاهرة إسلامية ، وإنّما قاتلهم من أجل الإمرة والسلطان ، ولو كان يملك ذرّة من الشرف والكرامة لما فاه بذلك ، ولما أعلن نقضه للعهود والمواثيق التي أعطاها للإمام الحسن عليه السلام .

وعلى أي حال فإنّا قد بسطنا القول بصورة موضوعية وشاملة في بيان ضرورة الصلح ، وإنّه هو المتعيّن على الإمام شرعاً وسياسة في كتابنا (حياة الإمام الحسن عليه السلام) ، كما استوفينا البحث من الشروط التي شرطها الإمام على معاوية والتي لم يفِ بشيء منها ، فمن أراد الإلمام بهذه البحوث عليه بمراجعة هذا الكتاب .

السفر إلى يثرب :

وأخذ الإمام الحسن عليه السلام يتهيأ للسفر إلى يثرب ، ويترك البلد الذي خذله وخذل أباه من قبل ، ولمّا تمّت وسائل النقل خرج أهل الكوفة إلى توديعه وهم ما بين باك وآسف ، يندبون حظّهم التعيس ، فقد أصبحت بلدهم مصراً من الأمصار بعد أن كانت عاصمة الدولة الإسلامية ، وأصبحت القطع السورية من الجيش تدخل مصرهم وتسيطر عليهم ، ويقام في بلدهم حكم إرهابي لا يعرف الرحمة ولا الرأفة .

وعلى أي حال فقد انتهى الإمام إلى يثرب فخفّ أهلها إلى استقباله ، فقد أقبل إليهم الخير ، وحلّت في ديارهم السعادة .

وعلى أي حال فقد أفلت دولة الحق وقامت على أنقاضها دولة الباطل ، وكان ذلك من أعظم النكبات التي عانتها حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله وعقيلة بني هاشم السيّدة زينب ، فكانت عالمة بمجريات الأحداث ونتائجها التي كان منها ما عانته من الرزايا والخطوب في كربلاء .

حكومة معاوية

واستقبل المسلمون حكومة معاوية بكثير من الوجوم والقلق والاضطراب واعتبروها نكسة للإسلام ، ونصراً حاسماً للقوى المعادية له والحاقدة عليه ، وفي طليعتها الأُسرة الأُموية ومن شايعها من القبائل القرشية ، فقد انتعشت الأفكار الجاهلية وعادت لها الحياة من جديد ، وانطوت الديمقراطية الإسلامية ، وما تنشده من التقدّم والتطوّر للإنسان في مجالاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، يقول السيّد مير علي الهندي :

ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم التوليغارشية الوثنية السابقة ، فاحتلّ موقع ديمقراطية الإسلام ، وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات ، وكأنها بعثت من جديد ، كما وجدت الرذيلة والتبذّل الخُلقي لنفسها متّسعاً في كل مكان ارتادته رايات حكم الأُمويّين من جند الشام . . »[1] .

لقد وقعت الأُمّة فريسة تحت أنياب معاوية فساسها سياسة سوداء تفجرّت بكلّ ما خالف كتاب الله وسنّة نبيّه ، فأشاع فيها البؤس والحرمان والقتل والدمار ، ونعرض ـ بإيجاز ـ لبعض نزعاته وصورة عن سياسته .

عداؤه للنبيّ :

وورث معاوية عداءه للرسول ﷺ من أبيه أبي سفيان الذي هو من ألدّ أعدائه

---

(١) روح الإسلام : ٢٩٦ .

وخصومه ، وقد ناجزه الحرب في بدر وأُحد وغيرهما ، وقد حاول جاهداً أن يلفّ لواء الإسلام ويطفىء نور الله ، ولكن الله تعالى ردّ كيده ونصر رسوله وأعزّ جنده .

وأمّا أمّ معاوية فهي الباغية هند ، وهي التي عُرفت بالعداء العارم للأُسرة العلوية ، وهي التي حرّضت وحشياً على قتل سيّد الشهداء حمزة فقتله ، وبعد قتله مثّلت به شرّ تمثيل .

ولا يقلّ معاوية في عدائه للنبيّ عن أبويه ، فقد أترع بالكراهية والبغض له ، وكان من حقده له أنّه سمع المؤذن يؤذن : أشهد أنّ محمّداً رسول الله ﷺ ، فلم يملك إهابه ، واندفع قائلاً :

لله أبوك يابن عبدالله ، لقد كنت عالي الهمّة ، ما رضيت لنفسك إلّا أن يقرن اسمك باسم ربّ العالمين[1] .

وكان من حقده على النبيّ ﷺ ما حدّث به مطرف بن المغيرة قال : وفدت مع أبي على معاوية فكان يتحدّث عنده ، ثمّ ينصرف إليّ ، وهو يذكر معاوية وعقله ، ويعجب بما يرى منه ، وأقبل ذات ليلة وهو غضبان ، فأمسك عن العشاء فانتظرته ساعة ، وقد ظننت أنّه شيء حدث فينا أو في عملنا فقلت له :

ما لي أراك مغتماً هذه الليلة ؟

يا بني ، جئتك من أخبث الناس .

ما ذاك ؟

خلوت بمعاوية فقلت له : إنّك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلاً ، وبسطت خيراً فإنّك قد كبرت ، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم ، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه .

فثار معاوية وقال :

---

(١) شرح النهج ١٠ : ١٠١ .

هيهات ، هيهات ، ملك أخو تيم فعدل ، وفعل ما فعل فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره إلّا أن يقول قائل أبو بكر ثم ملك أخو عدي فاجتهد وعمره عشر سنين ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره إلّا أن يقول قائل عمر ، ثمّ ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه ، فعمل به ما عمل ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، وأن أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات أشهد أنّ محمّداً رسول الله ، فأيّ عمل يبقى بعد هذا لا أمّ لك إلّا دفناً دفناً [1] .

وتحكي هذه البادرة مدى حقده وبغضه للنبيّ ﷺ ، وأنّه يسعى جاهداً لمحو ذكره وإطفاء نوره .

بغضه لآل النبيّ :

وكان معاوية من أبغض الناس وأحقدهم على آل النبيّ ﷺ ، وقد قام بما يلي :

١ ـ ستر فضائلهم :

وأوعز معاوية إلى جميع عمّاله وولاته بستر فضائل آل النبيّ ﷺ وحجبها عن الناس ، وقد حجّ بيت الله الحرام بعد عام الصلح فقام إليه جماعة من الناس سوى ابن عباس فبادره معاوية قائلاً :

يابن عباس ، ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلّا لموجدة عليّ بقتالي إيّاكم يوم صفين ، يابن عباس ، إنّ ابن عمّي عثمان قتل مظلوماً . . .

فردّ عليه ابن عباس :

فعمر بن الخطاب قتل مظلوماً ، فسلّم الأمر إلى ولده ، وهذا ابنه ـ وأشار إلى عبدالله بن عمر ـ .

فأجابه معاوية :

---

(١) شرح النهج ٢ : ٢٩٧ .

إنّ عمر قتله مشرك . . .

فانبرى ابن عباس قائلاً :

فمن قتل عثمان ؟

قتله المسلمون .

وأمسك ابن عباس بزمامه قائلاً :

فذلك أدحض لحجّتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه ، فليس إلّا بحقّ .

ووجم معاوية ثمّ قال :

إنّا كتبنا إلى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته فكفّ لسانك يابن عباس .

فأجابه ابن عباس ببليغ منطقه :

أفتنهانا عن قراءة القرآن ؟

لا .

أفتنهانا عن تأويله ؟

نعم .

فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به ؟

نعم .

فأيّهنّ أوجب علينا قراءته أو العمل به ؟

العمل به .

فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ؟

سل عن ذلك فمن يتأوّله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك .

إنّما نزل القرآن على أهل بيتي فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط .

فاقرأوا القرآن ، ولا ترووا شيئاً ممّا أنزل الله فيكم وممّا قاله رسول الله ﷺ فيكم ، وارووا ما سوى ذلك .

وسخر منه ابن عباس وتلا قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1] .

وصاح به معاوية :

اكفف نفسك ، وكفّ عنّي لسانك ، وإن كنت فاعلاً فليكن سرّاً ، ولا تسمعه أحداً علانية .

لقد جهد معاوية في ستر فضائل أهل البيت عليهم السلام ومحو ذكرهم حتى لا يبقى لهم أي رصيد شعبي في الأوساط الإسلامية .

٢ ـ اضطهاد الشيعة :

واضطهدت الشيعة اضطهاداً مريراً وقاسياً في أيام معاوية ، فقد انتقم منهم كأقسى وأشدّ ما يكون الانتقام ، وكان ما عانوه منه لا يوصف لشدّة قسوته ومرارته ، وهذه صورة موجزة لما عانوه .

أ ـ القتل الجماعي:

وعهد معاوية إلى الجلّادين من شرطته بقتل الشيعة وإبادتهم ، فقتل المجرم بسر بن أرطأة بعد التحكيم ثلاثين ألفاً عدا من أحرقهم بالنار[2] ، وقتل سمرة بن جندب ثمانية آلاف من أهل البصرة[3] ، وأمّا زياد ابن أبيه فقد اقترف أفظع الجرائم فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وأنزل بالشيعة جميع صنوف العذاب ، كما صفّى معاوية جميع العناصر الواعية من الشيعة وكان منهم :

---

(١) التوبة : ٣٢.

(٢) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢ : ٣٤٣.

(٣) شرح النهج ٢ : ٦.

١ ـ حجر بن عدي وجماعته .

٢ ـ عمرو بن الحمق الخزاعي .

٣ ـ رشيد الهجري .

٤ ـ أوفى بن حصن .

٥ ـ عبدالله الحضرمي وجماعته .

٦ ـ جويرية العبدي .

٧ ـ عبدالرحمن العنزي .

٨ ـ صيفي بن فسيل .

وقد ذكرنا بصورة مفصّلة كيفية شهادتهم وما لاقوه من التنكيل من معاوية لمحبّتهم لأهل البيت .

ب ـ ترويع النساء:

وروّع معاوية جمهرة من سيّدات نساء الشيعة كان من بينهنّ :

١ ـ الزرقاء بنت عدي .

٢ ـ أمّ الخير البارقية .

٣ ـ سودة بنت عمارة .

٤ ـ أمّ البراء بنت صفوان .

٥ ـ بكارة الهلالية .

٦ ـ أروى بنت الحارث .

٧ ـ عكرشة بنت الأطرش .

٨ ـ الدرامية الحجونية .

لقد لاقين هذه السيّدات التوهين والتقريع والترويع من معاوية لولائهن لأهل البيت .

جـ ـ هدم دور الشيعة:

وأوعز معاوية إلى عماله بهدم دور الشيعة فقاموا بهدمها[١] ، وتركوهم بلا مأوى يأوون إليه .

د ـ حرمان الشيعة من العطاء:

وكتب معاوية إلى عمّاله نسخة واحدة بحرمان الشيعة من العطاء وهذا نصها :

انظروا إلى من قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه[٢] .

وقام عملاؤه بالفحص في سجلاتهم فمن وجدوه يتعاطف مع أهل البيت عليهم السلام محوا اسمه ، وأسقطوا عطاءه .

هـ ـ رفض شهادة الشيعة:

وعمد معاوية إلى إذلال الشيعة وتجريحهم فأوعز إلى ولاته بعدم قبول شهادة الشيعة في دور القضاء وغيره[٣] مبالغة في التوهين بهم .

و ـ إبعاد الشيعة إلى خراسان:

ومن الإجراءات القاسية التي اتّخذها زياد ابن أبيه عمدة ولاة معاوية وأخوه اللّاشرعي ضدّ شيعة أهل البيت وكسر شوكتهم أنّه أجلى خمسين ألفاً منهم من الكوفة إلى خراسان المقاطعة الشرقية في فارس[٤] ، وقد عمل المبعدون على نشر التشيّع

---

(١) شرح النهج ١١ : ٤٤ .

(٢) شرح النهج ١١ : ٤٤ .

(٣) حياة الإمام الحسن عليه السلام ٢ : ١٧٨ .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٤٧ .

في تلك البلاد حتى تحوّلت إلى جبهة قوية للمعارضة ضدّ الحكم الأُموي ، وقد استغلّها أبو مسلم الخراساني فجنّدها وحارب بها الأُمويين حتى أطاح بدولتهم .

هذه بعض الإجراءات الرهيبة التي اتّخذها معاوية ضدّ الشيعة ، وهي تمثّل مدى حقده وعدائه لأهل البيت عليهم السلام .

أما البحث عن نزعاته الشريرة وسائر أعماله المجافية لروح الإسلام والقانون فقد ذكرناها بصورة مفصّلة في الجزء الثاني من كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه السلام) فلا حاجة لذكرها .

اغتيال الإمام الحسن :

وأكبر موبقة اقترفها معاوية ضدّ الإسلام والمسلمين اغتياله لسبط رسول الله صلى الله عليه وآله الإمام الحسن عليه السلام الذي أعطاه عهداً بأن تكون الخلافة له من بعده إلّا أنّه خان بعهده ، وراح ينشئ دولة أُموية تنتقل بالوراثة إلى أبنائه وأعقابه ، وقد وصفه (الميجر أوزبورن) بأنّه مخادع وذو قلب خال من كل شفقة ، وأنّه كان لا يتهيّب من الإقدام على أيّة جريمة من أجل أن يضمن مركزه ، فالقتل إحدى وسائله لإزالة خصومه ، وهو الذي دبّر تسميم حفيد الرسول صلى الله عليه وآله ، كما تخلّص من مالك الأشتر قائد عليّ بنفس الطريقة[1] .

واستعرض الطاغية السفاك المجرمين ليعهد إلى أخسّهم باغتيال ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلم يجد أحداً خليقاً باقتراف هذه الجريمة سوى جعدة بنت الأشعث ، فهي من بيت جُبل على الجريمة وطُبع على الغدر والخيانة ، فأرسل إلى مروان بن الحكم سمّاً فاتكاً كان قد جلبه من ملك الروم ، وأمره بإغراء جعدة بالأموال وزواج ولده يزيد إن استجابت له ، وعرض عليها مروان ذلك فاستجابت له

---

(١) روح الإسلام : ٢٩٥ .

فأخذت السمّ ودسّته للإمام ، وكان صائماً في وقت شديد الحرّ ، وما إن وصل السمّ إلى جوف الإمام حتى تقطّعت أمعاؤه ، فالتفت عليه السلام إلى الخبيثة الماكرة وقال لها :

« قتلتيني قتلك الله ، والله لا تصيبين منّي خلفاً ، لقد غرّك ـ يعني معاوية ـ وسخر منك يخزيك الله ويخزيه . . »[1] .

وأخذ ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله يعاني من شدّة السمّ وقسوته وكان يتقيّأ قطعاً من الدم في طشت ، فدخلت عليه شقيقته سيّدة النساء العقيلة ، فأمر برفع الطشت لئلا ترى ما فيه فيذوب قلبها ، فنظرت العقيلة إلى أخيها وهو مصفرّ الوجه قد فتك السمّ به ، فانهارت قواها ، وطافت بها موجات مذهلة من الألم والحزن ، فقد علمت أن أخاها سيفارقها عمّا قريب .

وأخذ الإمام يقبّل أخوته وخلّص أصحابه وهو يوصيهم بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، وتقوى الله ، والاجتناب عن معاصيه ، واشتدّت حالته ، وأخذ يتلو آيات من كتاب الله العزيز ويطلب من الله تعالى أن يجعله في أعلى مراتب المتّقين والصالحين ، ووافاه الأجل المحتوم ولسانه لهِج بذكر الله ، وقد سمت روحه العظيمة إلى بارئها وهي مليئة بالآلام التي عانتها من معاوية العدوّ الماكر للإسلام ، وقام الإمام الحسين عليه السلام بتجهيز جثمان أخيه ، وبعد الانتهاء من مراسيم الغسل والتكفين رأى الإمام أن يدفن أخاه بجوار جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ، فمنعته بنو أُميّة وقد استعانوا بعائشة ، فقد خرجتْ على بغل وهي تقول : لا يدفن الحسن بجوار جدّه أو بيتي هذه ، وأومأت إلى شعر رأسها وصاحت بالهاشميّين : لا تُدخلوا بيتي من لا أُحبّ ، وكادت الفتنة أن تقع وتراق الدماء ، فعدل الإمام عن دفن أخيه بجوار جدّه ودفنه في البقيع ، وقد ذكرنا الأحداث التي رافقت دفن الإمام الحسن عليه السلام في كتابنا (حياة الإمام الحسن) فلا نرى حاجة لذكرها .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٣١٧.

البيعة ليزيد :

وختم معاوية حياته الملوّثة بالجرائم والموبقات بفرض ولده يزيد خليفة على المسلمين ، وقد استخدم جميع الوسائل المنحطّة في جعل الخلافة في أبنائه وتحويلها إلى ملك عضوض لا محل فيه لأي قيمة من القيم الدينية .

وقد ورث يزيد صفات جدّه أبي سفيان وأبيه معاوية من النفاق والغدر والطيش والعداء للإسلام ، يقول السيّد مير علي الهندي :

وكان يزيد غدّاراً كأبيه ولكن ليس داهية مثله ، كانت تنقصه القدرة على تغليف تصرفاته القاسية بستار من اللباقة الدبلوماسية الناعمة ، وكانت طبيعته المنحلّة ، وخُلقه المنحطّ لا تتسرّب إليهما شفقة ولا عدل ، كان يقتل ويعذّب نشداناً للمتعة واللذّة التي يشعر بهما وهو ينظر إلى آلام الآخرين ، وكان بؤرة لأبشع الرذائل ، وها هم ندماؤه من الجنسين خير شاهد على ذلك لقد كانوا من حثالة المجتمع[١] .

لقد كان يزيد مستهتراً بعيداً عن جميع القيم الإنسانية لا يحفل بما يقترفه من الموبقات والرذائل ، وحسبه أنّه حفيد أبي سفيان وابن معاوية الذئب الجاهلي ، ووصفه المؤرخون بأنّه كان معرّى من كل صفة إنسانية ، وأنّه جاهلي بما تحويه هذه الكلمة من معنى .

ومن مظاهر استهتاره ولعه بشرب الخمر ، ويعزو بعض المؤرخين سبب وفاته إلى أنّه شرب خمراً كثيراً حتى أولد فيه انفجاراً في دماغه ، ومن أنّه كان ولعاً بالقرود ، فكان له فهد يجعله بين يديه ويكنيه بأبي قيس ، ويسقيه فضل كأسه ، ويقول هذا شيخ من بني إسرائيل أصابته خطيئة فمُسخ ، وكان يحمله على أتان وحشية ويرسله مع الخيل في حلبة السباق ، فحمله يوماً فسبق الخيل فسرّ بذلك

---

(١) روح الإسلام : ٢٩٦ .

وجعل يقول :

تمسك أبا قيس بفضل زمامها فليس عليها إن سقطت ضمان
فقد سبقت خيل الجماعة كلها وخيل أمير المؤمنين أتان

وأرسله مرة في حلبة السباق فطرحته الريح فمات فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتكفينه ودفنه ، وأوعز إلى أهل الشام أن يعزّوه بمصابه الأليم بهذا الفقيد العزيز ورثاه بهذه الأبيات :

كم من كرام وقوم ذوو محافظة جاءوا لنا ليعزوا في أبي قيس
شيخ العشيرة أمضاها وأجملها على الرؤوس وفي الأعناق والريس
لا يبعد الله قبراً أنت ساكنه فيه جمال وفيه لحية التيس[1]

وشاع بين الناس ولعه بالقرود ، وقد هجاه شاعر من تنوخ بقوله :

يزيد صديق القرد ملّ جوارنا فحنّ إلى أرض القرود يزيد
فتبّاً لمن أمسى علينا خليفة صحابته الأدنون منه قرود[2]

وكان كلفاً بالصيد لاهياً به ، وكان يُلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه[3] .

لقد كان يزيد عنواناً لكل رذيلة وموبقة وهو أخبث إنسان على وجه الأرض ، وأصبح علماً للانحطاط الخُلقي والظلم الاجتماعي ، وحيث ما ذكر اسمه فإنّه مثال للفساد والاستبداد والتهتك والخلاعة ، وقد ذكرنا المزيد من صفاته ونزعاته في كتابنا (حياة الإمام الحسين) .

---

(١) جواهر المطالب لمناقب الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام : ١٤٣ .
(٢) أنساب الأشراف ٢ : ٢ .
(٣) الفخري : ٤٥ .

الحكم الأسود

وخيّم على العالم الإسلامي حكم إرهابي عنيف لا يخضع لعرف ولا لقانون ، ولا يستجيب لأية عاطفة إنسانية ، شعاره الظلم والاستبداد واللامبالاة ، هذا هو السمت الظاهر والواقع لحكم يزيد بن معاوية الذي بُلي به المسلمون ، وامتحنوا امتحاناً عسيراً .

لقد عانت عقيلة بني هاشم السيّدة زينب في عهد هذا الطاغية أشقّ وأقسى ألوان المصائب والكوارث ، كما تعرّضت الأُسرة النبوية إلى الإبادة الشاملة ، فقد جزّروا كالأضاحي ، ومثّلت الجيوش الأُموية أشرّ تمثيل بأجسامهم الطاهرة كل ذلك كان بمرأى من حفيدة الرسول ﷺ ، فذابت نفسها أسى وحسرات ، ولم تقتصر محنتها على ذلك وإنّما تعدّت إلى ما هو أقسى وأشدّ ، فقد سبيت مع عقائل الوحي ومخدرات الرسالة يطاف بهنّ من بلد إلى بلد ، فتارة يمثلن أمام ابن مرجانة ، وأخرى في مجلس يزيد ، فلم تبق محنة من محن الدنيا ، ولا فاجعة من فواجع الدهر إلّا جرت على حفيدة الرسول ﷺ في عهد هذا الطاغية الأثيم .

وعلى أي حال فقد تسلّم يزيد ـ بعد هلاك أبيه ـ قيادة الدولة الإسلامية ، وهو في غضارة العمر ، وريعان الشباب لم تصقله التجارب ، ولم تهذّبه الأيام ، قد استسلم لشهواته وملذّاته التي كان البارز منها سفك الدماء وإشاعة الفزع والخوف بين الناس .

ولم يكن الطاغية حينما وافت المنية أباه في دمشق ، وإنّما كان في رحلات

الصيف في حوارين الثنية ، فأرسل إليه الضحاك بن قيس رسالة يعزّيه فيها بوفاة أبيه ويهنّئه بالخلافة ، ويطلب منه الإسراع إلى عاصمته ليتولّى شؤون الحكم ، وحينما انتهت إليه الرسالة أسرع نحو عاصمته ، ومعه أخواله وبنو أُميّة والمغنّون والعابثون من أصحابه ، وقد شعث في الطريق ، فأقبل الناس يسلّمون عليه ويعزّونه ، وقد عابوا عليه ما هو فيه فانتقدوه وقالوا :

هذا الأعرابي الذي ولّاه معاوية أمر الناس والله سائل عنه[1] .

ومضى صوب قبر أبيه فجلس عنده وهو باكي العين وأنشأ يقول :

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم ... قال الخليفة أمسى مدنفاً وجعا[2]

ثم سار نحو القبة الخضراء في موكب رسمي تحفّ به بنو أُميّة وأخواله وشرطته .

خطابه في أهل الشام :

وخطب يزيد في أهل الشام خطاباً أعلن فيه عن عزمه على خوض حرب مدمّرة مع أهل العراق جاء فيه :

يا أهل الشام ، فإنّ الخير لم يزل فيكم ، وسيكون بيني وبين أهل العراق حرب شديدة ، وقد رأيت في منامي كأنّ نهراً يجري بيني وبينهم دماً عبيطاً ، وجعلت أجهد في منامي أن أجوز ذلك النهر فلم أقدر على ذلك ، حتى جاءني عبيدالله بن زياد فجازه بين يدي وأنا أنظر إليه . . .

وانبرى أهل الشام فأعلنوا دعمهم الكامل له قائلين :

---

(١) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ١ : ٢٦٧ .

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٦٦ .

يا أمير المؤمنين امض بنا حيث شئت ، واقدم بنا على من أحببت ، فنحن بين يديك ، وسيوفنا تعرفها أهل العراق في يوم صفين .

وشكرهم يزيد على ولائهم ، وأثنى على إخلاصهم[١] . وقد كشف خطابه عن تصميمه على حرب أهل العراق ، وذلك لعلمه بكراهيتهم له ، وتجاوبهم الكامل مع الإمام الحسين .

مع المعارضة في يثرب :

وكان يزيد يتحرّق غيظاً وغضباً على الجبهة المعارضة له في يثرب والتي كانت لا تراه أهلاً لولاية أمر المسلمين ، أمّا أعلام المعارضة فهم :

١ ـ الإمام الحسين :

وهو ابن رسول الله ﷺ وريحانته ، وكان يتمتّع بنفوذ واسع النطاق في معظم الأقاليم الإسلامية .

٢ ـ عبدالله بن الزبير :

وهو من أعلام المعارضة ، إلّا أنّه لم تكن له شعبية ولم يتمتّع بصفة فاضلة ، وكان يرى أنّه أفضل من يزيد وأحقّ بالبيعة والخلافة منه .

أوامره المشدّدة إلى الوليد :

وأصدر الطاغية أوامره المشدّدة إلى الوليد بن عتبة عامله على يثرب بإرغام المعارضين له على أخذ البيعة منهم فإن امتنعوا نفّذ فيهم حكم الإعدام ، وقد جاء في رسالته :

إذا أتاك كتابي فاحضر الحسين بن عليّ وعبدالله بن الزبير فخذهما بالبيعة ،

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٢٤٤ .

فإن امتنعا فاضرب أعناقهما وابعث إليّ برؤوسهما ، وخذ الناس بالبيعة فمن امتنع فانفذ فيه الحكم ، وفي الحسين بن عليّ وعبدالله بن الزبير والسلام[١] .

فزع الوليد :

ولمّا انتهت رسالة يزيد إلى الوليد فزع فزعاً شديداً فإن التنكيل بالمعارضين وإنزال العقاب الصارم بهم ليس بالأمر السهل ، فإنّ معاوية مع ما يتمتّع به من القابليات الدبلوماسية لم يستطع إرغام الإمام الحسين على أخذ البيعة منه ليزيد فكيف يستطيع الوليد تنفيذ ذلك .

ورأى الوليد أن يعرض الأمر على مروان عميد الأسرة الأموية ويستشيره في الأمر ، فبعث خلفه وأطلعه على رسالة يزيد فقال له مروان :

ابعث إليهم في هذه الساعة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في طاعة يزيد ، فإن فعلوا قبلت منهم ذلك ، وإن أبوا قدّمهم واضرب أعناقهم قبل أن يدروا بموت معاوية ، فإنّهم إن علموا ذلك وثب كلّ رجل منهم فأظهر الخلاف ودعا إلى نفسه ، فعند ذلك أخاف أن يأتيك من قبلهم ما لا قِبَل لك به ، إلّا عبدالله بن عمر فإنّه لا ينازع في هذا الأمر أحداً ، مع أنّي أعلم أن الحسين بن عليّ لا يجيبك إلى بيعة يزيد ولا يرى له عليه طاعة ، والله لو كنت في موضعك لم أراجع الحسين بكلمة واحدة حتى أضرب رقبته كائناً في ذلك ما كان .

وعظم ذلك على الوليد فقد اختار له مروان هلاك دينه ودنياه ، فقال له :

يا ليت الوليد لم يولد ، ولم يك شيئاً مذكوراً .

وسخر منه مروان ، وراح يندّد به قائلاً :

لا تجزع ممّا قلت لك ، فإنّ آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر ولم

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢١٥ .

يزالوا ، وهم الذين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان ، ثم ساروا إلى أمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ فحاربوه .

ونهره الوليد ونصحه قائلاً :

ويحك يا مروان عن كلامك هذا ، وأحسن القول في ابن فاطمة فإنّه بقية النبوة[1] .

واتّفق رأي الوليد ومروان على استدعاء الإمام الحسين وابن الزبير وعرض الأمر عليهما ، والنظر في رأيهما .

استدعاء الحسين :

وأرسل الوليد في منتصف الليل[2] عبدالله بن عمرو بن عفان خلف الإمام الحسين وابن الزبير ، ومضى الفتى يدعوهما فوجدهما في الجامع النبوي ، فعرض عليهما الأمر فأجاباه إلى ذلك وأمراه بالانصراف ، والتفت ابن الزبير إلى الإمام فقال له :

ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها ؟

فأجابه الإمام :

« أظنّ أن طاغيتهم ـ يعني معاوية ـ قد هلك فبعث إلينا بالبيعة قبل أن يفشو بالناس الخبر . . » .

واستصوب ابن الزبير رأي الإمام قائلاً :

وأنا ما أظنّ غيره ، فما تريد أن تصنع ؟

« أجمع فتياني في الساعة ثم أسير إليه ، وأجلسهم على الباب » .

وانبرى ابن الزبير يبدي مخاوفه على الإمام قائلاً :

---

(١) الفتوح ٥ : ١٢ ـ ١٣ ، ذكرنا عرضاً مفصّلاً للأسباب التي دعت مروان إلى هذا الموقف مع المعارضة في كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه السلام) .

(٢) البداية والنهاية ٨ : ١٦٠ .

إني أخاف عليك إذا دخلت .

« لا آتيه إلّا وأنا قادر على الامتناع . . »[١] .

واتّجه الإمام الحسين عليه السلام صوب الوليد ، فلمّا التقى به نعى إليه معاوية فاسترجع الإمام ، وقال له :

لماذا دعوتني ؟ » .

دعوتك للبيعة .

فطلب منه الإمام تأجيل البيعة قائلاً :

« إن مثلي لا يبايع سرّاً ، ولا يجتزئ بها منّي سرّاً ، فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم للبيعة دعوتنا معهم كان الأمر واحداً . . » .

لقد أراد الإمام أن يعلن رأيه أمام الجماهير في رفضه البيعة ليزيد ، وعرف مروان قصده فصاح بالوليد :

ولئن فارقك ـ يعني الحسين ـ الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فإن بايع وإلّا ضربت عنقه .

ووثب أبي الضيم كالأسد . فقال للوزغ ابن الوزغ :

« يابن الزرقاء ، أأنت تقتلني أم هو ؟ كذبت والله ولؤمت »[٢] .

وأقبل على الوليد فأخبره عن عزمه وتصميمه على رفضه الكامل للبيعة ليزيد قائلاً :

« أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومحل الرحمة ، بنا فتح الله وبنا ختم ، ويزيد رجل فاسق ، شارب الخمر ، وقاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون أيّنا أحق بالخلافة والبيعة . . »[٣] .

---

(١) (٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٦٤ .

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٢٥٥ .

وكان هذا أوّل إعلان من الإمام الحسين عليه‌السلام بعد هلاك معاوية في رفضه البيعة ليزيد ، لقد أعلن ذلك في بيت الإمارة من دون مبالاة ولا خوف من السلطة ، كيف يبايع حفيد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله يزيد الفاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحرمة ، ولو بايعه لأقرّه إماماً على المسلمين ، وعرّض العقيدة الإسلامية إلى الانـهيار والدمـار وعصف بها في متاهات سحيقة من محامل هذه الحياة .

واستاء مروان من موقف الإمام ووجّه لوماً وعتاباً إلى الوليد قائلاً :

عصيتني ، لا والله لا يمكنك مثلها من نفسه أبداً .

وردّ عليه الوليد ببالغ الحجّة قائلاً :

ويحك يا مروان أشرت عليّ بذهاب ديني ودنياي والله ما أُحبّ أن أمـلك الدنيا بأسرها ، وإنّي قتلت حسيناً سبحان الله ! ! أأقتل حسيناً إن قال لا أُبايع ، والله ما أظنّ أحداً يلقى الله بدم الحسين إلّا وهو خفيف الميزان لا ينظر الله إليه يوم القيامة ، ولا يزكّيه وله عذاب أليم .

وسخر منه مروان وراح يقول :

إذا كان هذا رأيك فقد أصبت . .[1] .

مغادرة الإمام يثرب :

وعزم الإمام عليه‌السلام على مغادرة يثرب ليلوذ بالبيت الحرام ، وينشر دعوته فيه .

وداعه لقبر جدّه :

وخفّ الإمام الحسين عليه‌السلام إلى قبر جدّه ، وهو حزين كئيب يشكو إلى الله ما ألمّ به من الخطوب قائلاً :

---

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٣٤٠ .

« اللّهمّ إنّ هذا قبر نبيّك محمّد ﷺ وأنا ابن بنت محمّد ، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت ، اللّهمّ إنّي أُحبّ المعروف وأُنكر المنكر ، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحق هذا القبر ومن فيه إلّا ما اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى . . . »[١] .

ويلمس في هذا الدعاء مدى انقطاعه الكامل إلى الله تعالى ، وحبّه العارم إلى إقامة المعروف وتدمير الباطل ، وهو يسأل الله ـ بلهفة ـ أن يختار له الصالح في دينه ودنياه .

وتوجّه الإمام في غلس الليل البهيم إلى قبر أُمّه سيّدة نساء العالمين فودّعها الوداع الأخير ، ووقف قبال قبرها الشريف ، وتمثّلت أمامه ذكريات عواطفها الفيّاضة ، وشدّة حنوها عليه فانفجر بالبكاء ، وذابت نفسه أسى وحسرات ، ثمّ ودّع القبر وداعاً حارّاً ، وانصرف إلى مرقد أخيه الزكي الإمام أبي محمّد عليه السلام فأخذ يروي ثراه بدموع عينيه وقد طافت به الآلام ، ثمّ قفل راجعاً إلى منزله .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٢٥٩ .

إلى مكة

وبعدما أعلن الإمام رفضه الكامل لبيعة الطاغية يزيد عزم على مغادرة يثرب والتوجّه إلى مكة المشرّفة ليبثّ دعوته فيها ، وقد دعا العقيلة أُخته السيّدة زينب عليها السلام وعرّفها بعزمه وما سيجري عليه من الأحداث ، وطلب منها أن تشاركه في محنته ، فاستجابت له ، وصمّمت على مساعدته في نهضته وثورته التي يقيم فيها الحقّ ويدحر الباطل ،كما دعا أولاده وزوجاته وأخوته وبني عمومته إلى مصاحبته فلبّوا جميعاً ولم يتخلّف منهم أحد إلّا لعذر قاهر .

ولمّا أصبحوا جاء الموالي بالابل فحملوا عليها الخيام وأدوات المياه والأرزاق وغيرها وأعدّوها للسفر ، وخرجت حفيدة الرسول السيّدة زينب تجرّ أذيالها ونفسها مترعة بالهموم والآلام ، وقد أحاطت بها جواريها ، وكان إلى جانبها أخوها أبو الفضل العباس قمر بني هاشم ، فكان هو الذي يتولّى رعايتها وخدماتها ، وقد ملئت نفسه إجلالاً وإكباراً وولاءً لها ، واستقلّت الابل بعترة رسول الله صلى الله عليه وآله وحدا بهم الحادي إلى مكّة المكرمة ، وقد خيّم الحزن والأسى على المدنيّين حينما رأوا آل النبيّ صلى الله عليه وآله قد نزحوا عنهم إلى غير مثاب .

وكان سيّد الشهداء عليه السلام يتلو في طريقه قوله تعالى : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

---

(١) القصص : ٢١ .

لقد شبّه خروجه بخروج نبي الله موسى بن عمران على فرعون زمانه ، وكذلك هو خرج على طاغية عصره حفيد أبي سفيان ليقيم الحقّ وينشر العدل بين الناس ، وسلك عليه السلام في سفره الطريق العام من دون أن يتجنّب عنه كما فعل ابن الزبير مخافة أن يدركه الطلب من قبل السلطة في يثرب ، فامتنع وأجاب :

« لا والله لا فارقت هذا الطريق أبداً أو أنظر إلى أبيات مكة ، أو يقضي الله في ذلك ما يحبّ ويرضى » .

لقد رضي بما كتب الله وقدّر له ، لم تضعف همّته ، ولم توهن عزيمته ، ولم يبال بالأحداث المروعة التي سيواجهها ، وكان يتمثّل في أثناء مسيرته بشعر يزيد ابن المفرغ :

لا ذعرت السوام في فلق الصبح ... مغيراً ولا دعيت يزيدا

يوم أعطى مخافة الموت ضيما ... والمنايا ترصدنني أن أحيدا[١]

لقد كان على ثقة أنّ المنايا ترصده لا تحيد عنه ما دام مصمّماً على عزمه الجبار في أن يعيش عزيزاً ولا يخضع لحكم يزيد .

احتفاف الحجاج والمعتمرين بالإمام :

وانتهى الإمام عليه السلام إلى مكة المكرمة ليلة الجمعة لثلاث ليال مضين من شعبان[٢] . وقد حطّ رحله في دار العباس بن عبدالمطلب[٣] ، وقد استقبله المكّيون استقبالاً حافلاً ، وجعلوا يختلفون إليه بكرةً وعشيةً وهم يسألونه عن أحكام دينهم ، كما يسألونه عن موقفه تجاه الحكم القائم .

---

(١) خطط المقريزي ٢ : ٢٨٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ١٩٠ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ١٣ : ٦٨ .

وأخذ القادمون إلى بيت الله الحرام من الحجاج والمعتمرين يختلفون إليه ويطوفون حوله ، ويتبرّكون بتقبيل يده ، ويلتمسون منه العلم والحديث ، ولم يترك الإمام لحظة واحدة من الوقت تمرّ دون أن يبثّ الوعي الاجتماعي والسياسي في نفوس القادمين إلى بيت الله الحرام ويدعوهم إلى اليقظة والحذر من الحكم الأُموي الهادف إلى استعباد المسلمين وإذلالهم .

فزع السلطة المحلية :

وفزعت السلطة المحلية في مكة من قدوم الإمام ، وخافت أن يتّخذها مقرّاً سياسياً لدعوته ومنطلقاً لإعلان الثورة على حكومة يزيد ، وقد خفّ حاكم مكة عمرو بن سعيد الأُشدق إلى الإمام ، وقال له :

ما أقدمك ؟ .

« عائذاً بالله وبهذا البيت . . »[1] .

لقد جاء الإمام إلى مكة عائذاً ببيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً من كل ظلم واعتداء .

ولم يحفل الأُشدق بكلام الإمام ، وإنّما رفع رسالة إلى يزيد أحاطه بها علماً بمجيء الإمام إلى مكة ، واختلاف الناس إليه ، وازدحامهم على مجلسه ، وإجماعهم على تعظيمه ، وأنّ ذلك يشكّل خطراً على الدولة الأُموية ، واضطرب يزيد حينما وافته رسالة عامله الأُشدق ، فرفع إلى ابن عباس رسالة يمنّي فيها الإمام الحسين بالسلامة إن استجاب لبيعته ، ويتهدّده إن لم يستجب لذلك ، وقد أجابه ابن عباس : أنّ الحسين إنّما نزح عن يثرب لمضايقة السلطة المحلية له ، كما وعده أن يلقى الإمام ويعرض عليه ما طلبه منه ، وقد ذكرنا ذلك في (حياة الإمام

---

(١) انظر تذكرة الخواص : ٢٤٨ .

الحسين ـ نصّ رسالة يزيد وجواب ابن عباس) .

إعلان التمرّد في العراق :

وبعدما هلك معاوية أعلن العراقيون رفضهم لبيعة يزيد وخلعهم لطاعته ، فكانت أندية الكوفة تعجّ بمساوئ معاوية وابنه الخليع يزيد ، وذهب المستشرق (كريمر) إلى أنّ الأخيار والصلحاء من الشيعة ينظرون إلى يزيد نظرتهم إلى ورثة أعداء الإسلام(١) .

وعلى أي حال فإن أهل الكوفة لم يرضوا بحكم يزيد وأجمعوا على خلع بيعته ، وقد عقدت الشيعة مؤتمراً عاماً في بيت سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو من أكابر زعمائهم ، وألقوا الخطب الحماسية التي أظهرت مساوئ الأُمويّين وما اقترفوه من الظلم والجور ضدّ شيعة أهل البيت ، ودعوا إلى البيعة للإمام الحسين عليه السلام ، وكان من جملة الخطباء سليمان بن صرد ، وقد جاء في خطابه :

إنّ معاوية قد هلك ، وأنّ حسيناً قد قبض على القوم بيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدو عدوّه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهن والفشل فلا تغرّوا الرجل من نفسه .

وتعالت أصواتهم من كل جانب ، وهم يقولون بحماس بالغ :

نقتل أنفسنا دونه . . نقاتل عدوّه .

وأظهروا بالإجماع دعمهم الكامل للحسين ، ورغبتهم الملحّة في نصرته والدفاع عنه ، وأجمعوا على إرسال وفد إليه يدعونه للقدوم إليهم .

وفود أهل الكوفة للإمام :

وأرسلت الكوفة وفوداً متعدّدة إلى الإمام يدعونه إلى القدوم إلى مصرهم لينقذهم

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام : ٦٩ .

من ظلم الأُمويين وجورهم ، ويعلنون دعمهم الكامل له ، وكان من بين الوافدين عبدالله الجدلي[١] .

رسائل أهل الكوفة :

وعمد أهل الكوفة إلى كتابة جمهرة من الرسائل إلى الإمام يحثّونه على القدوم إليهم لينقذ الأُمّة من شرّ الأُمويّين ، وكان من بين تلك الرسائل رسالة بعثها جماعة من شيعة الإمام وجاء فيها بعد البسملة :

من سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجية ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعته والمسلمين من أهل الكوفة :

أمّا بعد ، فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبار العنيد ـ يعني معاوية ـ الذي انتزا على هذه الأُمّة فابتزّها أمرها وغصبها فيئها وتآمر عليها بغير رضىً منها ، ثمّ قتل خيارها واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها ، فبُعداً له كما بعدت ثمود .

إنّه ليس علينا إمام فاقبل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ ، واعلم أنّ النعمان ابن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[٢] .

كما وردت إليه رسائل من الانتهازيين وشيوخ الكوفة ، كان منها ما أرسله شبث بن ربعي اليربوعي ، ومحمّد بن عمر التميمي ، وحجار بن أبجر العجلي ، ويزيد بن الحارث الشيباني ، وعزرة بن قيس الأحمسي ، وعمرو بن الحجاج الزبيدي ، وهذا نصّها :

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ٩٥ .

(٢) أنساب الأشراف : ١٥٧ .

أمّا بعد ، فقد إخضرّ الجناب ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام[1] ، فاقدم على جند لك مجنّدة والسلام عليك[2] .

وأعربت هذه الرسالة عن شبوع الأمل وازدهار الحياة ، وتهيئة البلاد عسكرياً للأخذ بحقّ الإمام ومناجزة خصومه ، وقد وقّعها أُولئك الأشخاص الذين لا يؤمنون بالله ، وكانوا في طليعة القوى العسكرية التي زجّها ابن مرجانة لحرب الإمام .

وعلى أي حال فقد توافدت الرسائل يتبع بعضها بعضاً على الإمام ، حتى اجتمع عنده في نوب متفرقة اثنا عشر ألف كتاب ، ووردت عليه قائمة فيها مائة وأربعون ألف اسم ، يعربون فيها عن نصرتهم واستعدادهم الكامل لطاعته حال ما يصل إلى مقرهم .

ولكن بمزيد الأسف لقد انطوت تلك الصحيفة ، وتبدّلت الأوضاع إلى ضدّها ، وإذا بالكوفة تنتظر الحسين لتثب عليه فتريق دمه ودماء أهل بيته وأصحابه وتسبي عياله ، وهكذا شاءت المقادير ، ولا رادّ لأمر الله تعالى وقضائه .

إيفاد مسلم إلى العراق :

وعزم الإمام على أن يلبّي طلب أهل الكوفة ويستجيب لدعوتهم ، فأوفد إليهم ممثّله العظيم ابن عمّه مسلم بن عقيل ليعرّفه باتجاهاتهم وصدق نيّاتهم ، فإن رأى منهم عزيمة مصمّمة فيأخذ منهم البيعة ، وزوّده بهذه الرسالة .

« من الحسين بن علي إلى من بلغه كتابي هذا من أوليائه وشيعته بالكوفة سلام عليكم

أمّا بعد ، فقد أتتني كتبكم ، وفهمت ما ذكرتم من محبّتكم لقدومي عليكم ، وأنا باعث إليكم بأخي وابن عمّي وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل ليعلم لي كُنه

(١) الجمام : الآبار .

(٢) أنساب الأشراف : ١٥٨ ـ ١٥٩ .

أمركم ، ويكتب إلي بما يتبيّن له من اجتماعكم فإن كان أمركم على ما أتتني به كتبكم وأخبرتني به رسلكم أسرعت القدوم إليكم إن شاء الله ، والسلام »[١] .

مسلم في بيت المختار :

وسار مسلم يطوي البيداء حتى انتهى إلى الكوفة فنزل في بيت المختار الثقفي[٢] ، وهو من أشهر أعلام الشيعة ، ومن أحبّ الناس وأنصحهم وأخلصهم للإمام الحسين عليه السلام .

وفتح المختار أبواب داره لمسلم ، وقابله بمزيد من الحفاوة والتكريم ودعا الشيعة لمقابلته ، فهرعوا إليه من كل حدب وصوب ، وهم يظهرون له الولاء والطاعة ، وكان مسلم يقرأ عليهم رسالة الإمام الحسين عليه السلام وهم يبكون ، ويبدون تعطّشهم لقدومه والتفاني في نصرتهم له ليعيد في مصرهم حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، وينقذهم من جور الأُمويّين وظلمهم .

البيعة للحسين :

وانهالت الشيعة على مسلم تبايع للإمام الحسين عليه السلام ، وكان حبيب بن مظاهر هو الذي يأخذ منهم البيعة للحسين[٣] ، وكان عدد المبايعين أربعين ألفاً ، وقيل : أقل من ذلك[٤] .

رسالة مسلم للحسين :

وازداد مسلم إيماناً ووثوقاً بنجاح الدعوة ، وبهر من العدد الهائل الذين بايعوا

---

(١) الأخبار الطوال : ٢١٠ .

(٢) الحدائق الوردية ١ : ١٢٥ ، (مخطوط) .

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٣٤٧ .

(٤) وفي رواية البلاذري أنّ جميع أهل الكوفة معه .

الحسين فكتب له :

« أمّا بعد ، فإنّ الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً [١] ، فعجّل حين يأتيك كتابي هذا فإنّ الناس كلّهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى . . » .

لقد حكت مسلم هذه الرسالة إنّ هناك إجماعاً عاماً على بيعة الإمام وتلهفاً حارّاً لقدومه ، وقد حمل الرسالة جماعة من أهل الكوفة وعليهم البطل عابس الشاكري ، وعند ذلك تهيّأ الإمام الحسين للخروج من مكة إلى العراق .

فزع يزيد :

وفزع يزيد حينما وافته الأنباء من عملائه بمجيء مسلم بن عقيل إلى الكوفة وأخذه البيعة للإمام الحسين عليه السلام ، واستجابة الجماهير لبيعة الإمام ، وشعر يزيد بالخطر الذي يهدّد ملكه ، فاستدعى سرجون الرومي ، وكان مستودع أسرار أبيه ومن أدهى الناس ، وعرض عليه الأمر قائلاً :

ما رأيك أنّ حسيناً قد توجّه إلى الكوفة ، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين ، وقد بلغني عن النعمان ـ وهو والي الكوفة ـ ضعف وقول سيء ، فما ترى من استعمل على الكوفة ؟ .

وأخذ سرجون يطيل التأمّل ، حتى توصّل إلى نتيجة حاسمة فقال له :

أرأيت أنّ معاوية لو نُشر أكنت آخذاً رأيه .

نعم .

فأخرج سرجون عهد معاوية لعبيد الله بن زياد على الكوفة وقال له : هذا رأي معاوية ، وقد مات ، وقد أمر بهذا الكتاب [٢] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٢٤ .

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٦٨ .

واستجاب يزيد لرأي مستشار أبيه ، فعهد بولاية الكوفة إلى ابن زياد .

ولاية ابن زياد على الكوفة :

وكان يزيد ناقماً على ابن زياد وأراد عزله عن ولاية البصرة[١] وذلك لموقف أبيه زياد من يزيد ، فقد عذل أباه معاوية عن ترشيحه للخلافة من بعده .

وعلى أي حال فقد عهد يزيد بولاية البصرة والكوفة إلى ابن زياد ، وبذلك فقد خضع العراق بأسره لحكمه ، وكتب إليه ما يلي :

أمّا بعد : فقد كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشقّ عصا المسلمين ، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة ، فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة ، حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه ، والسلام[٢] .

وبعث إليه برسالة أُخرى يطلب فيها الإسراع منه إلى الكوفة ، وقد جاء فيها : إن كان لك جناحان فطر إلى الكوفة . .[٣] .

وحمل رسالة يزيد مسلم بن عمرو الباهلي إلى ابن زياد ، وأخذ يجدّ في السير حتى انتهى إلى البصرة فسلّم الرسالة إلى ابن زياد ، وقد طار فرحاً فقد تمّ له الحكم على جميع العراق بعدما كان مهدّداً بالعزل عن ولاية البصرة .

ابن زياد في الكوفة :

وسار ابن زياد إلى الكوفة وقد قطع الطريق بسرعة خاطفة فكان يسير ليلاً ونهاراً مخافة أن يسبقه الحسين إليها ، وقد صحب معه خمسمائة رجل من أهل البصرة كان

---

(١) البداية والنهاية ٨ : ١٥٢ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٣٥٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ : ٢٠١ .

فيهم شريك بن الأعور الحارثي وهو من خلص أصحاب الإمام الحسين[١] . وقد لبس ثياباً يمانية وعمامة سوداء ليوهم من رآه أنّه الحسين ، ودخل الكوفة ممّا يلي النجف ، وأسرع نحو قصر الامارة وهو فزع مذعور مخافة أن يعرفه الناس ، وساءه كأشدّ ما يكون الاستياء من تباشير الناس بقدومه ظانّين أنّه الحسين .

وانتهى ابن مرجانة إلى باب القصر فوجده مغلقاً ، والنعمان بن بشير حاكم الكوفة قد أشرف من أعلى القصر ، وقد توهّم أنّ القادم هو الحسين لأنّ أصوات الجماهير قد تعالت بالترحيب به والهتاف بحياته فانبرى مخاطباً له :

ما أنا بمؤدّ إليك أمانتي يابن رسول الله ، وما لي في قتالك من إرب .

ولمس ابن مرجانة الضعف والانهيار في كلام النعمان فصاح به :

افتح لا فتحت فقد طال ليلك .

ولمّا تكلّم عرفه الناس فصاحوا إنّه ابن مرجانة وربّ الكعبة ، وجفل الناس وخافوا وهربوا مسرعين إلى دورهم . وبادر ابن زياد في ليلته فاستولى على المال والسلاح ، وأنفق ليله ساهراً قد جمع حوله عملاء الحكم الأُموي وهم يحدّثونه عن الثورة ، ويعرّفونه بأعضائها البارزين ، ويضعون أمامه المخططات الرهيبة للقضاء عليها .

وقام ابن زياد في الصباح الباكر فأمر عملاءه بجمع الناس في المسجد الأعظم ، فاجتمعت الجماهير الحاشدة وقد خيّم عليها الذعر والخوف ، وخرج ابن زياد متقلّداً سيفه ومعتمّاً بعمامة ، فاعتلى المنبر وخطب الناس ، وكان من جملة خطابه :

أمّا بعد : فإنّ أمير المؤمنين يزيد ـ أصلحه الله ـ ولّاني مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم ، والإحسان إلى سامعكم

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ١٩٩ .

ومطيعكم ، وبالشدّة على مريبكم ، فأنا لمطيعكم كالوالد البارّ الشفيق ، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي ، فليتّق امرؤ على نفسه الصدق ينبئ عنك لا الوعيد . . [١] .

وقام بنشر الإرهاب وإشاعة الخوف بين الناس ، ويقول بعض المؤرخين : إنّه لمّا أصبح ابن زياد ـ بعد قدومه إلى الكوفة ـ صال وجال وأرعد وأبرق ، وأمسك جماعة من أهل الكوفة فقتلهم في الساعة . . . [٢] .

وفي اليوم الثاني أمر بجمع الناس ، وخرج إليهم بزيّ غير ما كان يخرج به ، فخطب خطاباً عنيفاً تهدّد فيه وتوعد ، وقال :

أمّا بعد : فإنّه لا يصلح هذا الأمر إلّا في شدّة من غير عنف ولين من غير ضعف ، وأن آخذ البريء بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، والولي بالولي . . .

فردّ عليه رجل من أهل الكوفة يقال له أسد بن عبدالله المري قائلاً :

أيّها الأمير ، إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إنّما المرء بجده ، والفرس بشده ، وعليك أن تقول علينا أن نسمع ، فلا تقدم فينا السيّئة قبل الحسنة .

وأفحم ابن زياد فنزل عن المنبر ودخل قصر الامارة [٣] .

مسلم في بيت هانئ :

وبعدما كان مسلم في بيت المختار اضطر إلى تغيير مقرّه ، فقد شعر بالخطر الذي داهمه بقدوم الطاغية ابن مرجانة ، فهو يعلم أنّ هذا الوغد لا يتحرّج من اقتراف أي جريمة في سبيل الوصول إلى أهدافه .

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ٩٧ .

(٢) الفصول المهمّة : ١٩٧ .

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ١٦٠ .

والتجأ مسلم إلى دار الزعيم الكبير زعيم الكوفة هانئ بن عروة فهو سيّد مراد ، وعنده من القوة ما يضمن حماية مسلم ، فاتّخذ داره معقلاً للثورة ومركزاً للدعوة ، وقد قابله هانئ بمزيد زائد من الحفاوة والتكريم ، وأخذ الكوفيون يتوافدون على مسلم زرافات ووحداناً ، وهم يلحّون عليه أن يكتب إلى الإمام الحسين عليه‌السلام بالمجيء إليهم .

التجسّس على مسلم :

وأوّل بادرة وأخطرها قام بها ابن زياد هي التجسّس على مسلم ، ومعرفة نشاطاته السياسية ، والوقوف على نقاط القوة والضعف عنده ، وقد اختار للقيام بهذه المهمة معقلاً مولاه ، وكان فطناً ذكياً ، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم وأمره أن يتّصل بالشيعة ، ويعرّفهم أنّه من أهل الشام وأنّه من موالي ذي الكلاع الحميري ، وإنّما أمره بالانتساب للموالي لأنّ الصبغة السائدة لهم هي الولاء لأهل البيت عليهم‌السلام ، وقال له : إذا التقيت بأحد من الشيعة فقل له : إنّه ممّن أنعم الله عليه بحبّ أهل البيت ، وقد سمع أنّه قدم رجل منهم إلى الكوفة يدعو للإمام الحسين ، وعنده مال يريد أن يلقاه ليوصله إليه حتى يستعين به على حرب عدوّه ، ومضى معقل في مهمّته ، فدخل الجامع الأعظم ، وجعل يسأل عمّن له معرفة بمسلم فأرشدوه إلى مسلم بن عوسجة ، وهو من ألمع شخصيات الشيعة في الكوفة ، فانبرى إليه يظهر الإخلاص والولاء لأهل البيت عليهم‌السلام قائلاً :

إنّي أتيتك لتقبض منّي هذا المال ، وتدلّني على صاحبك لأبايعه ، وإن شئت أخذت بيعتي قبل لقائي إيّاه .

وخدع مسلم بقوله ، فقال له : لقد سرّني لقاؤك إيّاي لتنال الذي تنال والذي تحبّ ، وينصر الله بك أهل نبيّه ، وقد ساءني معرفة الناس إيّاي من قبل أن يتمّ مخافة هذا الطاغية وسطوته ، ثمّ أخذ منه البيعة والمواثيق المغلظة على النصيحة

وكتمان الأمر[١] .

وفي اليوم الثاني أدخله على مسلم فبايعه وأخذ منه المال وأعطاه إلى أبي ثمامة الصائدي ، وكان موكّلاً بقبض المال ليشتري به السلاح والكلاع ، وكان هذا الجاسوس الخطير معقل أوّل داخل على مسلم وآخر خارج منه ، وقد أحاط بجميع أسرار الثورة ونقلها إلى ابن زياد ، حتى وقف على جميع مخططات الثورة وأعضائها .

اعتقال هانئ :

وعرف ابن زياد أنّ أهم أعضاء الثورة هانئ بن عروة الزعيم الكبير ، وفي بيته مسلم ابن عقيل ، فأرسل وفداً خلفه كان منهم حسان بن أسماء بن خارجة زعيم فزارة ، ومحمّد بن الأشعث زعيم كندة ، وعمرو بن الحجاج وهو من زعماء مذحج ، ولمّا التقوا به قالوا له :

ما يمنعك من لقاء الأمير فإنّه قد ذكرك وقال : لو علم أنّه شاك لعدته . . .

فاعتذر لهم ، وقال : الشكوى تمنعني ، فلم يقنعوا بذلك ، وأخذوا يلحّون عليه في زيارته ، فاستجاب لهم على كره وسار معهم ، فلمّا كان قريباً من القصر أحسّت نفسه بالشرّ ، فقال لحسان بن أسماء : يابن الأخ ، إنّي والله لخائف من هذا الرجل فما ترى ؟ فقال له حسان : يا عمّ ، والله ما أتخوّف عليك شيئاً ، ولم تجعل على نفسك سبيلاً ، وأخذ القوم يلحّون عليه بمقابلة ابن مرجانة ، فاستجاب لهم ، ولمّا مثل أمامه استقبله ابن مرجانة بعنف ، وقال له :

أتتك بخائن رجلاه .

وذعر هانئ فقال له :

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٦٩ .

ما ذاك أيّها الأمير ؟ .

فصاح به الطاغية :

إيه يا هانئ ما هذه الأمور التي تتربّص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين ، جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك ، وظننت أنّ ذلك يخفى عليّ .

فانكر هانئ وقال :

ما فعلت ذلك ، وما مسلم عندي .

بلى ، قد فعلت .

وطال النزاع واحتدم الجدال بينهما ، فرأى ابن زياد أن يحسم النزاع فدعا الجاسوس معقلاً ، فلمّا مثل أمامه قال لهانىء :

أتعرف هذا ؟

نعم .

وأسقط ما في يدي هانئ ، وأطرق برأسه إلى الأرض ، ولكن سرعان ما سيطر على الموقف ، فقال لابن مرجانة :

قد كان الذي بلغك ، ولن أضيع يدك عندي[1] تشخص لأهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم فإنّه جاء حقّ من هو أحقّ من حقّك وحقّ صاحبك[2] .

وثار ابن زياد فرفع صوته :

والله لا تفارقني حتى تأتيني به ـ أي بمسلم ـ .

وسخر منه هانئ ، وردّ عليه :

لا آتيك بضيفي أبداً .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٧١ .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٧ .

وطال الجدال بين هانئ وبين ابن مرجانة ، فانبرى مسلم بن عمر الباهلي وهو من خدام السلطة إلى ابن زياد طالباً منه أن يختلي بهانىء ليقنعه ، فسمح له بذلك فاختلى به ، وقال له : يا هانئ ، أنشدك الله أن لا تقتل نفسك ، وتدخل البلاء على قـومك ، إنّ هـذا الرجـل ـ يـعني مسـلماً ـ ابـن عـمّ القـوم ، وليسـوا بـقاتليه ، ولا ضائريه ، فادفعه إليه ، فليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة ، إنّما تدفعه إلى السلطان .

ولم يحفل هانئ بهذا المنطق الرخيص فهو على علم لا يخامره شكّ أنّ ابن زياد لو ظفر بمسلم لقطّعه إرباً ، ومن الطبيعي أنّ ذلك يعود بالعار والخـزي عـلى هانئ ، فكيف يسلّم وافد آل محمّد إلى هذا الإنسان الممسوخ ، وقال هانئ :

بلى والله عليّ في ذلك أعظم العار أن يكون مسلم في جواري وضيفي وهو رسول ابن بنت رسول الله ﷺ وأنا حيّ صحيح الساعدين ، كثير الأعوان ، والله لو لم أكن إلّا وحدي لمّا سلّمته أبداً .

وحفل كلام هانئ بمنطق الأحرار الذين وهبوا حياتهم للـمُثل العـليا والقـيم الكريمة . . ولمّا يئس الباهلي من هانئ قال لابن زياد :

أيّها الأمير ، قد أبى أن يسلّم مسلماً أو يقتل[1] .

والتفت الطاغية إلى هانئ فصاح به :

أتأتيني به أو لأضربنّ عنقك .

فلم يعبأ به هانئ ، وقال :

إذن تكثر البارقة حولك[2] .

فثار ابن مرجانة وقال :

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٣٧٥ .

(٢) البارقة : السيوف .

والهفا عليك أبالبارقة تخوفّني .

وصاح بغلامه مهران وقال له : خذه ، فأخذ بضفيرتي هانئ ، وأخذ ابن زياد القضيب فاستعرض به وجهه ، وضربه ضرباً قاسياً حتى كسر أنفه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى تحطّم القضيب ، وسالت الدماء على ثيابه ، وعمد هانئ إلى قائم سيف شرطي محاولاً اختطافه ليدافع به عن نفسه فمنعه منه ، فصاح به ابن زياد :

احروري أحللت بنفسك ، وحلّ لنا قتلك .

ثمّ أمر ابن زياد باعتقاله في أحد بيوت القصر[1] ، وانتهى خبره إلى أُسرته من مذحج ، وهي من أكثر قبائل الكوفة عدداً ، إلّا أنّها لم تكن متماسكة ، وقد شاعت الانتهازية في جميع أفرادها .

وعلى أي حال ، فقد سارعت مذحج بقيادة العميل الخائن عمرو بن الحجاج وقد رفع عقيرته لتسمعه السلطة قائلاً :

أنا عمرو بن الحجاج وهذه فرسان مذحج ووجوهها ، لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة .

ولم يعن به ابن زياد ولا بقومه ، فالتفت إلى شريح القاضي فقال له :

ادخل على صاحبهم فانظر إليه ثم اخرج إليهم فأعلمهم أنّه حيّ .

وخرج شريح فدخل على هانئ فلمّا نظر إليه صاح مستجيراً :

يا للمسلمين ، أهلكت عشيرتي ، أين أهل الدين ؟ أين أهل المصر ؟

والتفت هانئ إلى شريح فقال له :

يا شريح ، إنّي لأظنّها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين ، إنّه إن دخل عليّ عشرة أنفر أنقذوني .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٧١ .

ولم يحفل شريح بكلام هانئ ، وإنّما مضى منفذاً لأمر سيّده ابن مرجانة فخاطب مذحج قائلاً:

قد نظرت إلى صاحبكم وإنّه حيّ لم يُقتل .

وبادر عمرو بن الحجّاج قائلاً:

إذاً لم يُقتل فالحمد لله[1] .

وولّوا منهزمين كأنّما أُتيح لهم الخلاص من سجن ، وقد صحبوا معهم الخزي والعار ، وانطلقت الألسنة بذمّهم ، وقد ذمّهم شاعر أخفى اسمه حذراً من بطش الأمويّين ونقمتهم قال:

إِلىٰ بَطَلٍ قَدْ هَشَّمَ السَّيْفُ وَجْهَهُ ... وَآخَرُ يُهْوىٰ مِنْ طَمَارٍ قَتِيلِ[2]

أَصَابَهُمَا فَرْخُ الْبَغِيِّ فَأَصْبَحَا ... أَحَادِيثَ مَنْ يَسْرِيَ بِكُلِّ سَبِيلِ

تَرىٰ جَسَداً قَدْ غَيَّرَ الْمَوْتُ لَوْنَهُ ... وَنَضِحُ دَمٍ قَدْ سَالَ كُلَّ مَسِيلِ

فَتىً كَانَ أَحْيىٰ مِنْ فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ ... وَأَقْطَع مِنْ ذِي شَفْرَتَيْنَ صَقِيلِ

أَيَرْكَبُ أَسْمَاءُ الْهَمَالِيجَ آمِناً ... وَقَدْ طَلِبْتَهُ مِذْحِجُ بِذُحُولِ[3]

تَطُوفُ حَوَالِيهِ مُرَادٌ وَكُلُّهُم ... عَلىٰ رَقْبَةٍ مِنْ سَائِلٍ وَمَسُولِ

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَثَارُوا بِأَخِيكُم ... فَكُونُوا بَغَايَا أُرْضِيَتْ بِقَلِيلِ[4]

فَإِنْ كُنْتِ لَا تَدْرِينَ مَا الْمَوْتُ فَانْظُرِي ... إِلىٰ هَانِي فِي السُّوقِ وَابْنِ عَقِيلِ

لقد تنكّرت مذحج لزعيمها الكبير فلم تفِ له حقوقه ومعروفه الذي أسداه عليها ، وتركته أسيراً بيد ابن مرجانة يمعن في إرهاقه والتنكيل به حتى أعدمه في

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٧١ .

(٢) الطمار : اسم لغرفة شيّدت فوق قصر الامارة وفي أعلاها قتل مسلم .

(٣) الهماليج : جمع هملاج ، نوع من البرذون .

(٤) مروج الذهب ٢ : ٧٠ ، والشاعر مجهول .

وضح النهار بمرأى ومسمع منهم .

ثورة مسلم:

ولمّا علم مسلم بما جرى على هانئ بادر لإعلان الثورة على ابن زياد ، فأوعز إلى عبدالله بن حازم أن ينادي في أصحابه وقد ملأ بهم الدور ، فاجتمع إليه أربعة آلاف[١] ، وقيل : أربعون ألفاً[٢] ، وكانوا ينادون بشعار المسلمين يوم بدر : (يا منصور أمت) ، وأسند القيادات العامة في جيشه إلى أحبّ الناس لأهل البيت عليهم السلام وهم :

١ ـ عبدالله بن عزيز الكندي : جعله على ربع كندة .

٢ ـ مسلم بن عوسجة : جعله على ربع مذحج .

٣ ـ أبو ثمامة الصائدي : جعله على ربع قبائل بني تميم وهمدان .

٤ ـ العباس بن جعدة الجدلي : جعله على ربع المدينة .

واتّجه مسلم بجيشه نحو قصر الإمارة فأحاطوا به[٣] .

وكان ابن مرجانة قد خرج من القصر ليخطب في الناس على أثر اعتقاله لهانيء ، ولمّا دخل الجامع الأعظم قام خطيباً فقال :

أمّا بعد يا أهل الكوفة ، فاعتصموا بطاعة الله ورسوله ، وطاعة أئمّتكم ولا تختلفوا ولا تفرقوا فتهلكوا وتذلوا وتندموا وتقهروا ، فلا يجعلن أحد على نفسه سبيلاً وقد أعذر من أنذر .

وما أتمّ الطاغية خطابه حتى سمع الصيحة وأصوات الناس قد علت فسأل عن ذلك فقيل له : الحذر الحذر ، هذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جميع من بايعه ،

---

(١) (٣) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٧١ .

(٢) تهذيب التهذيب ٢ : ٣٥١ .

واختطف الرعب لونه فأسرع الجبان يلهث كالكلب من شدّة الخوف فدخل القصر وأغلق عليه أبوابه[١] .

وامتلأ المسجد والسوق من أصحاب مسلم ، وضاقت الدنيا على ابن زياد ، وأيقن بالهلاك ، إذ لم تكن عنده قوة تحميه سوى ثلاثين رجلاً من الشرطة وعشرين رجلاً من الأشراف والوجوه الذين هم عملاء السلطة[٢] .

حرب الأعصاب :

ولم يجد الطاغية وسيلة يلجأ إليها لإنقاذه سوى حرب الأعصاب ، فأوعز إلى عملائه بإشاعة الخوف والرعب بين أصحاب مسلم ، وانبرى للقيام بهذه المهمة من يلي من عملائه وهم :

١ ـ كثير بن شهاب الحارثي .

٢ ـ القعقاع بن شور الذهلي .

٣ ـ شبث بن ربعي التميمي .

٤ ـ حجار بن أبجر .

٥ ـ شمر بن ذي الجوشن الضبابي[٣] .

وأسرع هؤلاء العملاء إلى صفوف جيش مسلم فأخذوا ينشرون الخوف والأراجيف ، ويظهرون لهم الحرص والولاء لهم ، وكان ممّا قاله كثير بن شهاب :

أيّها الناس ، إلحقوا بأهاليكم ، ولا تعجّلوا بالشرّ ، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل ، فإنّ هذه جنود أمير المؤمنين ـ يعني يزيد ـ قد أقبلت ، وقد أعطى الله الأمير

---

(١) البداية والنهاية ٨ : ١٥٤ .

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٧١ .

(٣) المصدر السابق ٣ : ٢٧٢ .

ـ يعني ابن زياد ـ العهد لئن أقمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيّتكم ، أن يحرم ذرّيتكم العطاء ، ويفرّق مقاتلكم في مغازي أهل الشام من غير طمع ، وأن يأخذ البريء بالسقيم والشاهد بالغائب ، حتى لا تبقى فيكم بقية من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جنت أيديها . .[١] .

وكان هذا الكلام كالصاعقة على رؤوس أهل الكوفة ، فقد سرت فيهم أوبئة الخوف وانهارت معنوياتهم ، وجعل بعضهم يقول لبعض : ما نصنع بتعجيل الفتنة وغداً تأتينا جموع أهل الشام ينبغي لنا أن نقيم في منازلنا ، وندع هؤلاء القوم حتى يصلح الله ذات بينهم[٢] .

وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها أو زوجها وهي مصفرّة الوجه من الخوف فتخذّله وتقول له : الناس يكفونك[٣] .

وقد نجح ابن زياد في هذه الخطّة إلى حدّ بعيد .

هزيمة جيش مسلم :

ومُني جيش مسلم بهزيمة ساحقة بعد حرب الأعصاب والدعايات المضلّلة ، لقد انهزم جيشه من دون أن يكون قباله أيّة قوة عسكرية ، ويقول المؤرخون : إنّ مسلماً كلّما انتهى إلى زقاق انهزم جماعة من أصحابه ، وهم يقولون :

« ما لنا والدخول بين السلاطين . . »[٤] .

ولم يمض قليل من الوقت حتى انهزم معظمهم يصحبون الخزي والعار ، وصلّى ابن عقيل صلاة العشاء في الجامع الأعظم ، فكان من بقي من جيشه يفرّون

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٠٨ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٣٨٤ .

(٣) تاريخ أبي الفداء ١ : ٣٠٠ .

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٣٨٥ .

في أثناء الصلاة ، وما أنهى مسلم صلاة العشاء حتى انهزموا جميعاً قادةً وجنوداً ، ولم يبق منهم أحد يدلّه على الطريق ، وبقي حيراناً لا يدري إلى أين مسراه ومولجه ، فقد أمسى طريداً مشرّداً لا مأوى يأوي إليه ، ولا قلب يعطف عليه .

في ضيافة طوعة :

وسار مسلم في أزقة الكوفة وشوارعها ، ومضى هائماً على وجهه في جهة كندة يلتمس داراً ليبقى فيها بقية الليل ، وقد خلت المدينة من المارة ، فقد أسرع جنده إلى دورهم ، وأغلقوا عليهم الأبواب مخافة أن تعرفهم مباحث الأمن وعيون ابن زياد فتخبر السلطة بأنّه كان مع ابن عقيل فتلقي عليه القبض .

وسار مسلم وهو خائر القوى قد أحاطت به تيارات مذهلة من الهموم والأفكار ، وقد انتهى في مسيرته إلى باب سيّدة يقال لها (طوعة) وهي سيدة مَن في المصر رجالاً ونساءً وذلك بما تملكه من شرف ونبل ، وكانت أم ولد للأشعث بن قيس أعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له ولداً يقال له بلال ، وكانت طوعة تنتظره خوفاً عليه من الأحداث الرهيبة ، ولمّا رآها مسلم بادر إليها فسلّم عليها فردّت عليه السلام ، وقالت له :

ما حاجتك ؟

« اسقني ماءً . . » .

فبادرت المرأة إلى دارها وجاءته بالماء فشرب منه ، ثمّ جلس ، فارتابت منه ، وقالت له :

ألم تشرب الماء ؟

« بلى » .

اذهب إلى أهلك إنّ مجلسك مجلس ريبة . .[1] .

---

(١) تهذيب التهذيب ١ : ١٥١ .

وسكت مسلم فأعادت عليه القول وهو ساكت فلم يجبها ، فذعرت منه وقالت له :

سبحان الله . . إنّي لا أحلّ لك الجلوس على باب داري .

ولمّا حرّمت عليه الجلوس لم يجد بُدّاً من الانصراف عنها ، فقال بصوت خافت حزين النبرات :

« ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل لك في أجر ومعروف ، ولعلّي مكافئك بعد هذا اليوم . . » .

وشعرت المرأة بأنّ الرجل غريب وأنّه على شأن كبير يستطيع أن يجازيها على معروفها وإحسانها فقالت له :

وما ذاك ؟

« أنا مسلم بن عقيل كذّبني القوم وغرّوني . . » .

فدهشت المرأة وقالت له :

أنت مسلم !!

« نعم . . »[١] .

وانبرت السيّدة بكل خضوع وتقدير فسمحت لضيفها الكبير بالدخول إلى دارها وقد حازت الشرف والفخر ، وعرضت عليه الطعام فأبى أن يأكل ، فقد مزّق الأسى قلبه ، وتمثّلت أمامه الأحداث الرهيبة التي سيواجهها ، وكان أهمّ ما شغل فكره كتابه إلى الإمام الحسين بالقدوم إلى الكوفة .

ولم يمض قليل من الوقت حتى جاء بلال ابن السيّدة طوعة فرأى أُمّه تكثر الدخول والخروج إلى البيت الذي فيه مسلم فاستراب من ذلك ، فسألها عنه فلم تجبه ، فألحّ عليها فأخبرته بالأمر بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق بكتمان

---

(١) تاريخ أبن الأثير ٣ : ٢٧٢ .

الأمر ، وطارت نفس الخبيث فرحاً وسروراً ، وقد أنفق ليله ساهراً يترقّب طلوع الشمس ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم ، وقد تنكر هذا الوغد الخبيث للأخلاق العربية التي تلزم بقرى الضيف وحمايته من كل سوء ، ولكن هذا القزم على غرار أهل الكوفة الذين طلّقوا المعروف ثلاثاً ، راح مسرعاً وقد ملك الفرح فؤاده نحو قصر الامارة ، وكان بحالة من الارتباك تلفت النظر ، فلمّا دخل القصر بادر عبدالرحمن بن محمّد بن الأشعث ، وهو من أخبث اُسرة عرفها التأريخ ، فأعلمه بمكان مسلم ، فأمره بالسكوت لئلا يفشى بالخبر فينقله غيره إلى ابن مرجانة فتفوت جائزته ، وأسرع عبدالرحمن إلى أبيه محمّد بن الأشعث فأخبره بالأمر ، وفطن ابن زياد إلى خطورة الأمر فالتفت إلى ابن الأشعث فقال له :

ما قال لك عبدالرحمن ؟

أصلح الله الأمير البشارة العظمى .

ما ذاك مثلك من بشّر بخير .

إن ابني هذا يخبرني أنّ مسلم بن عقيل في دار طوعة .

وفرح ابن مرجانة وتمّت بوارق آماله وأحلامه ، فراح يمدّ ابن الأشعث بالمال والجاه قائلاً :

قم فآتني به ، ولك ما أردت من الجائزة والحظ الأوفى .

لقد تمكّن ابن مرجانة سليل البغايا والأدعياء من الظفر بفخر هاشم ومجد عدنان ليجعله قرباناً إلى اُمويّته اللصيقة .

الهجوم على مسلم :

وندب ابن مرجانة لحرب مسلم ، عمرو بن حريث المخزومي صاحب شرطته ومحمّد بن الأشعث ، وضمّ إليهما ثلثمائة رجل من صناديد الكوفة وفرسانها ، وأقبلت تلك الوحوش الكاسرة مسرعة لحرب القائد العظيم الذي أراد أن يحرّرهم

من الذلّ والعبودية ويقيم فيهم عدالة الإسلام وحكم القرآن .

ولمّا سمع مسلم حوافر الخيل وزعقات الرجال علم أنّه قد أُتي إليه ، فبادر إلى فرسه فأسرجه وألجمه وصبَّ عليه درعه وتقلّد سيفه ، وشكر السيّدة طوعة على حسن ضيافتها ورعايتها له .

واقتحم الجيش عليه الدار فشدّ عليهم يضربهم بسيفه ففرّوا منهزمين ، ثمّ عادوا عليه فأخرجهم منها ، وانطلق نحوهم في السكة شاهراً سيفه لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب ، وقد أبدى من البطولات النادرة ما لم يشاهد مثله في جميع فترات التأريخ ، وقد قتل منهم واحداً وأربعين رجلاً[1] ، وكان من قوّته النادرة أن يأخذ الرجل بيده ويرمي به من فوق البيت[2] وليس في تأريخ الإنسانية مثل هذه البطولة ، ولا مثل هذه القوة الخارقة .

وجعل أنذال أهل الكوفة يصعدون فوق بيوتهم ويرمونه بالحجارة وقذائف النار[3] .

وفشلت جيوش ابن مرجانة من مقاومة البطل العظيم ، فقد أشاع فيهم القتل ، وطلب محمّد بن الأشعث من سيّده ابن مرجانة أن يمدّه بالخيل والرجال فلامه الطاغية ، وقال :

سبحان الله ! ! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به ، فثلم في أصحابك هذه الثلمة العظيمة[4] .

وثقل ذلك على ابن الأشعث ، وقال لابن مرجانة :

أتظنّ أنّك أرسلتني إلى بقّال من بقّالي الكوفة ، أو إلى جرمقاني من جرامقة

---

(١) الدرّ النضيد : ١٦٤ .

(٢) المحاسن والمساوئ ـ البيهقي ١ : ٤٣ .

(٣) حياة الإمام الحسين عليه‌السلام ٢ : ٣٩٤ .

(٤) الفتوح ٥ : ٦٣ .

الحيرة[١] وإنّما بعثتني إلى أسد ضرغام وسيف حسام في كفّ بطل همام من آل خير الأنام . . »[٢] .

وأمده ابن مرجانة بقوى مكثّفة فجعل البطل العظيم يحصد رؤوسهم بسيفه ، وهو يرتجز :

أقسمت أن لا أُقتل إلّا حرّاً	وإن رأيت الموت شيئاً نكرا
أو يخلط البارد سخناً مرّاً	ردّ شعاع الشمس فاستقرا
كلّ امرئ يوماً يلاقي شرّاً	أخاف أن أكذب أو أغرا[٣]

ولمّا سمع الخائن العميل محمّد بن الأشعث هذا الشعر من مسلم رفع صوته قائلاً :

إنّك لا تكذب ولا تخدع ، إنّ القوم بنو عمّك ، وليسوا بقاتليك ولا ضاريك .

فلم يحفل به مسلم ، ومضى يقاتلهم أعنف القتال وأشده ، ففروا منهزمين لا يلوون على شيء ، واعتلوا فوق منازلهم يرمونه بالحجارة ، فأنكر عليهم مسلم قائلاً :

« ويلكم ما لكم ترمونني بالحجارة كما تُرمى الكفار ، وأنا من أهل بيت الأبرار ، ويلكم أما ترعون حقّ رسول الله ﷺ وذريّته . . » .

وضاق بابن الأشعث أمر مسلم فصاح بالجيش ذروه حتى أُكلّمه فدنا منه ، وقال له :

يابن عقيل ، لا تقتل نفسك أنت آمن ، ودمك في عنقي .

ولم يعن به مسلم ، فقد عرفه وعرف قومه أنّهم لا وفاء ولا دين لهم ،

---

(١) الجرامقة : قوم من العجم صاروا إلى الموصل .

(٢) الفتوح ٥ : ٩٣ .

(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢ : ٣٩٥ ، نقلاً عن الطبري : ٦٣ ، الفتوح ٥ : ٩٤ ـ ٩٥ .

وأجابه :

« يابن الأشعث لا أعطي بيدي أبداً وأنا أقدر على القتال ، والله لا كان ذلك أبداً » .

وحمل مسلم على ابن الأشعث فولّى منهزماً يطارده الرعب والخوف ، واشتدّ العطش بمسلم فجعل يقول :

« اللّهمّ إنّ العطش قد بلغ منّي . . » .

وتكاثرت عليه الجموع فصاح بهم ابن الأشعث : إنّ هذا هو العار والفشل أن تجزعوا من رجل واحد هذا الجزع ، احملوا عليه بأجمعكم حملة واحدة ، فحملوا عليه ضرباً بأسيافهم وطعناً برماحهم وضربه الوغد الأثيم بكر بن حمران ضربة منكرة على شفته العليا وأسرع السيف إلى الأسفل ، وضربه مسلم ضربة أردته إلى الأرض .

أسره :

وبعدما أثخن مسلم بالجراح وأعياه نزف الدم ، انهارت قواه وضعف عن المقاومة ، فوقع أسيراً بأيدي أولئك الفجرة الكفار ، وانتزعوا منه سيفه ، وحملوه أسيراً إلى ابن مرجانة ، وكان من أعظم ما رزىء به مسلم أن يدخل أسيراً على أقذر إرهابي عرفه التأريخ ، ولمّا دخل لم يسلّم عليه بالإمرة ، وإنّما سلّم على الجميع ، فأنكر عليه بعض خدّام السلطة ذلك ، فأجابه أنّه ليس لي بأمير ، فتميّز ابن مرجانة غيظاً وغضباً ، وقال له : سلّمت أو لم تسلّم فإنّك مقتول ، فردّ عليه مسلم بجواب أخرجه من إهابه ، وجرت مناورات كلامية بينهما ، وكانت أجوبة مسلم كالسهام على ابن مرجانة ، فلجأ إلى سبّه وسبّ العترة الطاهرة والافتراء عليهم ، ثمّ أمر أن يُصعد به من أعلى القصر وينفّذ فيه حكم الإعدام ، وقد استقبل مسلم الموت بثغر باسم ، وكان يسبّح الله ويستغفره وأشرف به الجلّاد على موضع الحذائيّين فضرب عنقه ،

ورمى برأسه وجسده إلى الأرض ، وانتهت بذلك حياة هذا المجاهد العظيم الذي وهب حياته لله ، واستشهد دفاعاً عن الحقّ ودفاعاً عن حقوق المظلومين والمضطهدين .

ثم أمر الطاغية السفاك بإعدام الزعيم الكبير هانئ بن عروة ، فأخرج من السجن في وضح النهار ، وجعل يستنجد بأسرته وكانوا بمرأى ومسمع منه فلم يستجب له أحد منهم ، وضربه الجلّاد بالسيف فلم يصنع به شيئاً ، فرفع هانئ صوته قائلاً :

اللّهمّ إلى رحمتك ورضوانك ، اللّهمّ اجعل هذا اليوم كفارة لذنوبي ، فإنّي إنّما تعصّبت لابن بنت نبيّك محمّد ﷺ ، وضربه الجلّاد ضربة أُخرى فهوى إلى الأرض ، وجعل يتخبّط بدمه الزاكي ، ولم يلبث قليلاً حتى فارق الحياة وقد مضى شهيداً دون مبادئه وعقيدته .

وعهد الطاغية الجلّاد إلى زبانيته بسحل جثة مسلم وهانئ في الشوارع والأسواق ، فعمدوا إلى شدّ أرجلهما بالحبال وأخذوا يسحلونهما في الطرق[1] وذلك لنشر الخوف والإرهاب ، وليكونا عبرةً لكل من تحدّثه نفسه بالخروج على حكم يزيد .

ثم قام ابن مرجانة باعتقالات واسعة لجميع العناصر الموالية لأهل البيت ، كما أعدم جماعة منهم ، وذكرنا تفصيل ذلك في كتابنا (حياة الإمام الحسين عليه السلام) .

لقد سمعت حفيدة الرسول ﷺ السيّدة زينب عليها السلام هذه المآسي المروّعة التي جرت على ابن عمّها مسلم ، فكوت قلبها وأضافتها إلى همومها ومصائبها ، وأيقنت أنّ شقيقها وبقية أهلها سيواجهون المصير الذي واجهه ابن عمّها .

---

(١) أنساب الأشراف ١ : ١٥٥ ، القسم الأوّل .

إلى العــراق

ورافقت عقيلة بني هاشم أخاها أبا الأحرار في مسيرته الخالدة لتكون معه في خندق واحد ، وتشاركه في جهوده وجهاده لحماية الإسلام ، وإنقاذ المسلمين من جـور الأمويين وظلمهم .

وقبل أن تغادر العقيلة الحجاز استأذنت من زوجها عبدالله بن جعفر أن يسمح لها بالسفر مع شقيقها سيّد الشهداء فأذن لها في ذلك ، وقبل أن يسافر الإمام دخل عليه عبدالله بن عباس ليعدله عن السفر إلى العراق ، فقال له الإمام :

« يابن عباس ، ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت نبيّهم من وطنه وداره وقراره وحرم جدّه ، وتركوه خائفاً مرعوباً ، لا يستقر في قرار ولا يأوي إلى جوار ، يريدون بذلك قتله وسفك دمه ، ولم يشرك بالله شيئاً ، ولم يرتكب منكراً ولا إثماً . . » .

فأجابه ابن عباس بصوت حزين النبرات قائلاً :

جعلت فداك يا حسين إن كان لا بدّ لك من المسير إلى الكـوفة فـلا تسـري بأهلك ونسائك .

فقال له الإمام الحسين :

« يابن العمّ ، إنّي رأيت رسول الله ﷺ في منامي ، وقد أمرني بأمر لا أقـدر على خلافه . . إنّه أمرني بأخذهن معي . يـابن العـمّ ، إنّـهن ودائـع رسـول الله ، ولا آمن عليهن أحداً . . » .

ويقول بعض الرواة : إنّ حفيدة الرسول ﷺ السيّدة زينب قالت لابن عباس

وهي باكية العين :

« يابن عباس ، تشير على شيخنا وسيّدنا أن يخلفنا هاهنا ويمضي وحده ، لا والله بل نحيا معه ونموت معه ، وهل أبقى الزمان لنا غيره . . » .

وأجهش ابن عباس في البكاء وجعل يقول :

يعزّ والله عليّ فراقك يابن العمّ[(١)] .

لقد كان من أروع ما خطّطه الإمام في ثورته الكبرى حمله عقيلة بني هاشم وسائر مخدرات الرسالة معه إلى العراق ، فقد كان على علم بما يجري عليهن من النكبات والخطوب ، وما يقمن به من دور مشرف في إكمال نهضته ، وإيضاح تضحيته ، وإشاعة مبادئه وأهدافه ، وقد قمن حرائر النبوة بإيقاظ المجتمع من سباته ، وأسقطن هيبة الحكم الأموي ، وفتحن باب الثورة عليه ، فقد ألقين من الخطب الحماسية ما زعزع كيان الدولة الأُموية .

لقد كان خروج العقيلة وسائر بنات رسول الله ﷺ ضرورة ملحّة لا غنى عنها ، فقد أخلدن نهضة أبي الأحرار ، يقول الإمام كاشف الغطاء : وهل تشكّ وترتاب في أنّ الحسين لو قتل هو وولده ، ولم يتعقبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحدّيات لذهب قتله جباراً ، ولم يطلب به أحد ثأراً ، ولضاع دمه هدراً فكان الحسين يعلم أن هذا عمل لابدّ منه ، وأنه لا يقوم به إلّا تلك العقائل فوجب عليه حتماً أن يحملهن معه لا لأجل المظلومية بسبيهن فقط ، بل لنظر سياسي وفكر عميق ، وهو تكميل الغرض ، وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد ، والمبادرة إلى القضاء عليها قبل أن تقضي على الإسلام ، ويعود الناس إلى جاهليتهم الأُولى[(٢)] .

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي : ثمّ رفض ـ يعني الحسين ـ إلّا أن

---

(١) زينب الكبرى : ٩٤ .

(٢) السياسة الحسينية : ٤٦ ـ ٤٧ .

يصحب معه أهله ليشهد الناس على ما يقترفه أعداؤه ممّا لا يبرّره دين ، ولا وازع من إنسانية ، فلا تضيع قضيّته مع دمه المراق في الصحراء ، فيفتري عليه أشد الافتراء حين يعدم الشاهد العادل على ما جرى بينه وبين أعدائه .

تقول الدكتورة بنت الشاطئ : أفسدت زينب أختُ الحسين على ابـن زيـاد وبني أمية لذّة النصر ، وسكبت قطرات من السمّ الزعاف في كؤوس الظافرين ، وأنّ كل الأحداث السياسية التي ترتّبت بعد ذلك من خروج المختار وثورة ابن الزبـير وسقوط الدولة الأُموية وقيام الدولة العباسية ثمّ تأصّل مذهب الشيعة إنّـما كـانت زينب هي باعثة ذلك ومثيرته[١] .

أُريد أن أقول : ماذا يكون الحال لو قتل الحسين ومن معه جميعاً من الرجال إلّا أن يسجّل التأريخ هذه الحادثة الخطيرة من وجهة نظر أعدائه فيضيع كل أثر لقضيته مع دمه المسفوك في الصحراء[٢] .

إنّ من ألمع الأسباب في استمرار خلود مأساة الإمام الحسين عليه السلام واستمرار فعالياتها في نشر الإصلاح الاجتماعي هو حمل عقيلة الوحي وبنات الرسول صلى الله عليه وآله مع الإمام الحسين ، فقد قمن ببلورة الرأي العام ، ونشرن مـبادئ الإمـام الحسـين وأسباب نهضته الكبرى ، وقد قامت السيّدة زينب عليها السلام بتدمير ما أحرزه يـزيد مـن الانتصارات ، وألحقت به الهزيمة والعار ، وسنوضح ذلك بـمزيد مـن البـيان فـي البحوث الآتية :

خطاب الحسين في مكة :

وأمر الإمام الحسين عليه السلام بجمع الناس من أهالي مكة ومن المعتمرين والحجّاج فيها ،

---

(١) بطلة كربلاء : ١٧٦ ـ ١٨٠ .

(٢) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية : ٣٤٣ .

فقام فيهم خطيباً فقال :

«الْحَمْدُ لِلهِ ، وَمَا شَاءَ اللهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَسَلَّمَ ، خُطَّ الْمَوْتُ عَلَىٰ وُلْدِ آدَمَ مَخَطَّ الْقِلَادَةِ عَلَىٰ جِيدِ الْفَتَاةِ ، وَمَا أَوْلَهَنِي إِلَىٰ أَسْلَافِي إِشْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَىٰ يُوسُفَ ، وَخَيْرَ لِي مَصْرَعُ أَنَا لَاقِيهِ ، كَأَنِّي بِأَوْصَالِي تَقَطَّعُهَا عُسْلَانُ[١] الْفَلَوَاتِ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ وَكَرْبَلَاءِ ، فَيَمْلَأْنَ مِنِّي أَكْرَاشاً جُوْفاً وَأَجْرِبَةً سَغْباً ، لَا مَحِيصَ عَنْ يَوْمٍ خُطَّ بِالْقَلَمِ ، رِضَى اللهِ رِضَانَا أَهْلَ الْبَيْتِ ، نَصْبِرُ عَلَىٰ بَلَائِهِ وَيُوَفِّينَا أَجْرَ الصَّابِرِينَ ، لَنْ تَشُذَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَحْمَتُهُ ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ فِي حَضِيرَةِ الْقُدْسِ ، تَقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ وَيُنْجَزُ بِهِمْ وَعْدُهُ ، مَنْ كَانَ بَاذِلاً فِينَا مُهْجَتَهُ ، وَمُوَطِّناً عَلَىٰ لِقَاءِ اللهِ نَفْسَهُ فَلْيَرْحَلْ مَعَنَا ، فَإِنَّنِي رَاحِلٌ مُصْبِحاً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ»[٢] .

ونعى الإمام نفسه في هذا الخطاب التأريخي الخالد ، واعتبر الشهادة في سبيل الله زينة للإنسان كالقلادة التي تكون زينة للفتاة ، كما أعلن عن شوقه العارم لملاقاة الله تعالى ، وأنّ اشتياقه للذين استشهدوا في سبيل الله كاشتياق يعقوب إلى يوسف .

وأخبر عليه السلام عن البقعة الطاهرة التي يستشهد فيها وهي ما بين النواويس وكربلاء فبها تقطّع أوصاله ويراق دمه الزاكي .

وعلى أي حال ، فقد حلّلنا هذا الخطاب وذكرنا أبعاده في كتابنا (حياة الإمام الحسين) .

---

(١) العسلان : هي الذئاب .

(٢) كشف الغمّة ٢ : ٢٤١ .

السفر إلى العراق:

وقبل أن يغادر الإمام مكة مضى إلى البيت الحرام فأدّى له التحية بطوافه وصلاته ، وبقي فيه حتى أدى صلاة الظهر ثمّ خرج مودّعاً له[١] .

وخرج الإمام من مكة وهو يحمل معه مخدرات الرسالة وعقائل النبوة ، وكان خروجه في اليوم الثامن من ذي الحجّة سنة ستّين من الهجرة[٢] ، وخيّم الحزن والأسى على أهل مكة وعلى حجاج بيت الله الحرام ، وكان الإمام لا ينزل منزلاً إلّا حدّث أهل بيته عن مقتل يحيى بن زكريا[٣] .

وسار موكب الإمام لا يلوي على شيء حتى انتهى إلى موضع يسمّى بـ« الصفاح » فالتقى بالشاعر الكبير الفرزدق فسلّم على الإمام ، وقال له :

بأبي أنت وأُمي يابن رسول الله ﷺ ما أعجلك عن الحجّ ؟

فأجابه الإمام عن سبب خروجه :

« لو لم أعجل لأخذت . . » .

إنّ السبب في خروج الإمام قبل أن يتمّ العمرة هو أنّ السلطة قد عهدت إلى عصابة منها باغتيال الإمام ، ولو كان متعلّقاً بأستار الكعبة ، فلذا سارع الإمام بالخروج من مكة . وبادر الإمام فسأل الفرزدق فقال له :

« من أين أقبلت يا أبا فراس . ؟ » .

من الكوفة .

« بيّن لي خبر الناس ؟ » .

على الخبير سقطت ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أُميّة ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ، وربّنا كل يوم هو في شأن[٤] .

---

(١) و (٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) خطط المقريزي ٢ : ٢٨٦ .

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٦٠ .

واستصوب الإمام كلام الفرزدق فقال له :

« صدقت للهالأمر من قبل ومن بعد ، يفعل الله ما يشاء وكل يوم ربّنا في شأن ، إن نزل القضاء بما نحبّ فنحمد الله على نعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يتعدّ من كان الحقّ نيّته والتقوى سريرته . . »[١] .

وواصل الإمام مسيرته الخالدة بعزم وثبات لم يثنه عن عزيمته قول الفرزدق في تخاذل الناس عنه ، وتجاوبهم مع بني أُميّة .

مع أبي هرّة :

وسار الإمام مع موكبه حتى انتهى إلى ذات عرق فخفّ إليه أبو هرة فقال له : يابن رسول الله ، ما الذي أخرجك من حرم الله وحرم جدك رسول الله ﷺ ؟

فأجابه الإمام بتأثّر قائلاً :

« وَيْحَكَ يَا أَبَا هِرَّةَ ، إِنَّ بَنِي أُمَيَّةَ أَخَذُوا مَالِي فَصَبَرْتُ ، وَشَتَمُوا عِرْضِي فَصَبَرْتُ ، وَطَلَبُوا دَمِي فَهَرَبْتُ ، وَأَيْمُ اللهِ لَتَقْتُلَنِي الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ ، وَلَيَلْبِسَنَّهُمُ اللهُ ذُلّاً شَامِلاً وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَلَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَذُلُّهُمْ ، حَتّىٰ يَكُونُوا أَذَلَّ مِنْ قَوْمِ سَبأٍ إِذْ مَلَكَتْهُمْ إِمْرَأَةٌ مِنْهُمْ فَحَكَمَتْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ . . »[٢] .

وانصرف الإمام وهو حزين من هؤلاء الناس الذين لا يملكون وعياً لنصرة الحقّ والدفاع عن الإسلام .

فزع السيّدة زينب :

وكانت السيّدة زينب عليها السلام فزعة حزينة قد ذابت نفسها أسى وحسرات ، فقد علمت

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٦٠.

(٢) المصدر السابق ٥ : ٦٤.

ما سيجري على أهلها من القتل فخفّت إلى أخيها حينما كانوا في الخزيمية ، وهي تقول له بنبرات مشفوعة بالبكاء :

« يا أخي إنّي سمعت هاتفاً يقول :

ألا يــا عـــين فــاحتفلي بـجهد فمن يـبكي عـلى الشـهداء بـعدي

عـــلى قـــوم تســـوقهم المـنايا بـــمقدار إلى إنـــجاز وعـــدي

فأجابها أبي الضيم غير حافل بما سيلقاه من النكبات والخطوب :

« يا أختاه كل الذي قضى فهو كائن »[١] .

لقد أراد الإمام من شقيقته أن تتسلّح بالصبر وأن تـقابل الرزايـا والمـصائب برباطة جأش وعزم حتى تقوى على أداء رسالته .

النبأ المروع بشهادة مسلم :

وانتهى النبأ المروّع بشهادة البطل مسلم بن عقيل إلى الإمام الحسين حينما كان في زرود ، فقد أقبل رجل من أهل الكوفة ، فلمّا رأى الحسين عدل عن الطريق فتبعه بعض أصحاب الإمام فالتقيا به وانتسبا له ، وسألاه عن خبر الكوفة ، فقال : إنّه لم يخرج منها حتى قتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة ، ورآهما يجرّان بأرجلهما في الأسواق ، وأسرعا إلى الإمام فقالا له :

رحمك الله ، إنّ عندنا خبراً إن شئت حدّثناك به علانية وإن شئت سرّاً .

ونظر الإمام إلى أصحابه فقال : « ما دون هؤلاء سرّاً » ، وأخبراه بما سمعاه من الرجل من شهادة مسلم وهانئ ، فكان هذا النبأ كالصاعقة على العلويّين فانفجروا بالبكاء على فقيدهم العظيم حتى ارتجّ الموضع من شدّة البكاء ، والتفت الإمام إلى بني عقيل فقال لهم :

---

(١) المناقب لابن شهرآشوب ٥ : ١٢٧ .

« ما ترون فقد قتل مسلم . . » .

ووثبت الفتية كالأسود الضاربة ، وهم يعلنون استهانتهم بالموت وتصميمهم على الشهادة قائلين :

لا والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا أو نذوق ما ذاق مسلم .

وراح الإمام يقول :

« لا خير في العيش بعد هؤلاء .

وتمثّل عليه السلام بهذين البيتين :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى	إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
فإن مت لم أندم وإن عشت لم ألم	كفى بك عاراً أن تذل وترغما[1]

لقد مضى إلى ساحات الجهاد مرفوع الرأس ، وهو على يقين لا يخامره شكّ في أنه يسير إلى الفتح الذي لا فتح ولا ظفر مثله .

رؤيا الإمام الحسين :

وخفق الإمام الحسين وقت الظهيرة فرأى رؤياً أفزعته ، فانتبه مذعوراً فأسرع إليه ولده مفخرة الإسلام علي الأكبر قائلاً :

« يا أبتِ ، ما لي أراك فزعاً ؟ » .

« رأيت رؤيا أفزعتني . . » .

« خيراً رأيت . . » .

« رأيت فارساً وقف عليَّ ، وهو يقول : أنتم تسرعون ، والمنايا تسرع بكم إلى الجنة ، فعلمت أن أنفسنا نعيت إلينا . . »[2] .

---

(١) الدرّ النظيم : ١٦٧ .

(٢) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ٢ : ٣٤٦ .

وبادر عليّ قائلاً:

« ألسنا على الحق . . » .

أجل يا فخر هاشم أنتم معدن الحقّ وأصله ومنتهاه ، وأجابه أبوه قائلاً:

« بلى والذي إليه مرجع أمر العباد . . » .

وطفق عليّ يلقي كلمته الذهبية الخالدة قائلاً:

« يا أبتِ ، لا نبالي بالموت . . » .

ووجد الإمام الحسين في ولده البارّ خير عون له على أداء رسالته الكبرى ، فشكره على ذلك قائلاً:

« جزاك الله يا بني خير ما جزى به ولد عن والده . . »[١] .

الالتقاء بالحرّ:

وانتهى ركب الإمام إلى شراف وفيها عين للماء ، فأمر الإمام فتيانه أن يستقوا من الماء ويكثروا منه ، ففعلوا ذلك ، ثمّ سارت قافلة الإمام تطوي البيداء ، فبادر رجل من أصحاب الإمام فكبّر ، فاستغرب الإمام وقال له :

« لِمَ كبّرت ؟ » .

رأيت النخل .

وأنكر عليه رجل ممّن خبر الطريق وعرفه فقال له :

ليس هاهنا نخل ، ولكنها أسنة الرماح وآذان الخيل .

وتأمّلها الإمام الحسين ، فقال : « وأنا أرى ذلك » ، وعرف الإمام أنّها طلائع الجيش الأُموي جاءت لإلقاء القبض عليه ، فقال لأصحابه :

« أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورنا ، ونستقبل القوم من وجه واحد » .

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ١١١ .

فقال له بعض أصحابه : هذا ذو حسم[١] إلى جنبك تميل إليه عن يسارك ، فإن سبقت إليه فهو كما تريد . . ومال ركب الإمام إليه ، فلم يسيروا إلّا قليلاً حتى أدركهم جيش مكثّف بقيادة الحرّ بن يزيد الرياحي ، وكان ابن مرجانة قد عهد إليه أن يجوب في صحراء الجزيرة للتفنيش عن الإمام ، وكان عدد ذلك الجيش ألف فارس بقيادة الحرّ بن يزيد الرياحي ، ووقفوا قبال الإمام ، وكان الوقت شديد الحرّ ، وقد أشرفوا على الهلاك من شدّة العطش فرقّ عليهم الإمام ، وغضّ نظره من أنّهم جاؤوا لقتاله وسفك دمه ، فأمر أصحابه وأهل بيته أن يسقوهم الماء ، ويرشفوا خيولهم وقام أصحاب الإمام فسقوا القوم عن آخرهم ، ثمّ انعطفوا إلى الخيل فجعلوا يملؤون القصاص والطساس فإذا عُب فيها ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً عزلت ، وسقي الآخر حتى سقوها جميعاً »[٢] .

لقد تكرّم الإمام بإنقاذ هذا الجيش الذي جاء لحربه ، ولم تهز هذه الأريحية ولا هذا النبل نفس هذا الجيش ، ولم يتأثروا بهذا الخلق الرفيع ، فقد أحاطوا بالفرات في كربلاء ، وحرموا ذرّية نبيّهم من الماء ولم يسقوهم قطرة حتى توفّوا عطاشى .

خطاب الإمام :

وخطب الإمام في قطعات ذلك الجيش فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أيّها الناس ، إنّها معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم . . إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم ، وقدمت بها عليّ رسلكم ، أن أقدم علينا فإنّه ليس لنا إمام ، ولعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى ، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، فأعطوني ما اطمئن به

---

(١) ذو حسم : بضمّ الحاء وفتح السين جبل هناك .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٢٢٦ .

من عهودكم ومواثيقكم ، وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم . . » .

وأحجموا عن الجواب فإنّ الأكثرية الساحقة منهم قد كاتبوا الإمام وبايعوه على يد سفيره مسلم بن عقيل .

وحلّ وقت الصلاة فأمر الإمام مؤذنه الحجاج بن مسروق أن يؤذّن ويقيم لصلاة الظهر ، وبعد فراغه قال الإمام للحرّ : « أتريد أن تصلّي بأصحابك ؟ » ، فقال : بل نصلّي بصلاتك ، وأتمّوا بالإمام فصلّى بهم صلاة الظهر ، وبعد أدائه للصلاة قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيّها الناس ، إنكم إن تتّقوا الله وتعرفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله ، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان ، فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا وكان رأيكم الآن على غير ما أتتني به كتبكم انصرفت عنكم » .

ولم يعلم الحرّ بشأن الكتب التي بعثها أهل الكوفة للإمام ، فقال له : ما هذه الكتب التي تذكرها ؟

فأمر الإمام عقبة بن سمعان بإحضارها ، وكانت قد ملئت خرجين فنثرها بين يدي الحرّ ، فبهر منها ، وقال : لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك .

وأراد الإمام أن يتّجه إلى يثرب فقال له الحرّ : قد أُمرت أن لا أُفارقك إذا لقيتك حتى أُقدمك الكوفة على ابن زياد ، وتأثّر الإمام وصاح به : « الموت أدنى إليك من ذلك » .

وجرت مشادّة عنيفة بين الإمام والحرّ ، فقد حال الحرّ من توجّه الإمام إلى يثرب ، وكان الوضع أن ينفجر باندلاع نار الحرب إلّا أنّ الحرّ ثاب إلى الهدوء ، وقال للإمام : إنّما لم أُؤمر بقتالك وإنّما أُمرت أن لا أُفارقك حتى أُقدمك الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة ، ولا يردّك إلى المدينة ، واتّفقا على ذلك ، فتياسر

الإمام عن طريق العذيب والقادسية[١] . وأخذت قافلة الإمام تطوي البيداء ، وكان الحرّ يتابعه عن كثب ، ويراقبه كأشدّ ما تكون المراقبة .

وفزعت حفيدة الرسول كأشدّ ما يكون الفزع وأيقنت بنزول الرزء القاصم ، وأن أخاها مصمّم على الشهادة ، ومناجزة الحكم الأُموي .

خطبة الإمام :

ولمّا انتهى موكب الإمام إلى (البيضة) ألقى الإمام خطاباً على الحرّ وأصحابه ، قال فيه :

« أيها الناس : إن رسول الله ﷺ قال : « من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنّة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغيّر ما هو عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله . . » .

ألا أنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلّوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحقّ ممن غيّر ، وقد أتتني كتبكم ، وقدمت عليَّ رسلكم ببيعتكم إنّكم لا تسلّموني ولا تخذلوني ، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، ولكم فيَّ أُسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي ، فلعمري ما هي لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم ، فالمغرور من اغترّ بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغني الله عنكم . . » .

وحفل هذا الخطاب الرائع بأمور بالغة الأهمية ذكرناها في كتابنا (حياة الإمام الحسين) .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٨٠ .

ولمّا سمع الحرّ خطاب الإمام ووعاه أقبل عليه فقال له : إنّي أُذكّرك الله في نفسك ، فإنّي أشهد لئن قاتلت لتقتلن . . فأجابه الإمام :

« أبالموت تخوّفني ، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني ، وما أدري ما أقول لك ، ولكنّي أقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ أين تذهب فإنّك مقتول ، فقال له :

« سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وخالف مثبوراً وفارق مجرماً
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما »[1]

ولما سمع الحرّ مقالة الإمام عرف أنّه مصمّم على الشهادة في سبيل أهدافه النبيلة .

والتاعت السيّدة زينب عليها السلام حينما سمعت مقالة أخيها وأيقنت أنّه مصمّم على الموت والشهادة في سبيل الله .

مع الطرماح :

وصحب الطرماح الإمام عليه السلام في أثناء الطريق ، وأقبل الإمام على أصحابه ، فقال لهم : « هل فيكم أحد يخبر الطريق على غير الجادة ؟ » ، فقال له الطرماح : أنا أخبر الطريق ، فقال عليه السلام له : « سر بنا » ، فسار بهم الطرماح وجعل يحدو بالإبل بصوت حزين قائلاً :

يا ناقتي لا تذعري من زجري وامضي بنا قبل طلوع الفجر
بخير فتيان وخير سفر آل رسول الله أهل الفخر
السادة البيض الوجوه الزهر الطاعنين بالرماح السمر

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٨١ .

الضــــاربين بـــالسيوف البــتر — حــتى تـحلى بكـريم النـجر
بما جد الجد رحيب الصدر — أتــى بــه الله لخــير أمــر
عـــمره الله بـــقاء الدهـــر — يــا مــالك النـفع مـعاً والضـر
أمــدد حسيناً سيدي بـالنصر — عــلى الطـغاة من بـقايا الكـفر
عــلى اللـعينين سليلي صخر — يـــزيد لازال حــليف الخـمر
والعـود والصـنج مـعاً والزمـر — وابن زياد العهر وابـن العـهر [١]

وأسرعت الإبل في سيرها على نغمات هذا الشعر الحزين ، وقد فاضت عيون السيّدات من بنات رسول الله وفي طليعتهن السيّدة زينب بالبكاء وهن يدعون للإمام بالنصر والتأييد على أعدائه .

رسالة ابن زياد للحرّ :

وسارت قافلة الإمام تطوي البيداء ، وهي تارة تتيامن وأُخرى تتياسر ، وجنود الحرّ يذودون الركب عن البادية ، ويدفعونه تجاه الكوفة ، والركب يمتنع عليهم ، وإذا براكب قد أقبل وهو رسول من قِبل ابن زياد إلى الحرّ فسلّم الخبيث الدنس على الحرّ ولم يسلّم على الحسين ، وناول الحرّ رسالة من ابن مرجانة جاء فيها :

أمّا بعد : فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلّا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري ، والسلام . . [٢] .

وقرأ الحرّ الكتاب على الإمام الحسين ، وقد أراد أن يستأنف سيره متّجهاً صوب قرية أو ماء فمنعه الحرّ ، وانبرى زهير بن القين ، وهو من أفذاذ أصحاب الإمام فقال له : يابن رسول الله ، إن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ١١١ .

(٢) أنساب الأشراف : ٢٤٠ .

من بعدهم ما لا قبل لنا به ، فقال له الحسين : « ما كنت لأبدأهم بقتال » ، وتابع زهير حديثه قائلاً : سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنّها حصينة ، وهي على شاطئ الفرات ، فإن منعونا قاتلناهم ، فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم ، ولكن الحرّ أصرّ على الإمام أن ينزل في ذلك المكان ولا يتجاوزه ، ولم يجد الإمام بدّاً من النزول فيه ، والتفت إلى أصحابه فقال لهم :

« ما اسم هذا المكان ؟ » .

فقالوا له :

كربلا .

وفاضت عيناه بالدموع وقال :

« اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الكرب والبلاء . . »[١] .

وطافت به الذكريات ، ومثل أمامه ما قاله جدّه رسول الله ﷺ وأبوه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من أنّ دمه الزاكي سيراق في هذه الأرض فبها تتقطع أوصاله ، وتسفك دماء أهل بيته وأصحابه ، وخلد الإمام إلى الصبر واستسلم لقضاء الله .

ونهض أصحاب الإمام وأهل بيته فنصبوا الخيام لمخدرات الرسالة وعقائل الوحي كما نصبوا الخيام لهم ، وأسرع فتيان بني هاشم وأمامهم سيّدهم أبو الفضل العباس فأنزلوا السيّدات من المحامل ، وجاؤوا بهن إلى خيامهن ، وقد أحسّت حفيدة الرسول ﷺ السيّدة زينب عليها السلام بالأخطار الهائلة والكوارث التي ستجري عليها وعلى أهلها في هذه الأرض .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٩١ .

في كربلاء

وذاب قلب الصدّيقة الطاهرة زينب أسى وحسرات ، واستولى عليها الألم العاصف ، فقد أيقنت أنها ستشاهد في هذه الأرض مصرع أخيها وأهل بيته ، وستجري عليها من النكبات والخطوب ما تذوب من هولها الجبال ، وقد خلدت إلى الصبر ، وسلّمت أمرها إلى الله تعالى .

وحينما استقرّ الإمام الحسين في كربلاء جمع أهل بيته وأصحابه فألقى عليهم نظرة حنان وعطف ، ورفع يديه بالدعاء يناجي ربه ، ويشكو إليه ما ألمّ به من المحن والخطوب قائلاً :

« اللّهمّ إنّا عترة نبيّك محمّد ﷺ قد أُخرجنا وطردنا وأزعجنا عن حرم جدّنا ، وتعدّت بنو أُميّة علينا ، اللّهمّ فخذ لنا بحقّنا وانصرنا على القوم الظالمين » .

ثمّ أقبل على تلك الصفوة فقال لهم :

« الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم ، فإذا محّصوا بالبلاء ، قلّ الديّانون . . » .

وحكت هذه الكلمات الذهبية واقع الناس واتّجاهاتهم فهم في جميع مراحل التأريخ عبيد الدنيا ، أمّا الدين فإنّما يجري على ألسنتهم فإذا محّصوا بالبلاء مالوا عنه وتنكّروا له .

ثمّ خاطب أصحابه قائلاً :

« أما بعد : فقد نزل بنا ما قد ترون ، وأنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت ، وأدبر

معروفها ، ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء ، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل (١) .

ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله ، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً . . » (٢) .

والتاعت سيدة النساء زينب حينما سمعت خطاب أخيها ، وهو مصمّم على الموت فقد اعتبره سعادة ، واعتبر الحياة والعيش مع الظالمين برماً .

وحينما أنهى الإمام خطابه هبّ أصحابه وأهل بيته ، وهم يعلنون الدعم الكامل له ، ويهزئون بالحياة ، ويسخرون من الموت من أجله ، فشكرهم الإمام وأثنى عليهم .

خطبة ابن مرجانة :

وحينما انتهى النبأ بنزول الإمام في كربلاء ، وإحاطة الحرّ به ، دعا ابن مرجانة الناس إلى الجامع الأعظم فامتلأ منهم ، فقام فيها خطيباً فقال :

أيّها الناس ، إنّكم بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم كما تحبّون ، وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه ، حسن السيرة ، محمود الطريقة ، محسناً إلى الرعية ، يعطي العطاء في حقّه ، وقد أمنت السبل على عهده ، وكذلك كان أبوه معاوية في عصره ، وهذا ابنه يزيد يكرم العباد ، ويغنيهم بالأموال ، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة ، وأمرني أن أوفّرها عليكم ، وأُخرجكم إلى حرب عدوّه الحسين ، فاسمعوا له وأطيعوا (٣) .

لقد منّاهم بالأموال التي يعبدونها من دون الله فاستجابوا له ، وخرجوا

---

(١) المرعى الوبيل : هو الطعام الوخيم الذي يخاف وباله .

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٣ : ٧٤ ، من مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

(٣) الأخبار الطوال : ٢٥٣ .

كالكلاب لحرب ريحانة رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنة .

انتخاب ابن سعد للقيادة العامة :

وانتخب الوغد الأثيم عبيدالله بن زياد عمر بن سعد قائداً عامّاً لقوّاته المسلّحة ، وكان ابن سعد من أخسّ الناس ومن أرذلهم ، ولا يملك أيّ رصيد من الشرف والكرامة ، وكان ضعيف النفس خائر العزيمة ، لقد انتخبه ابن زياد لأفظع جريمة منذ خلق الله الأرض ، فقاد الجيوش لحرب ابن رسول الله ﷺ وأحاط به من كل جانب ، وفرض عليه الحصار فاستولى على جميع الطرق مخافة أن يصل إليه أي إمداد من الخارج ،كما عهد إلى أربعة آلاف فارس بقيادة المجرم عمرو بن الحجاج فاحتلوا نهر الفرات وجميع الشرائع والأنهر المتفرّعة منه ، وقد حيل بين الإمام الحسين وبين الماء قبل قتله بثلاثة أيام(١) . وقد عانت العقيلة أعظم المحن ، فقد أحاطت بها الأطفال وحرائر الرسالة وهم يعجّون من ألم الظمأ ، وهي تصبّرهم وتمنّيهم بوصول الماء إليهم ، لقد ذاب قلبها رحمةً وحناناً على أطفال أخيها الذين ذبلت شفاههم وذوى عودهم ، يقول أنور الجندي :

وذئـاب الشـرور تـنعم بـالماء	وأهـل النـبي مـن غـير مـاء
يـا لظـلم الأقـدار يـظمأ قـلب	اللـيث والليث مـوثق الأعـضاء
وصغار الحسين يبكون في الصحراء	يـا رب أيـن غـوث القـضاء

إنّ جميع الشرائع والمذاهب لا تبيح منع الماء عن الأطفال والنساء ، فالناس جميعاً شركاء فيه ، ولكن شريعة آل أبي سفيان التي تحكي طباع الأسر القرشية التي أبت أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد هي التي حرّمت الماء على آل الرسول ﷺ .

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان : ٨٩ .

الإمام مع ابن سعد:

وطلب الإمام من ابن سعد الاجتماع به ، فأجابه الباغي اللئيم ـ على كره ـ وعقد الإمام معه اجتماعاً مغلقاً حضره أبو الفضل العباس وعلي الأكبر ، ومع ابن سعد ابنه حفص وغلام له ، فقال له الإمام:

« يا بن سعد ، أتقاتلني أما تتقي الله الذي إليه معادك ، فإني ابن من قد علمت ، ألا تكون معي وتدع هؤلاء فإنه أقرب إلى الله تعالى . . » .

وألقى ابن سعد معاذيره الواهية قائلاً:

أخاف أن تهدم داري .

« أنا أبنيها . . » .

أخاف أن تؤخذ ضيعتي .

« أنا أخلف عليك خيراً منها . . » .

إنّ لي بالكوفة عيالاً ، وأخاف عليهم من القتل من ابن زياد » .

ولمّا رأى الإمام إصراره على الغيّ والعدوان ، ولا ينفع معه النصح والإرشاد راح يدعو عليه قائلاً:

« ما لك ذبحك الله على فراشك ، ولا غفر لك يوم حشرك ، فوالله إنّي لأرجو أن لا تأكل من برّ العراق إلّا يسيراً . . » .

وولّى ابن سعد ، وهو يقول للإمام بسخرية:

إنّ في الشعير كفاية .

واستجاب الله دعاء الإمام المظلوم في هذا الوضر الخبيث ، فقد ذبحته جنود البطل العظيم المختار بن يوسف نضّر الله مثواه وهو على فراشه ، وسيقت روحه الخبيثة إلى نار جهنم خالداً فيها مع أمثاله من المجرمين وأسياده الأمويّين .

وكانت العقيلة على علم بجميع ما يجري من الأحداث ، وأيقنت أنّ أخاها سيلاقي حتفه على يد هذه العصابة المجرمة التي لم تؤمن بالله ، والتي ساقتها الأطماع إلى اقتراف أفظع جريمة في الأرض .

المأساة الخالدة

ولم تبق كارثة من كوارث الدنيا ولا رزية من رزايا الدنيا إلّا جرت على حفيدة الرسول ﷺ وعقيلة بني هاشم في كربلاء ، فقد أحاطت بها المصائب يتبع بعضها بعضاً ، فقد شاهدت أعداء الله وجيوش آل أبي سفيان قد اجتمعت على إبادة أهلها ، وقد احتلّوا ماء الفرات ومنعوا ذرّية الرسول ﷺ من الانتهال منه ، وقد عجّت أطفال أهل البيت ونساؤهم بالصراخ والعويل من شدّة الظمأ وقد أحاطوا بالعقيلة يطلبون منها الماء ، وهي حائرة مذهولة تأمرهم بالصبر ، كيف الصبر والعطش قد مزّق قلوبهم .

وقد زحفت جيوش الأُمويّين نحو الإمام الحسين في ليلة التاسع من المحرم ، كان سيّد الشهداء جالساً أمام بيته محتبياً بسيفه إذ خفق برأسه ، فسمعت أُخته العقيلة أصوات الجيش قد تدانت نحو أخيها فانبرت إليه وهي مذهولة مرعوبة فأيقظته ، وقالت له : « إنّ العدو قد دنا منّا » ، فقال لها :

« إنّي رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال : إنّك تروح إلينا . . » .

وكانت هذه الكلمات كالصاعقة على رأس العقيلة فقد خرقت قلبها الرقيق المعذّب ، فلطمت وجهها وقالت :

« يا ولبتاه . . »[1] .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٣٨٤ .

وكان أبو الفضل العباس إلى جانب أخيه لا يفارقه ، فقال له :

« يا أخي أتاك القوم . . » .

وطلب منه الإمام أن يتعرّف على خبرهم فقال له :

« اركب بنفسي أنت يا أخي حتى تلقاهم ، فتقول لهم : ما بدا لكم ، وما تريدون . . » .

وبادر قمر بني هاشم ومعه عشرون فارساً نحو القوم ، وفيهم حبيب بن مظاهر وزهير بن القين ، فسألهم العباس عن زحفهم ، فقالوا له :

جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو نناجزكم[1] .

وقفل أبو الفضل إلى أخيه فعرّفه ما عرضوه عليهم ، فقال عليه السلام له :

« ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة لعلّنا نصلّي لربّنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره ، فهو يعلم أنّي أُحبّ الصلاة وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار » .

وكان ذكر الله والدعاء والصلاة من أهمّ ما يصبو إليه الإمام في هذه الحياة[2] .

وقفل قمر بني هاشم راجعاً إلى تلك الوحوش الكاسرة فعرض عليهم مقالة أخيه ، وتردّد القوم في إجابته ، فأنكر عليهم عمرو بن الحجّاج الزبيدي إحجامهم وقال :

سبحان الله ! والله لو كان من الديلم ثم سألكم هذه المسألة لكان ينبغي أن تجيبوه !

ولم يزد ابن الحجّاج على ذلك ، ولم يقل إنّه ابن رسول الله خوفاً أن يُنقل كلامه إلى ابن مرجانة فينال العقاب والحرمان ، وأيّد ابن الأشعث مقالة ابن الحجّاج فقال له ابن سعد :

---

(١) أنساب الأشراف : ١٨٤ .

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٨٥ .

أجبهم إلى ما سألوا فلعمري ليصحبنك بالقتال غداً .

واستجاب ابن سعد إلى تأجيل الحرب بعد أن رضيت به الأكثرية من قادة جيشه ، وأوعز ابن سعد إلى رجل من أصحابه أن يعلن ذلك أمام معسكر الحسين فدنا منه وقال رافعاً صوته :

يا أصحاب الحسين بن عليّ ، قد أجّلناكم يومكم هذا إلى غد فإن استسلمتم ونزلتم على حكم الأمير وجّهنا بكم إليه ، وإن أبيتم ناجزناكم .

وأرجئ القتال إلى اليوم الثاني المصادف يوم العاشر من المحرم .

الإمام يأذن لأصحابه بالتفرّق :

وجمع سيّد الشهداء أصحابه وأهل بيته في غلس الليل وطلب منهم أن يتفرّقوا في سواده ليلقى مصيره المحتوم وحده ، فقال لهم :

« أثني على الله أحسن الثناء ، وأحمده على السرّاء والضرّاء . . اللّهمّ إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلّمتنا القرآن ، وفهّمتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعاً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين .

أمّا بعد : فإنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي فجزاكم الله جميعاً عنّي خيراً ، ألا وإنّي لأظنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، وإنّي قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم منّي ذمام ، وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً ، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً ، ثمّ تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله ، فإنّ القوم إنّما يطلبونني ، ولو أصابوني للهوا عن طلب غيري »[١] .

لقد جعل الإمام أصحابه وأهل بيته أمام الأمر الواقع وهي الشهادة التي لابدّ

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٢٨٥ .

منها في مصاحبته ، وليس شيء آخر غيرها ، قد سمح لهم بالتفرّق عنه في سواد الليل فيتخذونه ستاراً لهم دون كل عين ،كما عرفهم أنه هو المطلوب للحكم الأُموي دون غيره فإذا قتلوه فلا إرب لهم في غيره .

وعلى أي حال ، فإنّ الإمام لم يكد ينتهي من خطابه حتى هبّت الصفوة الطاهرة من أهل بيته وأصحابه وهي تعلن ولاءها الكامل له ، وأنّهم جميعاً يلاقون المصير الذي يلقاه ، وقد بدأهم بالكلام قمر بني هاشم وفخر عدنان أبو الفضل العباس قائلاً :

«لِمَ نفعل ذلك لنبقى بعدك ، لا أرانا الله ذلك أبداً . . »[١] .

وتتابعت أصوات أصحابه والفتية من بني هاشم ، وهم يرحّبون بالموت والشهادة في سبيله ، حقّاً لقد كانوا من خيرة بني آدم صدقاً ووفاءً وشهامةً ونبلاً .

لوعة السيّدة زينب:

وفزعت عقيلة بني هاشم كأشدّ ما يكون الفزع وأقساه حينما سمعت أخاها وبقية أهلها يعالج سيفه ويصلحه وهو ينشد هذه الأبيات التي ينعى فيها نفسه :

يَا دَهْرُ أُفٍّ لَكَ مِنْ خَلِيلِ ... كَمْ لَكَ بِالْإِشْرَاقِ وَالْأَصِيلِ

مِنْ طَالِبٍ وَصَاحِبٍ قَتِيلِ ... وَالدَّهْرُ لاَ يَقْنَعُ بِالْبَدِيلِ

وَكُلُّ حَيٍّ سَالِكٌ سَبِيلِ ... مَا أَقْرَبَ الْوَعْدَ إِلَى الرَّحِيلِ

وَإِنَّمَا الْأَمْرُ إِلَى الْجَلِيلِ

وكان مع الإمام في خيمته الإمام زين العابدين عليه السلام والعقيلة . أمّا الإمام زين العابدين فإنّه لمّا سمع هذه الأبيات خنقته العبرة ولزم السكوت ، وعلم أنّ البلاء قد نزل ، وأمّا العقيلة فقد أيقنت أنّ أخاها عازم على الموت ، فأمسكت قلبها الرقيق

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ١٦٧ .

المعذّب ووثبت وهي تجرّ ذيلها وقد غامت عيناها بالدموع فقالت لأخيها :

« وَاثُكْلاَهُ ، وَاحُزْنَاهُ ، لَيْتَ الْمَوْتَ أَعْدِمَنِي الْحَيَاةَ ، يَا حُسَيْنَاهُ ، يَا سَيِّدَاهُ ، يَا بَقِيَّةَ أَهْلِ بَيْتَاهُ ، اسْتَسْلَمْتَ لِلْمَوْتِ وَيَئِسْتَ مِنَ الْحَيَاةِ ، الْيَوْمَ مَاتَ جَدِّي رَسُولُ اللهِ ، الْيَوْمَ مَاتَتْ أُمِّي فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ ، وَأَبِي عَلِيٌّ الْمُرْتَضىٰ ، وَأَخِي الْحَسَنُ الزَّكِيُّ ، يَا بَقِيَّةَ الْمَاضِينَ وَثِمَالَ الْبَاقِينَ »[1] .

وذاب قلب الإمام أسى وحزناً ، والتفت إلى شقيقته فقال لها الإمام بحنان :

« يَا أُخَيَّةُ ، لَا يَذْهَبَنَّ بِحِلْمَكِ الشَّيْطَانُ . . » .

وسرت الرعدة والفزع بقلب الصدّيقة وطافت بها آلام مبرحة فخاطبت أخاها بأسى والتياع قائلة :

« أَتَغْتَصِبُ نَفْسَكَ إِغْتِصَاباً ، فَذٰاكَ أَطْوَلُ لِحُزْنِي وَأَشْجىٰ لِقَلْبِي . . » .

ولم تملك صبرها بعدما أيقنت أن أخاها وبقيّة أهلها سيستشهدون لا محالة ، فعمدت إلى جيبها فشقّته ، ولطمت وجهها ، وخرّت إلى الأرض فاقدة لوعيها [2] ، وأثّر منظرها الرهيب في نفس الإمام فالتاع كأشدّ ما تكون اللوعة ، ورفع يديه بالدعاء أن يلهم شقيقته الصبر والسلوان ، وأن يعينها على تحمّل المحن الشاقّة التي أحاطت بها .

إحياء الليل بالعبادة :

وأقبل الإمام مع أهل بيته وأصحابه على العبادة ، فقد علموا أنّ تلك الليلة هي آخر ليالي حياتهم ، ولم يذق أي واحد منهم طعم الرقاد ، فقد اتّجهوا بقلوبهم وعواطفهم نحو الله وهم يمجّدونه ويتلون كتابه ويقيمون الصلاة ، ويسألونه العفو والغفران .

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ١١٣ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ١٧٣ .

وكانوا يترقّبون بشوق لا حدّ له طلوع الفجر ليكونوا قرابيناً للإسلام وفداءً لابن رسول الله ﷺ ، وكان حبيب بن مظاهر ، وهو من ألمع أصحاب الحسين ، وقد خرج إلى أصحابه وهو يضحك ، فأنكر عليه بعض أصحابه وقال له :

يا حبيب ، ما هذه ساعة ضحك .

فأجابه حبيب عن إيمانه العميق قائلاً :

أيّ موضع أحقّ من هذا بالسرور ، والله ما هو إلّا أن تميل علينا هذه الطغاة بسيوفهم فنعانق الحور العين(١) .

وداعب برير عبدالرحمن الأنصاري فاستغرب من مداعبته قائلاً :

ما هذه ساعة باطل .

انظروا إلى جواب برير فقد قال :

لقد علم قومي أنّي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً ، ولكنّي مستبشر بما نحن لاقون ، والله ما بيننا وبين الحور العين إلّا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم ، ووددت أنّهم مالوا علينا الساعة(٢) .

أيّ إيمان هذا الذي تسلّح به أصحاب الحسين ، فقد فاقوا جميع شهداء الحقّ والفضيلة في جميع الأعصار والآباد .

رؤيا الإمام الحسين :

وخفق الإمام الحسين خفقة ثم انتبه ، والتفت إلى أصحابه وأهل بيته فقال لهم :

« أتعلمون ما رأيت في منامي ؟ » .

ما رأيت يابن رسول الله . . .

« رأيت كأنّ كلاباً قد شدّت عليّ تنهشني وفيها كلب أبقع أشدّها عليّ ، وأظنّ

---

(١) رجال الكشي : ٥٣ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٢٤١ .

الذي يتولّى قتلي رجل أبرص من هؤلاء القوم ، ثمّ إنّي رأيت جدّي رسول الله ﷺ ومعه جماعة من أصحابه وهو يقول لي : أنت شهيد آل محمّد ، وقد استبشرت بك أهل السماوات وأهل الصفيح الأعلى ، فليكن إفطارك عندي الليلة ، عجّل ولا تؤخر ، هذا ما رأيت ، وقد أزف الأمر واقترب الرحيل من هذه الدنيا »[1] .

وخيّم على أهل البيت حزن عميق ، وأيقنوا بنزول الرزء القاصم والاقتراب من دار الآخرة .

فزع عقائل الوحي :

وفزعت عقائل الوحي ، وخيّم عليهن الذعر والخوف ، ولم يهدأن في تلك الليلة ، فقد طافت بهن موجات من الهواجس وتمثّل أمامهن المستقبل المليء بالخطوب والكوارث ، وقد خلدن إلى الدعاء والبكاء ، وكان من أشدّهن عقيلة النبوة السيّدة زينب ، فقد كانت تراقب الأحداث ، وهي على علم لا يخامره شكّ أنّ المسؤولية الكبرى سوف تنتقل عن كاهل الحسين إليها لو قُتل ، كما علمت أنّه لا يبقى من أهلها أحد ، لقد فزعت وذهلت من الأحداث الجسام التي أحاطت بها .

العقيلة مع الهاشميّين والأصحاب :

ولم تهدأ عقيلة الرسالة ، فقد هامت في تيارات مذهلة من الأسى والشجون ، فكانت على علم أنّ ليلة العاشر من المحرم هي آخر ليلة لأهلها ، وهم على قيد الحياة ، وقد وجلت على أخيها فمضت تراقب خيم الهاشميّين والأصحاب ، لتسمع ما يدور عندهم من حديث ، فانبرت إلى خيمة أخيها قمر بني هاشم وقد اجتمع فيها فتيان بني هاشم ، وقد أحاطوا بسيّدهم أبي الفضل ، فسمعته يخاطب

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ١٧٧ .

الهاشميّين قائلاً :

« إخوتي وبني اخوتي وأبناء عمومتي ، إذا كان الصباح فما تصنعون ؟ » .

فهبّوا جميعاً قائلين :

الأمر إليك .

« إن أصحابنا وأنصارنا قوم غرباء ، والحمل ثقيل لا يقوم إلّا بأهله ، فإذا كان الصباح كنتم أوّل من يبرز للقتال ، فنسبق أنصارنا إلى الموت لئلّا يقول الناس قدّموا أصحابهم . . » .

ولم ينتهِ من مقالته حتى هبّوا قائلين :

نحن على ما أنت عليه .

ثمّ مضت العقيلة إلى خيمة حبيب بن مظاهر عميد أصحاب الإمام ، وقد أحاط به الأصحاب ، فسمعته يحدّثهم قائلاً :

يا أصحابي ، إذا كان الصباح ماذا تفعلون ؟

الأمر إليك .

إذا صار الصباح كنّا أول من يبرز إلى القتال ، نسبق بني هاشم إلى الموت ، فلا نرى هاشمياً مضرّجاً بدمه ، لئلّا يقول الناس قد بدأوهم إلى القتال ، وبخلنا عليهم بأنفسنا .

واستجابت الصفوة الطاهرة لمقالة زعيمهم حبيب ، وراحوا يقولون :

نحن على ما أنت عليه .

وسرّت زينب بوفاء الأنصار وتصميمهم على نصرة أخيها ، والذبّ عنه حتى النفس الأخير من حياته ، وانطلقت العقيلة إلى أخيها فأخبرته بما سمعت من الهاشميّين والأنصار من الذود عنه ، وحمايته من كل سوء ومكروه ، وأخبرها الإمام أنّهم من أنبل الناس ، ومن أكثرهم شهامة وإيماناً ، وأنّ الله تعالي قد اختارهم من بين عباده لنصرته ، والوقوف معه لمناجزة القوى المنحرفة والمعادية للإسلام .

يوم عاشوراء :

ويوم عاشوراء من أفجع الأيام وأقساها وأشدّها محنة على العقيلة زينب وعلى أهل البيت ، فلم تبق رزية من رزايا الدهر إلّا جرت عليهم ، ونتحدّث ـ بإيجاز ـ عن فصول هذه المأساة الخالدة في دنيا الأحزان .

خطاب الإمام الحسين :

ولمّا تهيّأت عساكر ابن سعد لحرب الإمام عليه السلام رأى من الواجب أن يعظهم ، ويرشدهم حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم ، فخطب فيهم خطاباً مؤثراً ، وقد نشر كتاب الله العظيم ، واعتمّ بعمامة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولبس لامته ، فقال لهم :

«تَبّاً لَكُمْ أَيَّتُهَا الْجَمَاعَةُ وَتَرَحاً حِينَ إِسْتَصْرَخْتُمُونَا وَالِهِينَ فَأَصْرَخْنَاكُمْ مُوجِفِينَ[1] ، سَلَلْتُمْ عَلَيْنَا سَيْفاً لَنَا فِي ايمَانِكُمْ ، وَحَشَشْتُمْ[2] عَلَيْنَا نَاراً إِقْتَدَحْنَاهَا عَلَىٰ عَدُوِّنَا وَعَدُوِّكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ أَلْبَاً[3] لِأَعْدَائِكُمْ عَلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ بِغَيْرِ عَدْلٍ أَفْشَوْهُ فِيكُمْ وَلاَ أَمَلٍ أَصْبَحَ لَكُمْ فِيهِمْ .

مَهْلاً ـ لَكُمُ الْوَيْلاَتُ ـ تَرَكْتُمُونَا وَالسَّيْفُ مشِيمٌ[4] وَالْجَأْشُ طَامِنٌ وَالرَّأْيُ لَمَّا يَسْتَحْصِفُ ، وَلَكِنْ أَسْرَعْتُم إِلَيْهَا كَطَيْرَةِ الدَّبَا[5] ، وَتَدَاعَيْتُمْ إِلَيْهَا كَتَهَافُتِ الْفَرَاشِ .

---

(١) موجفين : أي مسرعين في السير إليكم .

(٢) حششتم : النار التي توقد .

(٣) إلباً : أي مجتمعين .

(٤) مشيم السيف : غمده .

(٥) الدبا : الجراد قبل أن يطير .

فَسُحقاً لَكُمْ يَا عَبِيدَ الْأُمَّةِ، وَشِذَاذَ الْأَحْزَابِ، وَنَبذَةَ الْكِتَابِ، ومُحَرِّفِي الْكَلِمَ، وَعَصَبَةَ الْآثَامِ، وَنَفثَةَ الشَّيطَانِ، وَمُطْفِئَ السُّنَنِ.

أَهَؤُلاَءِ تَعْضُدُونَ، وَعَنَّا تَتَخاذَلُونَ؟! أَجَلْ وَاللهِ غَدْرٌ فِيكُمْ قَدِيمٌ وَشَجَتْ إِلَيهِ أُصُولُكُمْ وَتَأَزَّرَتْ[1] عَلَيهِ فُرُوعُكُمْ، فَكُنتُمْ أَخْبَثَ شَجَرٍ شَجاً لِلنَّاظِرِ وَأُكْلَةً لِلْغَاصِبِ.

أَلاَ وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابنَ الدَّعِي قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ: بَيْنَ السَّلَّةِ[2] وَالذِّلَةِ، وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ، يَأْبَى اللهُ لَنَا ذَلِكَ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَحُجُورٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ وَأُنُوفٌ حِمِيَّةٌ وَنُفُوسٌ أَبِيَّةٌ: مِنْ أَنْ تُؤْثِرَ طَاعَةَ اللِّئَامِ عَلَىٰ مَصَارِعِ الْكِرَامِ.

أَلاَ وَإِنِّي زَاحِفٌ بِهَذِهِ الْأُسْرَةِ مَعَ قِلَّةِ الْعَدَدِ وَخَذْلَةِ النَّاصِرِ».

ثمّ أنشد أبيات فروة بن مسيك المرادي:

«فَإِنْ نَهْزِمْ فَهَزَّامُونَ قِدْماً ... وَإِنْ نُغْلَبْ فَغَيْرُ مُغَلَّبِينَا

وَمَا إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ ... مَنَايَانَا وَدَوْلَةُ آخَرِينَا

إِذَا مَا الْمَوْتُ رَفَّعَ عَنْ أُنَاسٍ ... كَلاَكِلَهُ أَنَاخَ بِآخَرِينَا

فَأَفْنَىٰ ذَلِكُمْ سَرَوَاتِ قَوْمِي ... كَمَا أَفْنَىٰ الْقُرُونَ الْأَوَّلِينَا

فَلَوْ خَلَدَ الْمُلُوكُ إِذاً خَلَدْنَا ... وَلَوْ بَقِيَ الْكِرَامُ إِذاً بَقِينَا

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا: أَفِيقُوا ... سَيَلْقَىٰ الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا»

أَمَا وَاللهِ لاَ تَلْبَثُونَ بَعْدَهَا إِلاَّ كَرَيْثِ مَا يُرْكَبُ الْفَرَسُ حَتَّىٰ يَدُورَ

---

(١) **تأزرت**: أي نبتت عليه فروعكم.

(٢) **السلّة**: استلال السيوف.

بِكُمْ دَوْرَ الرَّحىَ وَتَقْلَقَ بِكُمْ قَلَقَ الْمِحْوَرِ ، عَهْدٌ عَهْدَهُ إِلَيَّ أَبِي عَنْ جَدِّي ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُو إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

ورفع يديه بالدعاء على أُولئك السفكة المجرمين قائلاً :

أَللّهُمَّ احْبِسْ عَنْهُمْ قَطْرَ السَّمَاءِ ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنَيِّ يُوسُفَ ، وَسَلِّطْ عَلَيْهِمْ غُلاَمَ ثَقِيفٍ يَسُومُهُمْ كَأْساً مُصْبَرَةً ، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُونَا وَخَذَلُونَا ، وَأَنْتَ رَبُّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»[1] .

لقد انفجر أبو الأحرار في خطابه كالبركان ، وأبدى من صلابة العزم وعزّة النفس ما لم يشاهد مثله ، فقد استهان بالموت ، ولا يخضع لأُولئك الأقزام الذين سوّدوا وجه التأريخ ، وكانوا سوّة عار لمجتمعهم .

استجابة الحرّ :

واستيقظ ضمير الحرّ حينما سمع خطاب الإمام ، وجعل يتأمّل ويفكّر في مصيره ، وأنّه لا محالة يصير إلى النار خالداً فيها ، واختار الدار الآخرة والالتحاق بآل النبيّ ، وقبل أن يتوجّه إلى الإمام الحسين أسرع نحو ابن سعد فقال له :

أمقاتل أنت هذا الرجل ؟

فأجابه بلا تردد ليظهر أمام قادة الفرق إخلاصه لسيّده ابن مرجانة قائلاً :

إي والله قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي .

فقال له الحرّ برنّة المستريب :

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٣ : ٧٤ ـ ٧٥ .

أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرضها عليكم رضاً ؟

فأجابه ابن سعد :

لو كان الأمر لي لفعلت ، ولكن أميرك أبى ذلك .

وأيقن الحرّ أنّ القوم مصمّمون على حرب ابن رسول الله ﷺ ، فمضى يشقّ الصفوف ، وقد سرت الرعدة بأوصاله ، فأنكر عليه ذلك المهاجر بن أوس ، وهو من شرطة ابن زياد فقال له :

والله إنّ أمرك لمريب ، والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل ما أراه الآن ، ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك .

وكشف له الحرّ عن عزمه فقال له :

إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو قطّعت وأحرقت .

ولوى بعنان فرسه صوب الإمام[1] ، وهو مطرق برأسه إلى الأرض حياءً وندماً على ما فرّط في حقّ الإمام ، ولمّا دنا منه رفع صوته قائلاً :

اللّهمّ إليك أنيب ، فقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيّك . . يا أبا عبدالله ، إنّي تائب فهل لي من توبة ؟

ونزل عن فرسه ، ووقف قبال الإمام ، ودموعه تتبلور على سحنات وجهه قائلاً :

جعلني الله فداك يابن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وجعجعت بك في هذا المكان ، ووالله الذي لا إله إلّا هو ما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضت عليهم أبداً ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبداً ، فقلت في نفسي : لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ، ولا يرون أنّي خرجت من طاعتهم ، وأمّا

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٤٤ .

هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه ، ووالله لو ظننت أنّهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك ، وإنّي قد جئتك تائباً ممّا كان منّي إلى ربّي ، مواسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك ، أفترى لي توبة ؟

واستبشر به الإمام ، ومنحه الرضا والعفو ، وقال له :

« نعم يتوب الله عليك ويغفر . . »[1] .

وانطلق الحرّ بعد أن منحه الإمام العفو وقبل توبته ، فخطب في أهل الكوفة ودعاهم إلى التوبة ، ونُعّب عليهم حصارهم للإمام ، ومنعه مع أهل بيته وأصحابه عن ماء الفرات الذي هو حق مشاع للجميع ، ولم يستجيبوا له ، ورموه بالنبال .

الحــرب :

وارتبك ابن سعد من التحاق الحر بالإمام ، وخاف أن يحصل التمرّد في جيشه ، فزحف الباغي الأثيم نحو معسكر الحسين ، وأخذ سهماً فأطلقه صوب الإمام ، وقد رفع صوته قائلاً :

اشهدوا لي عند الأمير أنّي أول من رمى الحسين .

وفتح ابن سعد من السهم الذي أطلقه باب الحرب ، وطلب من الجيش أن يشهدوا له عند سيّده ابن مرجانة بأنّه أوّل من رمى معسكر ابن رسول الله ﷺ .

وتتابعت السهام كأنّها المطر على معسكر الإمام الحسين ، فلم يبق أحد منهم إلّا أصابه سهم ، فالتفت الإمام إلى أصحابه قائلاً :

« قوموا يا كرام فهذه رسل القوم إليكم . . » .

وتقدّمت طلائع الحق من أصحاب أبي الأحرار إلى ساحة الشرف والمجد وهي تعلن ولاءها للإسلام ، وتفانيها في الذبّ عن إمام المسلمين وسيّد شباب أهل

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ : ٢٨٩ .

الجنة ، وبذلك بدأت المعركة واحتدم القتال كأشدّه وأعنفه .

ومن المقطوع به أنّه لم تكن مثل تلك المعركة في جميع الحروب التي جرت في الأرض ، فقد تقابل اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً مع عشرات الألوف ، وقد أبدى أصحاب الإمام من الشجاعة والبسالة ما يبهر العقول ويحيّر الألباب .

مصارع أصحاب الإمام :

وشنّت قوات ابن سعد هجوماً عاماً وعنيفاً على أصحاب الإمام وخاضوا معهم معركة رهيبة ، وقد ثبت لهم أصحاب الإمام ، فهزموا جموعهم بقلوب أقوى من الحديد ، وأنزلوا بهم أفدح الخسائر ، وقد استشهد في هذه الحملة نصف أصحاب الإمام ، ثمّ بدأت بعد ذلك المبارزة بين العسكرين ، فكان الرجل من أصحاب الإمام يبرز ويقاتل ثمّ يُقتل ، وهكذا حتى فنوا عن آخرهم ، وقد أبلوا في المعركة بلاءً يقصر عنه كل وصف وإطراء ، فقد خاضوا تلك المعركة الرهيبة ، ولم تضعف لأي رجل منهم عزيمة ولم تلن لهم قناة ، وقد سمت أرواحهم الطاهرة إلى الرفيق الأعلى وهي أنضر ما تكون تفانياً في مرضاة الله تعالى وطاعته ، وأنّ أعطر ما نقدّمه لهم من تحية كلمات الإمام الصادق عملاق الفكر الإسلامي ، في حقّهم قال مخاطباً لهم :

« بأبي أنتم وأمّي ، طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم ، وفزتم فوزاً عظيماً » .

مصارع أهل البيت :

وبعدما نالت الشهادة الصفوة الطاهرة من أصحاب الإمام هبّ أبناء الأُسرة النبوية شباباً وأطفالاً إلى التضحية والفداء ، فكانوا كالليوث وكالصاعقة على جيوش الكفر والضلال ، وأخذ بعضهم يودّع البعض الآخر ، وهم يذرفون الدموع على وحدة سيّدهم أبي الأحرار حيث يرونه وحيداً قد أحاطت به من كل جانب جيوش الأُمويّين

ليتقرّبوا بقتله إلى ابن مرجانة ، وفي طليعة الذين استشهدوا من آل البيت عليهم السلام :

عليّ الأكبر :

وكان عليّ الأكبر شبيه جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله في ملامحه وفي أخلاقه التي امتاز بها على سائر النبيّين ، وكانت الأسرة النبوية والصحابة إذا اشتاقوا إلى رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله نظروا إلى وجه عليّ الأكبر ، وكان دنيا من الفضائل والمواهب والعبقريات ، فقد تسلّح بكل فضيلة وأدب ، وكان أعزّ أبناء الإمام الحسين لعمّته العقيلة وسائر بني عمومته وأعمامه ، وهو أوّل هاشمي اندفع بحماس بالغ إلى الحرب ، وكان عمره الشريف ثماني عشر سنة[1] ، وقد وقف أمام أبيه طالباً منه الرخصة لمناجزة أعداء الله ، فلمّا رآه الإمام ذابت نفسه أسى وحسرات ، وأشرف على الاحتضار فقد رأى فلذة كبده قد ساق نفسه إلى الموت ، فرفع الإمام شيبته الكريمة نحو السماء ، وهو يقول بنبرات قد لفظ فيها شظايا قلبه :

« اللّهُمّ اشهد على هؤلاء القوم ، فقد برز إليهم غلام أشْبَهُ الناس برسولك محمّد صلى الله عليه وآله خَلقاً وَخُلقاً ومنطقاً ، وكنّا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيِّك نظرنا إليه . . اللّهُمّ امنعهم بركات الأرض ، وفرّقهم تفريقاً ، ومزّقهم تمزيقاً ، واجعلهم طرائق قدداً ، ولا ترضي الولاة عنهم أبداً ، فإنّهم دعونا لينصرونا ثمّ عدوا علينا يقاتلوننا . . » .

والتفت الإمام إلى المجرم الأثيم عمر بن سعد عبد ابن مرجانة ، فصاح به :

« ما لك قطع الله رحمك ، ولا بارك لك في أمرك ، وسلّط عليك من يذبحك بعدي على فراشك ، كما قطعت رحمي ، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتلا قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ » .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٤٤ .

وشيّع الإمام ولده بدموع مشفوعة بالأسى والحزن ، وخلفه عـمّته العـقيلة وسائر عقائل الوحي ، وقد علا منهن الصراخ والعويل على شبيه رسول الله ﷺ .

وانطلق فخر هاشم إلى ساحة الحرب ، وقد امتلئ قلبه حزماً وعزماً ، ووجهه الشريف يتألق نوراً ، فقد حكى بهيبته هيبة جدّه رسول الله ﷺ ، وبشجاعته شجاعة جدّه الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام ، وتوسط حراب الأعداء وسيوفهم وهو يرتجز قائلاً :

أنا علي بن الحسـين بـن عـلي نحن وربّ البـيت أولى بـالنبي

تالله لا يحكم فينا ابـن الدعـى

أنت يا شرف هذه الأمة أوْلى بالنبيّ وأحق بمقامه من هؤلاء الأدعياء الذين سلّطتهم عليكم الطغمة الحاكمة من قريش التي أبت أن تـجتمع الخـلافة والنـبوة فيكم .

والتحم عليّ الأكبر مع أعداء الله ، وقد ملأ قلوبهم خوفاً ورعباً ، وأبدى من البسالة والشجاعة ما يقصر عنه كل وصف ، فقد ذكّرهم ببطولات جدّه الإمام أمير المؤمنين ، ومحطّم أوثان القـرشيّين ، وقـد قـتل مـائة وعشـرين فـارساً [١] سـوى المجروحين ، وألحّ عليه العطش وأضرّ به ، فقفل راجعاً إلى أبيه يشكو ظمأه القاتل قائلاً :

« يا أبتِ ، العطش قد قتلني ، وثقل الحديد قد أجهدني ، فهل إليّ شربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء ؟ » .

والتاع الإمام ، فقال له بصوت خافت ، وعيناه تفيضان دموعاً :

« واغوثاه ماأسرع الملتقى بجدّك فيسقيك بكأسه شربة لا تظمأ بعدها أبداً » .

وأخذ لسانه فمصّه ليريه شدّة عطشه فكان كشقّة مبرد من شـدّة العـطش ،

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٤٦ .

يقول الحجّة الشيخ عبدالحسين صادق في رائعته :

يشكو لخير أب ظمأه وما اشتكى	ظمأ الحشا إلّا إلى الظامي الصدي
كل حشاشته كصالية الغضا	ولسانه ظمأ كشقة مبرد
فانصاع يؤثره عليه بريقه	لو كان ثمة ريقه لم يجمد

لقد كان هذا المنظر الرهيب لعليّ الأكبر من أفجع وأقسى ما رزئ به أبو الأحرار ، فقد رأى ولده الذي هو من أنبل واشرف ما خلق الله ، وهو في غضارة العمر وريعان الشباب قد أشرف على الهلاك من شدة العطش ، وهو لم يستطع أن يسعفه بجرعة ماء ليروي عطشه .

وقفل فخر الإسلام عليّ الأكبر راجعاً إلى حومة الحرب ، قد فتكت الجراح بجسمه ، وفتّت العطش فؤاده ، وجعل يقاتل كأشدّ ما يكون القتال وأعنفه حتى ضجّ العسكر من كثرة من قتل منهم ، ولمّا رأى ذلك الوضر الخبيث مرّة بن منقذ العبدي قال : عليّ آثام العرب إن لم أثكل أباه ، وأسرع الخبيث الدنس إلى شبيه رسول الله ﷺ فطعنه بالرمح في ظهره وضربه ضربة منكرة على رأسه ، ففلق هامته ، واعتنق فرسه يظنّ أنّه يرجعه إلى أبيه إلّا أنّ الفرس حمله إلى معسكر الأعداء فأحاطوا به من كل جانب ، ومزّقوا جسده الشريف بالسيوف ، ونادى فخر هاشم ومجد عدنان رافعاً صوته :

« عليك منّي السلام أبا عبدالله ، هذا جدّي رسول الله ﷺ قد سقاني بكأسه شربة لا أظمأ بعدها أبداً ، وهو يقول : إنّ لك كأساً مذخورة . . » .

وحمل الأثير هذه الكلمات إلى أبيه الثاكل الحزين فقطعت قلبه ومزّقت أحشاءه ، ففزع إليه وهو خائر القوى منهدّ الركن ، فانكب عليه فوضع خدّه على خدّه ، وهو جثة هامدة قد قطعت شلوه السيوف إرباً إرباً ، وأخذ الإمام يذرف أحرّ الدموع على ولده الذي لا يشابهه أحد في كمال فضله ، وجعل يلفظ شظايا قلبه

بهذه الكلمات :

« قتل الله قوماً قتلوك يا بني ، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفا . . »[١] .

وما كاد الخبر يبلغ الخيام حتى هرعت حفيدة الرسول ﷺ زينب من خدرها ، وكان ذلك أوّل ما خرجت إلى المعركة فأكبت بنفسها على ابن أخيها الذي كان أعزّ ما عندها من أبنائها وجعلت تضمّخه بدموعها ، وقد انهارت قواها ، وانبرى إليها الإمام وجعل يعزّيها بمصابها الأليم ، وهو يردّد هذه الكلمات :

« على الدنيا بعدك العفا » .

وأخذ الإمام بيد أُخته وردّها إلى الفسطاط ، وأمر فتيانه بحمل ولده إلى الفسطاط .

لقد كان علي بن الحسين الرائد والزعيم لكل حرّ شريف مات أبياً على الضيم في دنيا الإباء ، فسلام الله عليه غادية ورائحة ونودعه بالأسى والحزن ، ونردّد كلمات أبيه :

« على الدنيا بعدك العفا . . » .

مصارع آل البيت :

وبزرت الفتية من آل الرسول ﷺ وهي تذرف الدموع على وحدة سيّدهم أبي الأحرار ، وكان من بينهم القاسم بن الحسن ، وكان كالقمر في بهائه وجماله وقد ربّاه عمّه وغذاه بمواهبه وآدابه ، وأفرغ عليه أشعة من روحه حتى صار صورة عنه ، وكان أحبّ إليه من أبناء إخوته وأعمامه وكان القاسم يتطلّع إلى محنة عمّه ، وينظر إلى جيوش الكفر قد أحاطت به وقد ذابت نفسه أسىً وحسرات ، وجعل يردد :

---

(١) العفا : التراب .

لا يقتل عمّي وأنا أنظر إليه[١] .

واندفع بلهفة نحو عمّه يطلب منه الإذن ليكون فداءً له ، فاعتنقه عمّه وعيناه تفيضان دموعاً ، وجعل القاسم يقبّل يديه طالباً منه الإذن ، فسمح له بعد إلحاحه وترجّيه ، وبرز القاسم إلى حومة الحرب وهو بشوق عارم إلى الشهادة ، ولم يضف على جسده لامة الحرب ، وإنّما صحب معه سيفه ، والتحم مع أُولئك القرود ، فجعل يحصد رؤوسهم بسيفه ، وبينما هو يقاتل إذ انقطع شسع نعله ، فأنف سليل النبوة أن تكون أحد رجليه بلا نعل فوقف يشدّه متحدّياً تلك الوحوش الكاسرة التي لا تساوي نعله ، واغتنم هذه الفرصة الوغد الخبيث عمرو بن سعد الأزدي ، فقال : والله لأشدن عليه ، فأنكر عليه حميد بن مسلم ، وقال له :

سبحان الله ! وما تريد بذلك يكفيك هؤلاء القوم الذين ما يبقون على أحد منهم . فلم يعنِ به ، وشدّ الخبيث عليه فعلاه بالسيف على رأسه الشريف ، فهوى الفتى إلى الأرض صريعاً كما تهوي النجوم ونادى رافعاً صوته :

يا عمّاه .

وذاب قلب الإمام ، وأسرع إليه فعمد إلى القاتل الأثيم فضربه بالسيف فاتّقاها بساعده فقطعها من المرفق وطرحه أرضاً ، فحملت خيل أهل الكوفة لاستنقاذه إلّا أنّه هلك تحت حوافرها ، وانعطف الإمام نحو ابن أخيه فجعل يقبّله ، والفتى يفحص بيديه ورجليه ، وهو يعاني آلام الاحتضار فخاطبه الإمام :

« بُعداً لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك . . عزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك صوته ، والله هذا يوم كثر واتره ، وقلّ ناصره . . » .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه‌السلام ٣ : ٢٥٥ .

وحمله الإمام والفتى يفحص برجليه كالطير المذبوح[(١)] وجاء به فألقاه بجوار ولده علي الأكبر وسائر الشهداء من أهل البيت ، وأخذ يطيل النظر إليهم ، وجعل يدعو على السفكة المجرمين قائلاً:

« اللّهمّ أحصهم عدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ، ولا تغفر لهم أبداً ، صبراً يا بني عمومتي ، صبراً يا أهل بيتي ، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبداً . . » .

وكل هذه المناظر المفجعة التي تميد بالصبر وتعصف كانت بمرأى من عقيلة بني هاشم ، فكانت تستقبل في كل لحظة فتى من الأُسرة النبوية ، وهو مضرّج بدمائه ،لها الله ولأخيها على هذه الرزايا التي تميد من هولها الجبال .

مصرع عون :

وبرز إلى حومة الحرب عون بن عبدالله بن جعفر ، وأمه الصدِّيقة الطاهرة زينب بنت أمير المؤمنين ، فجعل يقاتل على صغر سنه قتال الأبطال وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا ابن جعفر   شهيد صدق في الجنان أزهر

يطير فيها بجناح أخضر   كفى بهذا شرفاً من معشر

أنت أيها الشهم حفيد الشهيد الخالد جعفر الطيار الذي قطعت يداه في سبيل الدعوة الإسلامية ، فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الفردوس الأعلى .

وجعل الفتى يقاتل قتال الأبطال فحمل عليه الوغد الأثيم عبدالله بن قطبة الطائي فقتله .

وحمل إلى المخيم فاستقبلته أمه الصدِّيقة الطاهرة ، ونظرت إليه وهو جثة هامدة فاحتسبته عند الله .

وحلّ بعده أبناء الأُسرة الهاشمية فاستشهدوا جميعاً قرابين للإسلام ، وفداءً

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٥٦ .

لريحانة رسول الله ﷺ .

مصرع أبي الفضل:

وكان أبو الفضل العباس من أحبّ الناس وأخلصهم للإمام الحسين عليه السلام فقد ربّاه وغذّاه بمكارم أخلاقه ومحاسن صفاته ، وعلّمه أحكام الدّين حتى صار من أفاضل العلماء ، وكان ملازماً لأخيه في حلّه وترحاله ، وواساه في أقسى المحن والخطوب ، وكانت اخوته لأبي عبدالله مضرب المثل عند جميع الناس ، وكانت أسارير النور بادية على وجهه الكريم حتى لقّب بقمر بني هاشم ، وكان من الأبطال البارزين في الإسلام ، فكان إذا ركب الفرس المطهّم تخطّان رجلاه في الأرض ، وقد أسند إليه الإمام الحسين عليه السلام يوم الطفّ قيادة جيشه ودفع إليه رايته .

وكان أبو الفضل هو المتعهّد لرعاية الصدّيقة سيدة النساء زينب عليها السلام ، وقد احتلّ قلبها ، فكانت تكنّ له أعمق الودّ والولاء .

ولمّا رأى قمر بني هاشم وحدة أخيه وقتل أصحابه وأهل بيته الذين قدّموا أرواحهم قرابين للإسلام انبرى يطلب الرخصة من أخيه ليلاقي مصيره المشرق ، فقال له الإمام بصوت خافت :

« أنت صاحب لوائي . . » .

لقد كان الإمام يشعر بالقوة والمنعة ما دام أبوالفضل حيّاً .

وألحّ عليه أبو الفضل قائلاً:

« لقد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين ، وأريد أن آخذ ثأري منهم . . » .

وطلب منه الإمام أن يسعى لتحصيل الماء إلى الأطفال الذين صرعهم العطش ، فانعطف فخر بني هاشم نحو أولئك الأنذال فجعل يعظهم ويطلب منهم أن يرفعوا الحصار عن الماء ، فقد أشرفت عائلة آل رسول الله ﷺ على الموت ، فأجابه الرجس الأثيم شمر بن ذي الجوشن قائلاً:

يابن أبي تراب ، لو كانَ وجه الأرض كلّه ماءً ، وهو تحت أيدينا ، لما سقيناكم منه قطرة إلّا أن تدخلوا في بيعة يزيد .

وقفل أبو الفضل راجعاً إلى أخيه فأخبرهُ بعتو القوم وإجماعهم على حرمان أهل البيت من الماء ، وسمع الأبي الشهم صراخ الأطفال وهم ينادون : العطش ، العطش ، الماء ، الماء .

وذاب قلب أبي الفضل حينما رأى الأطفال قد ذبلت شفاههم وأشرفوا على الهلاك ، فسرى الألم العاصف في محياه واندفع ببسالة لإغاثتهم ، فركب جواده وأخذ معه القربة ، فاقتحم الفرات غير حافل بالقوى المكثفة التي تقدّر بأربعة آلاف جندي مسلّح قد احتلّوا حوض الفرات ، فانهزموا من بين يديه ، فقد ذكّرهم ببطولات أبيه فاتح خيبر ومحطّم أوثان القرشيّين ، وانتهى إلى الماء ، وكان قلبه الشريف قد تفتّت من العطش ، فاغترف من الماء ليشرب منه إلّا أنّه تذكّر عطش أخيه ومن معه من النساء والأطفال فرمى الماء من يده ، فامتنع أن يروي غليله من الماء . وقد سجّل بذلك شرفاً للعلويّين تردّده الأجيال مقروناً بالإكبار والتعظيم لهذه الاخوة النادرة التي لم يحدّث التأريخ بمثلها .

لقد رمى أبو الفضل الماء من يده وهو يقول :

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنتِ أن تكوني
هذا الحسين وارد المنون وتشربين بارد المعين
تالله ما هذا فعالُ ديني

إنّ الإنسانية بكل إجلال وإكبار لتحيّي هذه الروح العظيمة التي تألّقت في دنيا الإسلام وهي تلقي على الأجيال أسمى أمثلة للكرامة الإنسانية .

أي إيثار أنبل من هذا الإيثار ؟

أي أخوة أسمى من هذه الأخوة ؟

واتّجه فخر هاشم بعد أن ملأ القربة نحو المخيم ، والتحم مع الأرجاس ، فقد أحاطوا به من كل جانب ليمنعوه من إيصال الماء إلى عطاشى أهل البيت ، وقد أشاع فيهم بطل الإسلام القتل وهو يرتجز:

لا أرهب المـوت إذا المـوت زقـا   حتى أوارى فـي المـصاليت لقـى
نفسي لسبط المصطفى الطهر وقى   إنـي أنـا العـباس أغـدو بـالسقا
ولا أخـاف الشـرَّ يـوم الملتقى

لقد أعلن قمر الهاشميّين عن بطولاته النادرة فهو لا يرهب الموت ، ويسخر من الحياة دفاعاً عن الحقّ ودفاعاً عن إمام المسلمين وريحانة الرسول .

وانهزمت جيوش الأُمويين أمامه ، ولكن الوضر الجبان زيد بن الرقاد الجهني كمن له من وراء نخلة ، ولم يستقبله بوجهه فضربه على يده فقطعها ، فلم يحفل بها أبو الفضل وراح يرتجز:

والله إن قـــطعتم يـــميني   إنّــي أحــامي أبـداً عـن ديـني
وعـــن إمــام صـادق اليـقين   نــجل النـبيّ الطـاهر الأمــين

ودلل بهذا الرجز عن الأهداف العظيمة التي ناضل من أجلها وهي الدفاع عن الدين ، والدفاع عن إمام المسلمين وريحانة رسول الله ﷺ ، ولم يـبعد قـمر بـني هاشم وفخر عدنان حتى كمن له وراء نخلة رجس من أرجاس المـجرمين ، وهـو الحكيم بن الطفيل الطائي فضربه على يساره فبراها ، وحمل الشهم النـبيل القـربة بأسنانه ، وجعل يركض بالماء إلى عطاشى آل النبيّ غير حافل بما كان يعانيه من نزف الدماء وآلام الجروح وشدة الظمأ . . وهذا منتهى ما وصلت إليه الإنسانية في جميع أدوارها من الرحمة والحنان والوفاء ، وبينما هو يركض إذ أصاب القربة سهم غادر فأُريق ماؤها ووقف البطل حزيناً ، فقد كان إراقة الماء أشدّ عليه مـن ضـرب السيوف وطعن الرماح .

وشدّ عليه رجس نعلاه بعمود من حديد على هامة رأسه ففلق هامته ، فهوى إلى الأرض ، وهو يؤدي تحيّته ووداعه الأخير إلى أخيه قائلاً :

« عليك منّي السلام أبا عبدالله . . » .

وحمل الأثير كلماته إلى أخيه فمزّقت أحشاءه ، وانطلق وهو خائر القوى منهدّ الركن حتى انتهى إلى أخيه وهو يعاني آلام الاحتضار ، فألقى بنفسه عليه وجعل يوسعه تقبيلاً قائلاً :

« الآن انكسر ظهري ، وقلّت حيلتي . . » .

وجعل أبو الأحرار يطيل النظر في أخيه وهو شاحب اللون وتمثّلت أمامه مثل أبي الفضل التي لا ندّ لها في جميع مراحل التأريخ .

فليس هناك اخوة تضارع اخوة أبي الفضل لأخيه أبي الأحرار ، فقد أبدى من الوفاء والولاء لأخيه ما يفوق حد الوصف .

وقام الثاكل الحزين عن أخيه بعدما فارقته الحياة ، وهو لا يتمكّن أن يقلّ قدميه من الأسى والحزن ، وقد بان عليه الانكسار ، واتّجه صوب المخيم وهو يكفكف دموعه ، فاستقبلته سكينة بلهفة قائلة :

أين عمي ؟

فأجابها بنبرات مشفوعة بالبكاء والعبرات بشهادته ، وذعرت حفيدة الرسول سيّدة النساء زينب عليها السلام ، فوضعت يدها على قلبها الذي مزّقته كوارث كربلاء ، وصاحت :

« وا أخاه ، وا عباساه ، وا ضيعتنا بعدك . . » .

وشارك الإمام شقيقته في النياحة على أخيه ، ورفع صوته :

« وا ضيعتنا بعدك يا أبا الفضل . . » .

لقد شعر الإمام وشقيقته بالضياع والغربة بعد أن فقد أبا الفضل ، وكانت هذه الكارثة من أفجع الكوارث التي رزئت بها حفيدة الرسول .

فسلام عليك يا أبا الفضل يوم ولدت ، ويوم استشهدت ، ويوم تبعث حياً .

مصرع الرضيع :

ومن الفجائع التي منيت بها سيّدة النساء مصرع الرضيع ، فقد أُغمي عليه من شدّة الظمأ ، فجاءت به أمّه إلى السيّدة زينب مستجيرة بها وعرضته على أخيها فأخذه وجعل يوسعه تقبيلاً ، وقد غارت عيناه ، وذبلت شفتاه من شدة العطش ، فحمله الإمام إلى الجيش الأموي لعلّهم يسقونه جرعة من الماء ، فلم ترق قلوب أُولئك الممسوخين ، وانبرى إليه الرجس الخبيث حرملة ابن كاهل ، فسدّد له سهماً ، وجعل يفتخر أمام أصحابه قائلاً: خذ هذا فاسقه .

واخترق السهم ـ يالله ـ رقبة الطفل ، فلمّا أحس بحرارة السهم أخرج يديه من القماط ، وجعل يرفرف على صدر أبيه كالطير المذبوح ، وانحنى رافعاً رأسه إلى السماء فمات على ذراع أبيه . . أي صبر كان صبر أبي عبدالله ، كيف استطاع أن يتحمّل هذه الرزايا والكوارث التي تميد من هولها الجبال .

والتفت الإمام إلى شقيقته فناولها ولده المذبوح[١] ورفع الإمام يديه وكانتا مملوءتين من دم طفله ، فرمى به إلى السماء وقال :

« هوّن ما نزل بي إنّه بعين الله . . » .

ولم تسقط من ذلك الدم الطاهر قطرة واحدة إلى الأرض ، كما روى ذلك الإمام الباقر عليه السلام .

الفاجعة الكبرى :

ووقف أبو الأحرار في الميدان ، وقد أحاطت به جيوش الأمويين وهو ثابت الجنان

---

(١) اللهوف : ٥٠ .

لم يوهن عزيمته مصارع أصحابه وأهل بيته وكان كالطود الشامخ ، وقد روى الإمام زين العابدين عليه السلام صمود أبيه قال : كان كلّما يشتدّ الأمر يشرق لونه ، وتطمئن جوارحه ، فقال بعضهم : انظروا كيف لا يبالي بالموت ، وقال عبدالله بن عمار : فوالله ما رأيت مكثوراً قط قد قُتل ولده وأصحابه أربط جأشاً منه ، ولا أمضى جناناً منه ، ووالله ما رأيت قبله ولا بعده مثله[1] .

وحمل أبي الضيم على أرجاس البشرية فجعل يقاتلهم أعنف قتال وأشده ، وحمل على الميمنة وهو يرتجز :

« الْقَتْلُ أَوْلىٰ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ وَالْعَارُ أَوْلىٰ مِنْ دُخُولِ النَّارِ »

وحمل على الميسرة وهو يرتجز :

« أنا الحسين بن علي آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبي »

أجل أنت الحسين ، وأنت ملئت فم الدنيا شرفاً ومجداً ، فلم تشاهد أُمم العالم وشعوب الأرض مثلك يا مفخرة الإسلام ، فقد صمدت أمام الأهوال والكوارث التي لا يطيق حملها أي مصلح على وجه الأرض . . . وقد مضيت على دين جدّك الرسول مجدداً له ولولاك لما أبقى الأُمويون والقرشيون أي ظلّ لدين الله .

وداعه لعقائل الوحي :

ومضى الحسين يودع عقائل النبوة ، وسيّدات نساء الدنيا ، ويأمرهن بالخلود إلى الصبر ، ونظر إلى شقيقته زينب وهي غارقة بالدموع ، فعزاها وأمرها بالصبر ، وأن

---

(١) تاريخ ابن كثير ٨ : ١٨٨ .

تقوم برعاية أطفاله ، ولمّا أراد الخروج أحطن به السيّدات ليتزوّدن منه ، وهنّ يذرفن أحرّ الدموع ، والتفت الإمام زين العابدين عليه السلام إلى عمّته زينب ، فقال لها :

« عليّ بالعصا والسيف » .

« ما تصنع بهما ؟ » .

« أمّا العصا فأتوكّأ عليها ، وأمّا السيف فأذبّ به عن ابن رسول الله » .

وكانت الأمراض قد ألمّت به فنهاه الإمام الحسين عليه السلام وأمسكته عمّته زينب .

وأمر الإمام حرم الرسالة بلبس الأزر ، والاستعداد للبلاء ، والتسليم لقضاء الله ، وقال لهن :

« استعدوا للبلاء ، واعلموا أن الله تعالى حاميكم وحافظكم وسينجيكم من شرّ الأعداء ، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ، ويعذّب عدوّكم بأنواع العذاب ، ويعوّضكم عن هذه البلية بأنواع النِعم والكرامة فلا تشكوا ، ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص قدركم . . » .

إنّ هذا الايمان ، وهذا الصبر أجدر بالخلود من هذا الكوكب الذي نعيش عليه .

إن هذه الرزايا تتصدّع من هولها الجبال ، وتميد بحلم أي مصلح كان ، وقد تجرّعها أبي الضيم من أجل رفع كلمة التوحيد التي جهدت الأسر القرشية على إطفاء نورها .

مناجاته مع الله :

واتّجه الإمام العظيم في تلك اللحظات الحاسمة من حياته إلى الله تعالى ، فأخذ يناجيه ويتضرع إليه ، ويشكو إليه ما ألم به من الخطوب قائلاً :

« صبراً على قضائك يا ربّ ، لا إله سواك ، يا غياث المستغيثين ما لي ربٌّ سواك ، ولا معبود غيرك ، صبراً على حكمك ، يا غياث من لا غياث له ، يا دائماً

لا نفاد له ، يا محيي الموتى ، يا قائماً على كل نفس ، احكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين »[(١)] .

أرأيتم هذا الإيمان الذي تفاعل مع شعور الإمام وعواطفه فقد صبر على قضائه ، وفوّض إليه جميع ما نزل به من الخطوب .

يقول الدكتور الشيخ أحمد الوائلي :

يا أبا الطفّ وازدهى بالضحايا	من أديم الطفوف روض خميل
نخبة من صحابة وشقيق	ورضيع مطوق وشبول
والشباب الفتيان جف فغاضت	طلعة حلوة ووجه جميل
وتوغلت تستبين الضحايا	وزواكي الدماء منها تسيل
ومشت في شفاهك الغر نجوى	نم عنها التحميد والتهليل
لك عتبي يا ربّ إن كان يرضيك	فهذا إلى رضاك قليل

الهجوم عليه :

وهجمت على سبط رسول الله ﷺ العصابة المجرمة التي تحمل رجس الأرض وخبث اللئام ، فحملوا عليه من كل جانب ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ، ويقول بعض المؤرخين :

إنّه لم يضرب أحد في الإسلام كما ضرب الحسين ، فقد وجد به مائة وعشرون جراحة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم[(٢)] .

ومكث أبو الأحرار مدّة من الزمن على وجه الأرض ، وقد فتكت الجراحات بجسمه ، وقد هابه الجميع ، ونكصوا من الإجهاز عليه يقول السيّد حيدر :

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٨٨ .

(٢) الحدائق الوردية ١ : ١٢٦ .

فما أجلت الحرب عن مثله صريعاً يجبّن شجعانها

خروج العقيلة:

وخرجت حفيدة الرسول من خبائها ، وهي تندب أخاها بأشجى ما تكون الندبة ، وتقول بذوب روحها:

« ليت السماء وقعت على الأرض . . » .

وصاحت بالخبيث الدنس عمر بن سعد قائلة:

« يا عمر ، أرضيت أن يقتل أبو عبدالله وأنت تنظر إليه . . » .

فأشاح الخبيث بوجهه عنها ودموعه تسيل على لحيته المشؤومة(١) .

ولم تعد العقيلة الطاهرة تقوى على النظر إلى أخيها وهو بتلك الحالة فانصرفت إلى خبائها لترعى المذاعير من النساء والأطفال .

الإجهاز على الإمام:

أحاط أعداء الله بالإمام من كل جانب وهم يوسعونه ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ورمياً بالحجارة ، فصاح بهم:

« أعلى قتلي تجتمعون ، أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله ، وأيم الله إنّي لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون . . » .

والتفت الخبيث عمر بن سعد إلى شبث بن ربعي ، فقال:

انزل فجئني برأسه ، فامتنع ، وقال:

أنا بايعته ، ثمّ غدرت به ، ثمّ أنزل فأحتز رأسه ! لا والله لا أفعل ذلك .

فأنكر ابن سعد كلامه وقال:

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٩٠ .

إذاً أكتب إلى ابن زياد .

ولم يعتن شبث بذلك ، وقال : اكتب له[١] .

وبادر المجرم الخبيث شمر بن ذي الجوشن ، وكان من أعدى المجرمين على الإمام ، فاحتز رأسه الشريف كما في بعض الروايات[٢] .

لقد استشهد الإمام العظيم من أجل أن يرفع كلمة الله في الأرض ويطيح بدولة الظلم والبغي التي أقامتها الأحقاد القرشية على الإسلام .

لقد قدّم الإمام روحه ثمناً للقرآن ، وثمناً لكل ما تسمو به الإنسانية من شرف وعزّ وإباء .

لقد رفع الإمام راية الإسلام عالية خفّاقة ، وهي ملطّخة بدمه ودم الشهداء من أهل بيته وأصحابه الممجدين ، وهي تضيء في رحاب الكون ، وتفتح الآفاق الكريمة لشعوب العالم وأمم الأرض .

العقيلة أمام الجثمان المقدس :

وانبرت حفيدة الرسول ﷺ إلى جثمان أخيها ، وقد رأت ـ ويا لهول ما رأت ـ رأت الجثمان المقدّس وقد مزّقته سيوف البغاة ورماحهم ، وقد مُثّل به كأفظع وأقسى ما يكون التمثيل ، لقد كان منظراً تلجم منه الألسن ، وتجمد منه الدماء ، وتهلع منه القلوب ، لقد وقفت العقيلة أمامه بجلال وحشمة ، وقد أحاط بها الأعداء ، فرمقت السماء بطرفها ، وقالت هذه الكلمات التي ارتسمت مع الفلك ثم دارت فيه ، وهي تشعّ بروح الإيمان والإخلاص إلى الله تعالى قائلة :

« اللّهمّ تقبّل منّا هذا القربان . . » .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٢٩١ .

(٢) مقتل الخوارزمي ٢ : ٣٦ ، وغيره .

لقد رضيت بما عانته حفيدة الرسول ﷺ من أهوال هذه الكارثة التي تذوب من هولها الجبال ، لأنها في ذات الله تعالى ، الذي هامت في الإنابة إليه .

لقد تجلّت معاني الوراثة النبوية في سيّدة النساء زينب وبرزت في شخصيتها معالم شخصية جدّها الرسول ﷺ ووصيّة أبيها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

حرق الخيام:

وأوعزت القيادة العامة إلى الجند بحرق خيام آل النبيّ ﷺ فحملوا أقبسة من النار وهم ينادون :

احرقوا بيوت الظالمين[1] .

لقد كان بيت الإمام ـ حسب ما يزعمون ـ بيت الظلم وبيت ابن مرجانة وسيده يزيد حفيد أبي سفيان بيت العدل ! فيالله أمام هذا الظلم الذي لم يقع نظيره في تأريخ الأمم والشعوب .

وتنصّ بعض المصادر إلى أنّ عمر بن سعد أمر بحرق الخيام بما فيها من النساء والأطفال ، وقد حاول الشمر ذلك إلّا أنّ شبث بن ربعي عذله ومنعه عن ذلك .

وعلى أي حال فحينما التهبت النار في خيم آل النبيّ فررن بنات الرسالة وعقائل الوحي من خباء إلى خباء ، أمّا اليتامى فقد علا صراخهم وتعلّق بعضهم بأذيال عمّته الحوراء لتحميه من النار ، وهام بعضهم على وجهه لا يلوي على شيء .

لقد كان ذلك المنظر من أفجع وأقسى ما مر على آل النبيّ ، ولم يغب عن

---

(١) التاريخ المظفري : ٢٢٨ .

ذهن الإمام زين العابدين عليه السلام طيلة المدّة التي عاشها بعد أبيه ، وكان يذكره مشفوعاً بالأسى والحزن ، وهو يقول :

« والله ما نظرت إلى عماتي واخواتي إلّا وحنقتني العبرة ، وتذكّرت فرارهن يوم الطفّ من خيمة إلى خيمة ومن خباء إلى خباء ، ومنادي القوم ينادي : احرقوا بيوت الظالمين . . » .

سلب حرائر الوحي:

وعمد أراذل أهل الكوفة ، وعبيد ابن مرجانة إلى سلب حرائر النبوة وعقائل الوحي ، فسلبوا ما عليهن من حلي وحلل ، وعمد بعض الأنذال إلى السيّدة أُم كلثوم فسلب قرطيها ، وأسرع وغد خبيث نحو السيّدة فاطمة بنت الحسين فانتزع خلخالها وهو يبكي ، فقالت له السيّدة : ما لك تبكي ؟

كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ولمّا رأت ذلك أنكرت عليه ، وطلبت منه أن لا يسلبها فأجابها :

أخاف أن يأخذه غيري[1] .

وعمد الأرجاس إلى نهب جميع ما في الخيام من ثقل ومتاع ،كما عمدوا إلى ضرب بنات رسول الله صلى الله عليه وآله بكعوب رماحهم وهن يلذن بعضهن ببعض من الرعب ، وقد سقطت السيّدة فاطمة بنت الإمام الحسين مغشياً عليها من شدّة الضرب ، فلمّا أفاقت رأت عمّتها السيّدة أُمّ كلثوم تبكي عند رأسها[2] .

إنّ مأساة بنات الوحي وعقائل الرسالة تذوب من هولها الجبال .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ : ٢٠٤ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٠٢ .

إنقاذ العقيلة لزين العابدين :

وهجم الفجرة الجفاة على الإمام زين العابدين عليه السلام ، وكان مريضاً قد أنهكته العلة ، فأراد الخبيث الأبرص شمر بن ذي الجوشن قتله فنهره حميد بن مسلم وقال له :

سبحان الله أتقتل الصبيان ، إنّما هو مريض .

فلم يعن به الخبيث ، ورام قتل الإمام إلّا أنّ العقيلة سارعت نحوه ، فتعلّقت به ، وقالت :

« لا يقتل حتى أُقتل دونه . . »[1] .

فكفّ اللئيم عنه ، ولولا السيّدة زينب لمحيت ذرّية أخيها الحسين .

ليلة الحادي عشر :

وأقسى ليلة مرّت على حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله هي ليلة الحادي عشر من المحرم ، فقد أحاطت بها جميع رزايا الدنيا ومصائب الأيام ، فقد تسلّحت بالصبر ، وقامت برعاية أيتام أخيها ، فقد سارعت تلتقط الأطفال الذين هاموا على وجوههم من الخوف ، وتجمّع العيال في تلك البيداء الموحشة ، وهي تسلّيهم وتصبّرهم على تحمل تلك الرزايا ، وأمامها الأشلاء الطاهرة قد تناثرت في البيداء ، وأُحرقت أخبيتها ، وقد أحاط بها أرجاس البشرية ووحوش الأرض .

العقيلة تؤدي صلاة الشكر :

وقامت العقيلة في تلك الليلة القاسية فأدّت صلاة الشكر لله تعالى على ما حلّ بها وبأهلها من الكوارث والخطوب ، طالبة من الله أن يتقبّل ما منيت به من الرزايا ، وأن

---

(١) تاريخ القرماني : ١٠٨ .

يثيبها على ذلك ، ويتقبّل ما جرى عليها وعلى أخيها من المصائب[(١)] . كما أدّت وردها من صلاة الليل ، وقد استولى عليها الضعف فأدّت الصلاة من جلوس[(٢)] .

العقيلة تندب أخاها :

ونظرت حفيدة الرسول ﷺ إلى جثمان أخيها ، وهو مقطّع الأعضاء قد فصل عنه الرأس الشريف ، فلم تملك نفسها ، وصاحت بصوت يذيب القلوب :

« يا محمّداه ، هذا حسين بالعراء ، مرمّل بالدماء ، مقطّع الأعضاء ، وبناتك سبايا ، وذرّيتك مقتّلة . . »[(٣)] .

ووجم القوم مبهوتين ، وفاضت دموعهم ، وبكى العدو والصديق[(٤)] فقد استبان عظم الجريمة التي اقترفوها وودّوا أنّ الأرض قد خاست بهم .

العقيلة تخفّف لوعة زين العابدين :

وجزع الإمام زين العابدين كأشدّ ما يكون الجزع حينما رأى جثمان أبيه وجثث أهل بيته وأصحابه منبوذة بالعراء لم ينبر أحد إلى مواراتها ، وبصرت به العقيلة وهو يجود بنفسه ، فقالت له :

« ما لي أراك تجود بنفسك يا بقيّة جدّي واخوتي ، فوالله إنّ هذا لعهد من الله إلى جدّك وأبيك ، ولقد أخذ الله ميثاق أناس لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم معروفون في أهل السماوات ، إنّهم يجمعون هذه الأعضاء المقطّعة والجسوم

---

(١) زينب الكبرى : ٦٢ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه‌السلام ٣ : ٣٠٩ .

(٣) خطط المقريزي ٢ : ٢٨٠ . البداية والنهاية ٨ : ١٩٣ .

(٤) جواهر المطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب : ١٤٠ .

المضرّجة فيزارونها ، وينصبون بهذا الطفّ علماً لقبر أبيك سيّد الشهداء لا يدرس أثره ، ولا يمحى رسمه على كرور الليالي والأيام ، وليجهدن أئمّة الكفر وأشياع الضلال في محوه وطمسه فلا يزداد أثره إلى علواً . . »[1] .

وأزالت سيّدة النساء ما ألمّ بابن أخيها من الحزن العميق ، فقد أحاطته علماً بما سمعته من جدّها وأبيها من قيام جماعة من المؤمنين بمواراة الجثث الطاهرة وسينصب لها علم لا يمحى أثره حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد جدّ الأقزام من ملوك الأمويّين وإخوانهم العباسيّين على محو تلك المراقد العظيمة فلم تزدد إلّا علواً ، وبقيت شامخة على الدهر كأعزّ مرقد على وجه الأرض .

لقد مضت ذكرى أبي الأحرار تملأ الدنيا إشراقاً وفخراً كأسمى ذكرى تعتزّ بها الإنسانية في جميع أدوارها .

---

(١) كامل الزيارات : ٢٢١ .

سبايا آل البيت في الكوفة

وحُملت عقائل النبوة وحرائر الوحي سبايا إلى الكوفة ومعهن الأيتام ، وقد ربطوا بالحبال ، وحملوا على جمال بغير وطاء ، وقد عزفت أبواق الجيش ، وخفقت راياتهم ، وكان منظر رهيباً تهلع منه القلوب ، وقد وصفه مسلم الجصّاص ، يقول :

دعاني ابن زياد لإصلاح دار الإمارة بالكوفة فبينما أجصص الأبواب ، وإذا بالزعقات قد ارتفعت من جميع الكوفة ، فقلت لأحد خدام القصر :

ما لي أرى الكوفة تضجّ ؟

الساعة يأتون برأس خارجي خرج على يزيد .

من هذا الخارجي ؟

الحسين بن عليّ .

وكان هذا النبأ كالصاعقة على رأسه ، فقد أخذ يلطم على وجهه حتى خشي على عينيه أن تذهبا ، وغسل يديه من الجص ، وخرج من القصر ، يقول : فبينما أنا واقف والناس يتوقّعون وصول السبايا والرؤوس إذ أقبل أربعون جملاً تحمل النساء والأطفال ، وإذا بعلي بن الحسين على بعير بغير غطاء ، وأوداجه تشخب دماً ، وهو يبكي ويقول :

يا أمة السوء لا سقيا لربعكم ... يا أمة لم تراع جدّنا فينا

لو أنّنا ورسول الله يجمعنا ... يوم القيامة ما كنتم تقولونا

تسـيرونا عـلى الأقـتاب عـارية كأنّـنا لم نشـيد فـيكم ديـنا [١]

وتحدّث حذيم بن شريك الأسدي عن ذلك المنظر المؤلم يقول : قدمت إلى الكوفة سنة (٦١هـ) عند مجيء عليّ بن الحسين من كربلاء إلى الكوفة ، ومعه النسوة وقد أحاطت بهم الجنود ، وقد خرج الناس ينظرون إليهم ، وكانوا على جمال بغير غطاء ، فجعلت نساء أهل الكوفة يبكين ويندبن ، ورأيت عليّ بن الحسين قد أنهكته العلّة ، وفي عنقه الجامعة ، ويده مغلولة إلى عنقه ، وهو يقول بصوت ضعيف : « إن هؤلاء يبكون وينوحون من أجلنا فمن قتلنا » .

وانبرت إحدى السيّدات فسألت إحدى العلويات وقالت لها :

من أي الأسارى أنتن ؟

فأجابتها العلوية :

نحن أُسارى أهل البيت .

وكان هذا النبأ كالصاعقة عليها فصرخت ، وصرخت اللّاتي كنّ معها ، ودوي صراخهن في أرجاء الكوفة ، وبادرت المرأة إلى بيتها فجمعت ما فيه من أزر ومقانع فجعلت تناولها إلى العلويات ليتسترن بها عن أعين الناس ، كما بادرت سيدة أُخرى فجاءت بطعام وتمر ، وأخذت تلقيه على الصبية التي أضناها الجوع ، ونادت السيّدة أُمّ كلثوم من خلف الركب :

« إنّ الصدقة حرام علينا أهل البيت . . »[٢] .

ولمّا سمعت الصبية التي تربّت بآداب أهل البيت مقالة عمّتهم رمى كل واحد ما في يده أو ما في فمه من الطعام ، وراح يقول لمن معه : إنّ عمّتي تقول :

« الصدقة حرام علينا أهل البيت . . » .

---

(١) مقتل الحسين عليه‌السلام ـ عبدالله نور الله ، مخطوط .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه‌السلام ٣ : ٣٣٥ .

خطاب العقيلة زينب:

وحينما رأت حفيدة الرسول ﷺ زينب الجموع الزاخرة التي ملأت الشوارع والأزقة ، وقد أحاطت بها اندفعت إلى الخطابة لبلورة الرأي العام ، وإظهار المصيبة الكبرى التي داهمت العالم الإسلامي بقتل ريحانة رسول الله ﷺ وتحميل الكوفيّين مسؤولية هذه الجريمة النكراء ، فهم الذين نقضوا ما عاهدوا الله عليه من نصرة الإمام الحسين عليه السلام والذبّ عنه ، ولكنّهم خسروا ذلك وقتلوه ثم راحوا ينوحون ويبكون ، كأنهم لم يقترفوا هذا الإثم العظيم ، وهذا نصّ خطابها :

الْحَمْدُ لِلّهِ ، وَالصَّلاَةُ عَلىَ جَدِّي مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَخْيَارِ .

أَمَّا بَعْدُ: يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، يَا أَهْلَ الْخَتْلِ[1] وَالْغَدْرِ ، أَتَبْكُونَ ؟ ! فَلاَ رَقَأَتِ الدَّمْعَةُ ، وَلاَ هَدَأَتِ الرَّنَّةُ ، إِنَّمَا مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ الَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ .

أَلاَ وَهَلْ فِيكُمْ إِلَّا الصَّلَفُ وَالنَّطَفُ ، وَالصَّدْرُ الشَّنِفُ ، وَمَلَقُ الْإِمَاءِ ، وَغَمْزُ الْأَعْدَاءِ ؟ ! أَوْ كَمَرْعىً عَلىَ دِمْنَةٍ ، أَوْ كَفِضَّةٍ عَلىَ مَلْحُودَةٍ ، أَلاَ سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ .

أَتَبْكُونَ وَتَنْتَحِبُونَ ؟ ! إِيْ وَاللهِ فَابْكُوا كَثِيراً ، وَاضْحَكُوا قَلِيلاً ، فَلَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا ، وَلَنْ تَرْحَضُوهَا بِغَسْلٍ بَعْدَهَا أَبَداً ، وَأَنَّى تَرْحَضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النُّبُوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَلاَذِ خِيَرَتِكُمْ ، وَمَفْزَعِ نَازِلَتِكُمْ ، وَمَنَارِ

---

(١) في نسخة : « الغدر » .

حُجَّتِكُمْ ، وَمِدْرَةِ سُنَّتِكُمْ .

أَلَا سَاءَ مَا تَزِرُونَ ، وَبُعْداً لَكُمْ وَسُحْقاً ، فَلَقَدْ خَابَ السَّعْيُ ، وَتَبَّتِ الْأَيْدِي ، وَخَسِرَتِ الصَّفْقَةُ ، وَبُؤْتُمْ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .

وَيْلَكُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، أَتَدْرُونَ أَيَّ كَبِدٍ لِرَسُولِ اللهِ فَرَيْتُمْ ؟ ! وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ؟ ! وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟ ! وَأَيَّ حُرْمَةٍ لَهُ انْتَهَكْتُمْ ؟ ! لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا صَلْعَاءَ عَنْقَاءَ سَوْدَاءَ فَقْمَاءَ .

وَفِي بَعْضِهَا : خَرْقَاءَ شَوْهَاءَ ، كَطِلَاعِ الْأَرْضِ وَمِلَاءِ السَّمَاءِ .

أَفَعَجِبْتُمْ أَنْ مَطَرَتِ السَّمَاءُ دَماً ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَأَنْتُمْ لَا تُنْصَرُونَ ، فَلَا يَسْتَخِفَّنَّكُمُ الْمَهَلُ ، فَإِنَّهُ لَا يَحْفِزُهُ الْبِدَارُ وَلَا يَخَافُ فَوْتَ الثَّارِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَبِالْمِرْصَادِ»[١] .

لقد قرعتهم عقيلة الرسول بخطابها البليغ ، وعرّفتهم زيف إسلامهم ، وكذب دموعهم ، وأنّهم من أحطّ المجرمين ، فقد اقترفوا أفضع جريمة وقعت في الأرض ، فقد قتلوا المنقذ والمحرّر الذي أراد لهم الخير ، وفروا بقتله كبد رسول الله ﷺ وانتهكوا حرمته ، وسبوا عياله ، فأي جريمة أبشع من هذه الجريمة .

اضطراب الرأي العام :

واضطرب أهل الكوفة من خطاب سليلة النبوة ، ووصف حذيم الأسدي مدى الأثر البالغ الذي أحدثته العقيلة في خطابها يقول :

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٣٥ .

لم أر والله خفرة أنطق منها ، كأنّما تفرغ عن لسان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ورأيت الناس بعد خطابها حيارى ، واضعي أيديهم على أفواههم ، ورأيت شيخاً قد دنا منها يبكي حتى اخضبت لحيته وهو يقول : بأبي أنتم وأُمي ، كهولكم خير الكهول ، وشبابكم خير الشباب ، ونسلكم لا يبور ولا يخزى أبداً [١] .

ورأى الإمام زين العابدين عليه السلام الوضع الراهن لا يساعد على استمرارها في الخطاب ، فقطع عليها خطبتها قائلاً : « اسكتي يا عمّة فأنت بحمد الله عالمة غير معلّمة ، وفهمة غير مفهمة »[٢] .

خطاب السيّدة فاطمة :

وانبرت السيّدة فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام فخطبت أبلغ خطاب وأروعه ، وكانت طفلة وقد برزت فيها معالم الوراثة النبوية ، فقالت :

أَلْحَمْدُ للهِ عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصىَ ، وَزِنَةَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرىَ ، أَحْمَدُهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ذُبِحُوا بِشَطِّ الْفُرَاتِ بِغَيْرِ ذَحْلٍ وَلَا تِرَاتٍ .

أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَرِيَ عَلَيْكَ الْكَذِبَ ، وَأَنْ أَقُولَ عَلَيْكَ خِلَافَ مَا أَنْزَلْتَ مِنْ أَخْذِ الْعُهُودِ لِوَصِيِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام ، الْمَسْلُوبِ حَقُّهُ ، الْمَقْتُولِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ـ كَمَا قُتِلَ وَلَدُهُ بِالْأَمْسِ ـ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ ، فِيهِ مَعْشَرٌ مُسْلِمَةٌ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، تَعْساً لِرُؤُوسِهِمْ ،

---

(١) نور الأبصار : ٢٧٦ .

(٢) الاحتجاج ـ الطبرسي ٢ : ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

مَا دَفَعَتْ عَنْهُ ضَيْماً فِي حَيَاتِهِ وَلَا عِنْدَ مَمَاتِهِ، حَتّىٰ قَبَضْتَهُ إِلَيْكَ مَحْمُودَ النَّقِيبَةِ، طَيِّبَ الْعَرِيكَةِ، مَعْرُوفَ الْمَنَاقِبِ، مَشْهُورَ الْمَذَاهِبِ، لَمْ تَأْخُذْهُ اللّٰهُمَّ فِيكَ لَوْمَةُ لَائِمٍ وَلَا عَذْلُ عَاذِلٍ، هَدَيْتَهُ يَا رَبِّ لِلْإِسْلَامِ صَغِيراً، وَحَمِدْتَ مَنَاقِبَهُ كَبِيراً، وَلَمْ يَزَلْ نَاصِحاً لَكَ وَلِرَسُولِكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتّىٰ قَبَضْتَهُ إِلَيْكَ، زَاهِداً فِي الدُّنْيَا، غَيْرَ حَرِيصٍ عَلَيْهَا، رَاغِباً فِي الْآخِرَةِ، مُجَاهِداً لَكَ فِي سَبِيلِكَ، رَضِيتَهُ فَاخْتَرْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أَمَّا بَعْدُ، يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، يَا أَهْلَ الْمَكْرِ وَالْغَدْرِ وَالْخُيَلَاءِ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ إِبْتَلَانَا اللهُ بِكُمْ، وَابْتَلَاكُمْ بِنَا، فَجَعَلَ بَلَاءَنَا حَسَناً، وَجَعَلَ عِلْمَهُ عِنْدَنَا وَفَهْمَهُ لَدَيْنَا، فَنَحْنُ عَيْبَةُ عِلْمِهِ وَوِعَاءُ فَهْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَحُجَّتِهِ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي بِلَادِهِ لِعِبَادِهِ، أَكْرَمَنَا اللهُ بِكَرَامَتِهِ وَفَضَّلَنَا بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً بَيِّناً.

فَكَذَّبْتُمُونَا، وَكَفَّرْتُمُونَا، وَرَأَيْتُمْ قِتَالَنَا حَلَالاً وَأَمْوَالَنَا نَهْباً، كَأَنَّنَا أَوْلَادُ تُرْكٍ أَوْ كَابُلَ، كَمَا قَتَلْتُمْ جَدَّنَا بِالْأَمْسِ، وَسُيُوفُكُمْ تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، لِحِقْدٍ مُتَقَدِّمٍ، قَرَّتْ لِذَلِكَ عُيُونُكُمْ، وَفَرِحَتْ قُلُوبُكُمْ، إِفْتِرَاءً عَلَى اللهِ وَمَكْراً مَكَرْتُمْ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

فَلَا تَدْعُوَنَّكُمْ أَنْفُسُكُمْ إِلَى الْجَذَلِ بِمَا أَصَبْتُمْ مِنْ دِمَائِنَا وَنَالَتْ أَيْدِيكُمْ مِنْ أَمْوَالِنَا، فَإِنَّ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْمَصَائِبِ الْجَلِيلَةِ وَالرَّزَايَا الْعَظِيمَةِ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ، لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ.

تَبّاً لَكُمْ . فَانْتَظِرُوا اللَّعْنَةَ وَالْعَذَابَ ، فَكَأَنَّ قَدْ حَلَّ بِكُمْ ، وَتَوَاتَرَتْ مِنَ السَّمَاءِ نَقِمَاتُ ، فَيُسْحِتكُمْ بِعَذَابٍ وَيَذِيقُ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ثُمَّ تُخَلَّدُونَ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا ظَلَمْتُمُونَا ، أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

وَيْلَكُمْ ، أَتَدْرُونَ أَيَّةُ يَدٍ طَاعَنَتْنَا مِنكُمْ ؟ ! وَأَيَّةُ نَفْسٍ نَزَعَتْ إِلَىٰ قِتَالِنَا ؟ ! أَمْ بِأَيَّةِ رِجْلٍ مَشَيْتُمْ إِلَيْنَا تَبْغُونَ مَحَارَبَتَنَا ؟ !

قَسَتْ وَاللهِ قُلُوبُكُمْ ، وَغَلُظَتْ أَكْبَادُكُمْ ، وَطُبِعَ عَلَىٰ أَفْئِدَتِكُمْ ، وَخُتِمَ عَلَىٰ أَسْمَاعِكُمْ وَأَبْصَارِكُمْ [سَوَّلَ لَكُمُ الشَّيْطَانُ وَأَمْلَىٰ لَكُمْ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِكُمْ] غِشَاوَةً فَأَنْتُمْ لَا تَهْتَدُونَ .

فَتَبّاً لَكُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، أَيُّ تِرَاتٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَكُمْ وَذُحُولٍ لَهُ لَدَيْكُمْ بِمَا غَدَرْتُمْ بِأَخِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام جَدِّي وَبَنِيهِ وَعِتْرَةِ النَّبِيِّ الْأَخْيَارِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، وَافْتَخَرَ بِذَلِكَ مُفْتَخِرُكُمْ فَقَالَ:

نَحْنُ قَتَلْنَا عَلِيّاً وَبَنِي عَلِيٍّ
بِسُيُوفٍ هِنْدِيَّةٍ وَرِمَاحْ
وَسَبَيْنَا نِسَاءَهُمْ سَبْيَ تُرْكٍ
وَنَطَحْنَاهُمْ فَأَيُّ نِطَاحْ

بِفِيكَ أَيُّهَا الْقَائِلُ الْكَثْكَثُ وَالْأَثْلَبُ[1] ، إِفْتَخَرْتَ بِقَتْلِ قَوْمٍ زَكَّاهُمُ اللهُ وَأَذْهَبَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً ، فَاكْظِمْ وَاقْعِ كَمَا

(١) الكَثْكَث : التراب . الأثلب : فتات الحجارة والتراب .

أَقْعِىَ أَبُوكَ ، فَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِءٍ مَا اكْتَسَبَ وَمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ .

أَحَسَدْتُمُونا ـ وَيْلاً لَكُمْ ـ عَلَىَ مَا فَضَّلَنَا اللهُ .

فَمَا ذَنْبُنَا إِنْ جَاشَ دَهْراً بُحُورُنَا

وَبَحْرُكَ سَاجٍ لَا يُوَارِي الدَّعَامِصَا

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ﴾[١] .

تحدّثت سليلة النبوة في خطابها الرائع البليغ عن أُمور بالغة الأهمية ذكرناها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسين) .

صدى خطابها :

وأثّر خطاب السيّدة الزكية فاطمة في نفوس الجماهير ، فقد وجلت منه عيونهم ووجلت قلوبهم ، وعرفوا عظيم ما اقترفوه من الإثم فاندفعوا ببكاء قائلين :

حسبك يابنة الطاهرين ، فقد أحرقت قلوبنا ، وأنضجت نحورنا ، وأضمرت أجوافنا .

وأمسكت السيّدة عن الكلام ، وتركت جماهير الكوفيّين في محنتهم وشقائهم .

خطاب السيّدة أُمّ كلثوم :

وانبرت حفيدة الرسول السيّدة أُمّ كلثوم[٢] إلى الخطابة فأومأت إلى الناس

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٣٩ .

(٢) ذهب السيّد المقرّم وغيره إلى أنّ السيّدة أُمّ كلثوم هي السيّدة زينب عليها السلام .

بالسكوت ، فلمّا سكنت الأنفاس بدأت بحمد الله والثناء عليه ، ثم قالت :

« مه يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، سُوءاً لَكُمْ ، مَا لَكُمْ خَذَلْتُمْ حُسَيْناً وَقَتَلْتُمُوهُ وَانْتَهَبْتُمْ أَمْوَالَهُ وَوَرِثْتُمُوهُ وَسَبَيْتُمْ نِسَاءَهُ وَنَكَبْتُمُوهُ ؟ ! فَتَبّاً لَكُمْ وَسُحْقاً .

وَيْلَكُمْ ، أَتَدْرُونَ أَيُّ دَوَاهٍ دَهَتْكُمْ ؟ وَأَيَّ وِزْرٍ عَلَى ظُهُورِكُمْ حَمَلْتُمْ ؟ وَأَيَّ دِمَاءٍ سَفَكْتُمُوهَا ؟ ! قَتَلْتُمْ خَيْرَ رِجَالَاتٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَنُزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قُلُوبِكُمْ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

واضطرب الكوفيون من خطابها فنشرت النساء شعورهن ولطمن الخدود ، ولم ير أكثر باكٍ ولا باكية مثل ذلك اليوم .

خطاب الإمام زين العابدين :

وانبرى إلى الخطاب الإمام زين العابدين عليه السلام فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

«أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا أُعَرِّفُهُ بِنَفْسِي : أَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَنَا ابْنُ الْمَذْبُوحِ بِشَطِّ الْفُرَاتِ مِنْ غَيْرِ ذَحْلٍ وَلَا تِرَاتٍ[1] ، أَنَا ابْنُ مَنِ انْتُهِكَ حَرِيمُهُ وَسُلِبَ نَعِيمُهُ وَانْتُهِبَ مَالُهُ وَسُبِيَ عِيَالُهُ ، أَنَا ابْنُ مَنْ قُتِلَ صَبْراً وَكَفَى بِذَلِكَ فَخْراً .

أَيُّهَا النَّاسُ ، نَاشَدْتُكُمُ اللهَ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ كَتَبْتُمْ إِلَى أَبِي

---

(١) الترات : هو من ظلم حقّه .

وَخَدَعْتُمُوهُ وَأَعْطَيْتُمُوهُ مِنْ أَنْفُسِكُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ وَالْبَيْعَةَ وَقَاتَلْتُمُوهُ وَخَذَلْتُمُوهُ ؟! فَتَبّاً لِمَا قَدَّمْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَسَوْءاً لِرَأْيِكُمْ، بِأَيَّةِ عَيْنٍ تَنظُرُونَ إِلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ يَقُولُ لَكُمْ : قَتَلْتُمْ عِتْرَتِي وَانْتَهَكْتُمْ حُرْمَتِي فَلَسْتُمْ مِنْ أُمَّتِي ؟! ».

وجرّدهم بهذه الكلمات من الإسلام ، ودلّهم على جرائمهم وآثامهم التي سوّدت وجه التأريخ ، وقد علت أصواتهم بالبكاء ، ونادى مناد منهم :

هلكتم وما تعلمون .

واستمر الإمام في خطابه قائلاً :

« فَقَالَ : رَحِمَ اللهُ امْرءاً قَبِلَ نَصِيحَتِي وَحَفِظَ وَصِيَّتِي فِي اللهِ وَفِي رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَإِنَّ لَنَا فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ».

فهتفوا قائلين :

نحن يابن رسول الله سامعون ، مطيعون ، حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ، ولا راغبين عنك ، فمرنا بأمرك يرحمك الله ، فإنّا حرب لحربك وسلم لسلمك ،نبرأ ممن ظلمك وظلمنا .

وردّ الإمام عليهم هذا الولاء الكاذب قائلاً :

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، أَيَّتُهَا الْغَدَرَةُ الْمَكَرَةُ ، حِيلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِ أَنْفُسِكُمْ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ كَمَا أَتَيْتُمْ إِلَىٰ أَبِي مِنْ قَبْلُ ؟! كَلَّا وَرَبِّ الرَّاقِصَاتِ[١]، فَإِنَّ الْجَرْحَ لَمَّا يَنْدَمِلُ، قُتِلَ أَبِي صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ مَعَهُ، وَلَمْ يُنْسَ ثُكْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَثُكْلُ أَبِي وَبَنِي أَبِي ، وَوَجَدُهُ بَيْنَ لِهَاتِي وَمَرَارَتُهُ بَيْنَ حَنَاجِرِي وَحَلْقِي،

---

(١) الراقصات : هي النجوم .

وَغُصَصُهُ تَجْرِي فِي فِرَاشِ صَدْرِي[١].

وأمسك الإمام عن الكلام ، وتركهم حيارى يندبون حظّهم التعيس .

في مجلس ابن زياد:

وأدخلت عقائل الوحي ومخدرات النبوة وهن في ذلّ الأسر ، قد شهرت على رؤوسهن سيوف الكافر ابن مرجانة سليل الأرجاس والخيانة ، وهو في قصر الإمارة وقد امتلأ القصر بالسفكة المجرمين من جنوده ، وهم يهنئونه بالظفر ، ويحدّثونه بجرائمهم التي اقترفوها يوم الطفّ وهو جذلان مسرور يهزّ أعطافه فرحاً وسروراً ، وبين يديه رأس زعيم الأُمّة وريحانة رسول الله ﷺ فجعل الخبيث يعبث بالرأس الشريف ، وينكته بمخصرته ، وهو يقول متشمّتاً :

ما رأيت مثل هذا الوجه قطّ .

إنّه وجه النبوة والإمامة ، ووجه الإسلام بجميع مبادئه وقيمه .

ولم ينه ابن مرجانة كلامه حتى سدّد له الصحابي أنس بن مالك سهماً فقال له :

إنّه كان يشبه النبي[٢] .

والتاع الخبيث من كلامه ، ولم يجد أي مجال للردّ عليه .

الطاغية مع عقيلة الوحي:

ولمّا روى المجرم الخبيث ابن مرجانة أحقاده من رأس ريحانة رسول الله ﷺ التفت إلى عائلة الإمام الحسين فرأى سيّدة منحازة في ناحية من مجلسه ، وعليها أرذل

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٤٢ .

(٢) أنساب الأشراف : ٢٢٢ .

الثياب وقد حفت بها المهابة والجلال ، فانبرى ابن مرجانة سائلاً عنها ، فقال :

مَن هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فأعرضت عنه احتقاراً واستهانة به ، وكرّر السؤال فلم تجبه فانبرت إحدى السيّدات فأجابته :

هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

فالتاع الخبيث الدنس من احتقارها له ، واندفع يظهر الشماتة بلسانه الألكن قائلاً :

الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم ، وأبطل أُحدوثتكم .

فثارت حفيدة الرسول ﷺ وأجابته بشجاعة أبيها محتقرة له قائلة :

« الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَكْرَمَنَا بِنَبِيِّهِ ، وَطَهَّرَنَا مِنَ الرِّجْسِ تَطْهِيراً ، إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْفَاسِقُ وَيَكْذِبُ الْفَاجِرُ ، وَهُوَ غَيْرُنَا ، وَهُوَ غيرنَا يَابْنَ مَرْجَانَة »[1] .

وكانت هذه الكلمات كالصاعقة على رأس هذا الوضر الخبيث . لقد قالت هذا القول الصارم وهي مع بنات رسول الله ﷺ في قيد الأسر قد نصبت فوق رؤوسهن حراب الظالمين وشهرت عليهن سيوف الشامتين .

ولم يجد ابن مرجانة كلاماً يجيب به سوى التشفّي قائلاً :

كيف رأيت صنع الله بأخيك ؟

فأجابته حفيدة الرسول ، ومفخرة الإسلام بكلمات الظفر والنصر لها ولأخيها قائلة :

« مَا رَأَيْتُ إِلَّا جَمِيلاً ، هٰؤُلَاءِ قَوْمٌ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ ، فَبَرَزُوا إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَسَيَجْمَعُ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، فَتُحَاجُّ وَتُخَاصَمُ ، فَانْظُرْ لِمَنِ الْفَلَجُ يَوْمَئِذٍ ، ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَابْنَ مَرْجَانَةَ . . » .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٦٣ .

وفقد الحقير الدنس إهابه من هذا التبكيت ، والاحتقار اللاذع ، فهمّ أن يضرب العقيلة فنهاه عمرو بن حريث وقال له : إنّها امرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها .

يالله ، يا للمسلمين ، ابن مرجانة يروم أن يعتدي على عقيلة بن هاشم وحفيدة الرسول .

إنّ المسؤول عن هذا الاعتداء الصارخ على الأُسرة النبوية وعلى عقائل الوحي مؤتمر السقيفة والشورى ، فهم الذين سلّطوا على المسلمين الأُمويّين خصوم الإسلام وأعداء البيت العلوي ، وحجبوا آل البيت عن القيادة الروحية لهذه الأمّة .

وعلى أي حال ، فإن ابن مرجانة التفت إلى العقيلة مظهراً لها التشفّي بقتل أخيها قائلاً :

لقد شفى الله قلبي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك .

وغلب الأسى والحزن على العقيلة من هذا التشفّي الآثم ، وتذكّرت حماتها الصفوة من الأُسرة النبوية ، فأدركتها لوعة الأسى ، وقالت :

« لَعَمْرِي لَقَدْ قَتَلْتَ كَهْلِي ، وَقَطَعْتَ فَرْعِي ، وَاجْتَثَثْتَ أَصْلِي ، فَإِنْ كَانَ هٰذَا شِفَاؤُكَ فَقَدِ اشْتَفَيْتَ » .

وتهافت غيظ ابن مرجانة ، وراح يقول :

هذه سجّاعة ، لعمري لقد كان أبوها سجّاعاً شاعراً .

فردّت عليه العقيلة :

« إِنَّ لِيَ عَنِ السَّجَاعَةِ لَشغلاً ، مَا لِلْمَرْأَةِ وَالسَّجَاعَةِ »[1] .

ما أخسّ هذه الحياة وما ألأمها التي جعلت حفيدة الرسول أسيرة عند

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٤٤ .

ابن مرجانة ، وهو يبالغ في احتقارها .

إنقاذ العقيلة للإمام زين العابدين :

وأدار ابن مرجانة بصره في بقية الأسرى من أهل البيت فوقع بصره على الإمام زين العابدين ، وقد أنهكته العلّة فسأله :

مَن أنت ؟

« عليّ بن الحسين . . » .

فصاح به الرجس الخبيث :

أوَ لم يقتل الله علي بن الحسين .

فأجابه الإمام بإناة :

« قَدْكَانَ لِي أَخٌ يُسَمّىٰ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ قَتَلْتُموهُ ، وَإِنَّ لَهُ مِنكُم مطَالِباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . » .

فثار ابن مرجانة ، ورفع صوته قائلاً :

الله قتله .

فأجابه الإمام بكلّ شجاعة وثبات :

« **أَللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ** . . » .

ودارت الأرض بابن مرجانة ولم يعرف ما يقول ، وغاظه أن يتكلّم هذا الغلام الأسير بقوّة الحجّة ، والاستشهاد بالقرآن الكريم ، فرفع عقيرته قائلاً :

وبك جرأة على ردّ جوابي !! وفيك بقية للردّ عليّ . . » .

والتفت إلى بعض جلاديه فقال له :

خذ هذا الغلام واضرب عنقه .

وطاشت أحلام العقيلة وانبرت بشجاعة لا يرهبها سلطان ، فاحتضنت ابن أخيها ، وقالت لابن مرجانة :

« حسبك يَابْنَ زِيَادٍ مَا سَفَكْتَ مِن دِمَائِنَا ، إِنَّكَ لَمْ تُبْقِ مِنَّا أَحَداً ، فَإِنْ كُنْتَ عَزَمْتَ عَلَىٰ قَتْلِهِ فَاقْتُلْنِي مَعَهُ . . » .

وبهر الطاغية وانخذل ، وقال متعجّباً :

دعوه لها ، عجباً للرحم ودَّت أن تقتل معه .

ولولا موقف العقيلة لذهبت البقية من نسل أخيها التي هي مصدر الخير الفضيلة في دنيا العرب والإسلام .

لقد أنجا الله زين العابدين من القتل المحتم ببركة العقيلة فهي التي أنقذته من هذا الطاغية الجبار[1] .

حبس عقائل الوحي :

وأمر ابن مرجانة بحبس مخدرات الرسالة وعقائل الوحي ، فأُدخلنّ في سجن يقع إلى جانب المسجد الأعظم ، وقد ضيّق عليهن أشد التضييق ، فكان يجري على كلّ واحدة في اليوم رغيفاً واحداً من الخبز ، وكانت العقيلة تؤثر أطفال أخيها برغيفها وتبقى ممسكة حتى بان عليها الضعف ، فلم تتمكّن من النهوض وكانت تصلّي من جلوس ، وفزع الإمام زين العابدين عليه السلام من حالتها فأخبرته بالأمر .

ورفضت عقيلة بني هاشم مقابلة أيّة امرأة من الكوفيات وقالت :

« لاَ يَدْخُلَنَّ عَلَيْنَا إِلَّا أُمُّ وَلَدٍ أَوْ مَمْلُوكَةٌ ، فَإِنَّهُنَّ سُبِينَ كَمَا سُبِينَا » .

وأُلقي على بنات رسول الله صلى الله عليه وآله حجر قد ربط فيه كتاب جاء فيه : إنّ البريد قد سار بأمركم إلى يزيد فإن سمعتم التكبير فأيقنوا بالهلاك ، وإن لم تسمعوا بالتكبير فهو الأمان ، وحدّدوا لمجيء الكتاب وقتاً ، وفزعت العلويات وذعرن ، وقبل قدوم البريد بيومين أُلقي عليهم حجر آخر فيه كتاب جاء فيه : أوصوا واعهدوا فقد قارب

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٤٥ ـ ٣٤٧ .

وصول البريد ، وبعد انتهاء المدّة جاء أمر يـزيد بـحمل الأسـرى إلى دمشـق[١] .
وصرح بعض المؤرخين أنّ يزيد كان عازماً على استئصال نسل الإمام أمير المؤمنين إلّا أنّه بعد ذلك عدل عن نيّته .

وبقيت العائلة النبوية في السجن ، فلمّا جاءت أوامر يزيد بحملهم إلى دمشق لتعرض على أهل الشام ،كما عرضت على أهل الكوفة ، فقد حملت السبايا ، وأمّا رؤوس العترة الطاهرة الذين أرادوا أن يقيموا في هذا الشرق حكومة الإسلام والقرآن فقد حملت ليراها أهل الشام ويتلذّذ بمنظرها يزيد .

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٣٧ .

سبايا آل النبي في دمشق

وعانت عقائل الوحي ومخدرات النبوة والإمامة جميع ضروب المحن والبلاء أيام مكثهن في الكوفة ، فقد عانين مرارة السجن وشماتة الأعداء ، وذلّ الأسر ، وبعدما صدرت الأوامر من دمشق بحملهن إلى يزيد أمر ابن مرجانة بتسيير رؤوس أبناء النبيّ ﷺ وأصحابهم إلى الشام لتعرض على الشاميّين ،كما عرضت على الكوفيّين حتى تمتلأ قلوب الناس فزعاً وخوفاً وتظهر مقدرة الأُمويّين ، وغلبتهم على آل الرسول .

وقد سيّرت رؤوس العترة الطاهرة مع الأثيم زهير بن قيس الجعفي ، كما سيّرت العائلة النبوية مع محفر بن ثعلبة من عائذة قريش ، وشمر بن ذي الجوشن ، وقد أوثقت بالحبال ، وأركبت على أقتاب الجمال ، وهن بحالة تقشعر منها ومن ذكرها الأبدان وترتعد لها فرائص كل إنسان[١] .

وسارت قافلة الأسرى لا تلوي على شيء حتى انتهت إلى القرب من دمشق ، فأُقيمت هناك حتى تتزيّن البلد بمظهر الزهو والأفراح ، ومن الجدير بالذكر أنّ مخدّرات النبوة وباقي الأسرى قد التزموا جانب الصمت فلم يطلبوا أي شيء من أُولئك الأنذال الموكّلين بهم ، وذلك لعلم العلويات بعدم الاستجابة لأي شيء من مطالبهن .

---

(١) تحفة الأنام في مختصر الإسلام : ٨٤.

تزيين الشام:

وأمرت حكومة دمشق الدوائر الرسمية وشبه الرسمية بإظهار الزينة والفرح للنصر الذي أحرزته بقتل أبناء النبيّ ﷺ ، ووصف بعض المؤرخين تلك الزينة بقوله :

ولمّا بلغوا ـ أي أسارى أهل البيت ـ ما دون دمشق بأربعة فراسخ استقبلهم أهل الشام وهم ينثرون النثار فرحاً وسروراً حتى بلغوا بهم قريب البلد ، فوقفوهم عن الدخول ثلاثة أيام وحبسوهم هناك ، حتى تتوفّر زينة الشام وتزويقها بالحليّ والحلل والحرير والديباج والفضة والذهب وأنواع الجواهر ، على صفة لم ير الراؤون مثلها لا قبل ذلك اليوم ولا بعده ، ثمّ خرج الرجال والنساء ، والأصاغر والأكابر ، والوزراء والأمراء ، واليهود والمجوس والنصارى وسائر الملل ، إلى التفرّج ومعهم الطبول والدفوف والبوقات والمزامير ، وسائر آلات اللهو والطرب ، وقد كحّلوا العيون ، وخضبوا الأيدي ، ولبسوا أفخر الملابس ، وتزيّنوا أحسن الزينة ، ولم ير الراؤون أشدّ احتفالاً ولا أكثر اجتماعاً منه ، حتى كأن الناس كلّهم حشروا جميعاً في صعيد دمشق(١) .

لقد أبدى ذلك المجتمع الذي تربّى على بغض أهل البيت جميع ألوان الفرح والسرور بإبادة العترة الطاهرة وسبي حرائر النبوة .

وروى سهل بن سعد الساعدي ما رآه من استبشار الناس بقتل الحسين ، يقول : خرجت إلى بيت المقدس حتى توسّطت الشام ، فإذا أنا بمدينة مطردة الأنهار كثيرة الأشجار ، قد علّقت عليها الحجب والديباج ، والناس فرحون مستبشرون ، وعندهم نساء يلعبن بالدفوف والطبول ، فقلت في نفسي : إنّ لأهل الشام عيداً لا نعرفه ، فرأيت قوماً يتحدّثون فقلت لهم :

ألكم بالشام عيد لا نعرفه ؟

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٦٩ .

نراك يا شيخ غريباً ؟

أنا سهل بن سعد قد رأيت رسول الله .

يا سهل ، ما أعجبك أن السماء لا تمطر دماً ، والأرض لا تنخسف بأهلها .

وما ذاك ؟

هذا رأس الحسين يُهدى من أرض العراق .

واعجباً ، يهدى رأس الحسين والناس يفرحون ! من أيّ باب يدخل ؟

وأشاروا إلى باب الساعات ، فأسرع سهل إليها ، وبينما هو واقف وإذا بالرايات يتبع بعضها بعضاً ، وإذا بفارس بيده لواء منزوع السنان ، وعليه رأس من أشبه الناس وجهاً برسول الله ﷺ وهو رأس أبي الأحرار ، وخلفه السبايا محمولة على جمال بغير وطاء ، وبادر سهل إلى إحدى السيّدات فسألها :

من أنت ؟

« أنا سكينة بنت الحسين » .

ألك حاجة ؟ فأنا سهل صاحب جدّك رسول الله .

« قل لصاحب هذا الرأس أن يقدّمه أمامنا حتى يشتغل الناس بالنظر إليه ، ولا ينظرون إلى حرم رسول الله ﷺ » .

وأسرع سهل إلى حامل الرأس فأعطاه أربعمائة درهم فباعد الرأس عن النساء[١] .

الشامي مع زين العابدين :

وانبرى شيخ هرم يتوكّأ على عصاه ليمتّع نظره بالسبايا ، فدنا من الإمام زين العابدين فرفع عقيرته قائلاً :

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٧٠ .

الحمد لله الذي أهلككم وأمكن الأمير منكم .

وبصر به الإمام فرآه مخدوعاً قد ضلّلته الدعاية الأُموية فقال له :

« يا شيخ ، أقرأت القرآن ؟ » .

فبهت الشيخ من أسير مكبول ، فقال له بدهشة :

بلى .

« أقرأت قوله تعالى : ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ؟ » .

وبهر الشيخ وتهافت فقال :

نعم ، قرأت ذلك .

فقال له الإمام :

« نحن والله القربى في هذه الآيات . . يا شيخ ، أقرأت قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ؟ » .

بلى .

« نحن أهل البيت الذين خصّهم الله بالتطهير » .

ولمّا سمع الشيخ ذلك من الإمام ذهبت نفسه حسرات على ما فرّط في أمر نفسه ، وتلجلج وقال للإمام بنبرات مرتعشة :

بالله عليكم أنتم هم ؟

« وحق جدّنا رسول الله ﷺ إنّا لنحن هم من غير شكّ . . . » .

وودّ الشيخ أنّ الأرض قد وارته ولم يجابه الإمام بتلك الكلمات القاسية ، وألقى بنفسه على الإمام وهو يوسع يديه تقبيلاً ، ودموعه تجري على سحنات وجهه قائلاً :

أبرأ إلى الله ممّن قتلكم .

وطلب من الإمام أن يمنحه العفو والرضا فعفا الإمام عنه[١] .

سرور يزيد :

وغمرت يزيد موجات من الفرح حينما جيء له بسبايا أهل البيت ، وكان مطلاً على منظر في جيرون ، فلمّا نظر إلى الرؤوس والسبايا قال :

لما بدت تلك الحمول وأشرقت   تلك الرؤوس على شفا جيرون
نعب الغراب فقلت : قل أو لا تقل   فقد اقتضيت من الرسول ديوني[٢]

لقد أخذ ابن هند ثأره من ابن فاتح مكة ومحطم أوثان قريش ، فقد أباد العترة الطاهرة وسبى ذراريها تشفّياً وانتقاماً من الرسول الذي قتل أعلام الأمويّين .

رأس الإمام عند يزيد :

وحمل الخبيث الأبرص شمر بن ذي الجوشن ومحفر بن ثعلبة العائذي رأس ريحانة رسول الله وسيّد شباب أهل الجنة هدية إلى الفاجر يزيد بن معاوية ، فسرّ بذلك سروراً بالغاً ، فقد استوفى ثأره وديون الأمويّين من ابن رسول الله ، وقد أذن للناس إذناً عاماً ليظهر لهم قدرته وقهره لآل النبيّ ﷺ ، وازدحم الأوباش والأنذال من أهل الشام على البلاط الأموي ، وهم يعلنون فرحتهم الكبرى ، ويهنّئون يزيد بهذا النصر الكاذب[٣] . وقد وضع الرأس الشريف بين يدي سليل الخيانة ، فجعل ينكثه بمخصرته ، ويقرع ثناياه اللتين كان رسول الله ﷺ يترشفهما ، وجعل يقول :

« لقد لقيت بغيك يا حسين »[٤] .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٧١ .

(٢) مقتل الحسين عليه السلام ـ المقرّم : ٤٣٧ .

(٣) البداية والنهاية ٨ : ١٩٨ .

(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٧٤ .

ثمّ التفت إلى عملائه وأذنابه فقال لهم : « ما كنت أظنّ أبا عبدالله قد بلغ هذا السنّ ، وإذا لحيته ورأسه قد نصلا من الخضاب الأسود »[١] .

وتأمل في وجه الإمام عليه السلام فغمرته هيبته وراح يقول :

« ما رأيت مثل هذا الوجه حسناً قطّ »[٢] .

أجل إنّه كوجه رسول الله صلى الله عليه وآله الذي تحنو له الوجوه والرقاب ، والذي يشعّ بروح الإيمان ، وراح ابن معاوية يوسع ثغر الإمام بالضرب وهو يقول : إنّ هذا وإيّانا كما قال الحصين بن الحمام :

أبى قومنا إن ينصفونا فانصفت ... قواضب في إيماننا تقطر الدما

تُفلِّقن هاماً من رجال أعزَّة ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

ولم يتم الخبيث كلامه حتى أنكر عليه أبو برزة الأسلمي فقال له : أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين ، أما لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً لربّما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يرشفه ، أما انّك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا ومحمّد صلى الله عليه وآله شفيعه » .

ثمّ قام منصرفاً عنه[٣] .

السبايا في مجلس يزيد :

وعمد الأنذال من جلاوزة الخبيث ابن الخبيث يزيد بن معاوية إلى عقائل الوحي وسائر الصبية فربقوهم بالحبال كما تربق الأغنام ، فكان الحبل في عنق الإمام زين العابدين إلى عنق العقيلة زينب وباقي بنات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكانوا كلّما قصّروا عن

(١) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ٢ : ٣٥١ .

(٢) تاريخ القضاعي : ٧٠ .

(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٣٩٨ .

المشي أوسعوهم ضرباً بالسياط ، وجاءوا بهم على مثل هذه الحالة التي تتصدّع من هولها الجبال ، وهم يكبّرون ويهلّلون بسببهم لبنات رسول الله وإبادتهم لعترته .

وأوقفت مخدرات الرسالة بين يدي يزيد ، فالتفت إليه الإمام زين العابدين عليه السلام فقال له :

« **ما ظَنُّكَ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله لَوْ رَآنَا عَلىٰ هٰذِهِ الصِّفَةِ ؟** » .

فتأثّر يزيد ، ولم يبق أحد في مجلسه إلّا بكى ، وكان منظر العلويات مثيراً للعواطف ، فقال يزيد :

قبّح الله ابن مرجانة لو كان بينكم وبينه قرابة لما فعل بكم هذا .

إنّه لم يصنع بالسيّدات العلويات بمثل هذه الأعمال إلّا بأمر يزيد وإرضاءً لعواطفه ورغباته واستجابة لعواطف القرشيّين الذين ما آمنوا بالإسلام وكانت نفوسهم مترعة بالحقد لرسول الله صلى الله عليه وآله .

والتفت الطاغية إلى الإمام زين العابدين فقال له :

إيه يا عليّ بن الحسين ، أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت .

فأجابه شبل الحسين بكل طمأنينة وهدوء بقوله تعالى :

« **﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ◼ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾** » .

وثار الطاغية وقال للإمام :

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ .

فردّ عليه الإمام :

« هذا في حقّ من ظلم لا في حق من ظُلِم . . » .

وزوى الإمام بوجهه عنه ولم يكلّمه استهانة به[١] .

خطاب العقيلة :

وأظهر الطاغية الآثم فرحته الكبرى بإبادته لعترة رسول الله ﷺ فقد صفا له الملك ، واستوسقت له الأمور ، وأخذ يهزّ أعطافه جذلاناً متمنّياً حضور القتلى من أهل بيته ببدر ليريهم كيف أخذ بثأرهم من النبيّ ﷺ في ذرّيته ، وراح يترنّم بأبيات ابن الزبعري قائلاً أمام الملأ بصوت يسمعه الجميع :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلْ
فَأَهَلُّوا وَاسْتَهَلُّوا فَرَحاً ... ثُمَّ قَالُوا: يَا يَزِيدُ لَا تُشَلْ
قَدْ قَتَلْنَا الْقَوْمَ مِنْ سَادَاتِهِمْ ... وَعَدَلْنَاهُ بِبَدْرٍ فَاعْتَدَلْ
لَعِبَتْ هَاشِمُ بِالْمُلْكِ فَلَا ... خَبَرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلْ
لَسْتُ مِنْ خِنْدِفَ إِنْ لَمْ أَنْتَقِمْ ... مِنْ بَنِي أَحْمَدَ مَا كَانَ فَعَلْ

ولمّا سمعت العقيلة هذه الأبيات التي أظهر فيها التشفّي بقتل عترة رسول الله ﷺ انتقاماً منهم لقتلى بدر ، وثبت كالأسد ، فسحقت جبروته وطغيانه فكأنّها هي الحاكمة والمنتصرة والطاغية هو المخذول والمغلوب على أمره ، وقد خطبت هذه الخطبة التي هي من متمّمات النهضة الحسينية ، قالت عليها السلام :

« اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ ، صَدَقَ اللهُ كَذَٰلِكَ يَقُولُ: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾[٢] ، أَظَنَنْتَ ـ يَا يَزِيدُ ـ حَيْثُ أَخَذْتَ عَلَيْنَا

---

(١) الإرشاد : ٢٧٦ .

(٢) الروم : ١٠ .

أَقْطَارَ الْأَرْضِ وَآفَاقَ السَّمَاءِ فَأَصْبَحْنَا نُسَاقُ كَمَا تُسَاقُ الْإِمَاءِ ـ أَنَّ بِنَا عَلَى اللهِ هَوَاناً، وَبِكَ عَلَيْهِ كَرَامَةً!! وَأَنَّ ذَلِكَ لِعَظِيمِ خَطَرِكَ عِنْدَهُ!! فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ وَنَظَرْتَ فِي عَطْفِكَ، جَذْلَانَ مَسْرُوراً، حِينَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا لَكَ مُسْتَوْسِقَةً، وَالْأُمُورَ مُتَّسِقَةً، وَحِينَ صَفَا لَكَ مُلْكُنَا وسُلْطَانُنَا، فَمَهْلاً مَهْلاً، أَنَسِيتَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[١].

أَمِنَ الْعَدْلِ يَابْنَ الطُّلَقَاءِ تَخْدِيرُكَ حَرَائِرَكَ وَإِمَاءَكَ وَسُوقَكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللهِ سَبَايَا؟! قَدْ هَتَكْتَ سُتُورَهُنَّ، وَأَبْدَيْتَ وُجُوهَهُنَّ، تَحْدُو بِهِنَّ الْأَعْدَاءُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَيَسْتَشْرِفُهُنَّ أَهْلُ الْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ[٢]، وَيَتَصَفَّحُ وُجُوهَهُنَّ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَالدَّنِيُّ وَالشَّرِيفُ، لَيْسَ مَعَهُنَّ مِنْ رِجَالِهِنَّ وَلِيٌّ، وَلَا مِنْ حُمَاتِهِنَّ حَمِيٌّ.

وَكَيْفَ تُرْتَجى مُرَاقَبَةُ مَنْ لَفَظَ فُوهُ أَكْبَادَ الْأَزْكِيَاءِ، وَنَبَتَ لَحْمُهُ بِدِمَاءِ الشُّهَدَاءِ؟!

وَكَيْفَ لَا يَسْتَبْطِأُ فِي بُغْضِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ مَنْ نَظَرَ إِلَيْنَا بِالشَّنَفِ[٣] وَالشَّنَآنِ وَالْإِحَنِ وَالْأَضْغَانِ؟!

ثُمَّ تَقُولُ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ وَلَا مُسْتَعْظِمٍ:

---

(١) آل عِمْران: ١٧٨.

(٢) المنـاهل: جمع منهل، وهو موضع الشرب من العيون، والمراد من يسكن فيها.
المعاقـل: سكنة الحصون.

(٣) الشنـف: البغض والعداء.

لَأَهَــــلُّوا وَاسْـــــتَهَلُّوا فَــرَحاً

ثُــمَّ قَــالُوا : يَــا يَــزِيدُ لَا تُشَــلْ

مُنْتَحِياً عَلَىٰ ثَنَايَا أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام سَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَنْكُتُهَا بِمِخْصَرَتِكَ.

وَكَيْفَ لَا تَقُولُ ذَلِكَ، وَقَدْ نَكَأْتَ الْقَرْحَةَ، وَاسْتَأْصَلْتَ الشَّأْفَةَ، بِإِرَاقَتِكَ دِمَاءَ ذُرِّيَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَنُجُومِ الْأَرْضِ مِنْ آلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟! وَتَهْتِفُ بِأَشْيَاخِكَ، زَعَمْتَ أَنَّكَ تُنَادِيهِمْ !

فَلَتَرِدَنَّ وَشِيكاً مَوْرِدَهُمْ، وَلَتَوَدَّنَّ أَنَّكَ شُلِلْتَ وَبُكِمْتَ وَلَمْ تَكُنْ قُلْتَ مَا قُلْتَ وَفَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ.

أَللَّهُمَّ خُذْ بِحَقِّنَا، وَانْتَقِمْ مِمَّنْ ظَلَمَنَا، وَاحْلُلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دِمَاءَنَا وَقَتَلَ حُمَاتَنَا.

فَوَاللهِ مَا فَرَيْتَ إِلَّا جِلْدَكَ، وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا لَحْمَكَ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله بِمَا تَحَمَّلْتَ مِنْ سَفْكِ دِمَاءِ ذُرِّيَّتِهِ، وَانْتَهَكْتَ مِنْ حُرْمَتِهِ فِي عِتْرَتِهِ وَلُحْمَتِهِ، وَحَيْثُ يَجْمَعُ اللهُ شَمْلَهُمْ وَيَلُمُّ شَعْثَهُمْ وَيَأْخُذُ بِحَقِّهِمْ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1].

وَحَسْبُكَ بِاللهِ حَاكِماً، وَبِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله خَصِيماً، وَبِجَبْرَئِيلَ ظَهِيراً، وَسَيَعْلَمُ مَنْ سَوَّلَ لَكَ وَمَكَّنَكَ مِنْ رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً وَأَيُّكُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً.

---

(١) [illegible] : ١٦٣.

وَلَئِنْ جَرَّتْ عَلَيَّ الدَّوَاهِي مُخَاطَبَتَكَ، إِنِّي لَأَسْتَصْغِرُ قَدْرَكَ، وَأَسْتَعْظِمُ تَقْرِيعَكَ، وَأَسْتَكْثِرُ تَوْبِيخَكَ، لَكِنِ الْعُيُونُ عَبْرَى، وَالصُّدُورُ حَرّى.

أَلَا فَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِقَتْلِ حِزْبِ اللهِ النُّجَبَاءِ بِحِزْبِ الشَّيْطَانِ الطُّلَقَاءِ، فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطِفُ[1] مِنْ دِمَائِنَا، وَالْأَفْوَاهُ تَتَحَلَّبُ مِنْ لُحُومِنَا، وَتِلْكَ الْجُثَثُ الطَّوَاهِرُ الزَّوَاكِي تَنْتَابُهَا الْعَوَاسِلُ[2] وَتَعْفِرُهَا أُمَّهَاتُ الْفَرَاعِلِ[3]، وَلَئِنِ اتَّخَذْتَنَا مَغْنَماً لَتَجِدُنَا وَشِيكاً مُغْرَماً، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ، فَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى، وَعَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ.

فَكِدْ كَيْدَكَ، وَاسْعَ سَعْيَكَ، وَنَاصِبْ جَهْدَكَ، فَوَاللهِ لَا تَمْحُوَنَّ ذِكْرَنَا، وَلَا تُمِيتُ وَحْيَنَا، وَلَا تُدْرِكُ أَمَدَنَا، وَلَا تَرْحَضُ عَنْكَ عَارَهَا.

وَهَلْ رَأْيُكَ إِلَّا فَنَداً، وَأَيَّامُكَ إِلَّا عَدَداً، وَجَمْعُكَ إِلَّا بَدَداً، يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ: أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.

فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَتَمَ لِأَوَّلِنَا بِالسَّعَادَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَلِآخِرِنَا بِالشَّهَادَةِ وَالرَّحْمَةِ.

وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُكْمِلَ لَهُمُ الثَّوَابَ، وَيُوجِبَ لَهُمُ الْمَزِيدَ، وَيُحْسِنَ

---

(١) تنطف: أي تستوفي من دمائنا.

(٢) العواسل: جمع عاسل، وهو الذئب.

(٣) الفراعل: جمع فرعل، وهو ولد الضبع.

عَلَيْنَا الْخِلَافَةَ. إِنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل(١).

وهذا الخطاب من منمّمات النهضة الحسينية ، ومن روائع الخطب الثورية في الإسلام ، فقد دمّرت فيه عقيلة بني هاشم وفخر النساء جبروت الأُموي الظالم يزيد ، وألحقت به وبمن مكّنه من رقاب المسلمين العار والخزي ، وعرّفته عظمة الأُسرة النبوية التي لا تنحني جباهها أمام الطغاة والظالمين ، وعلّق الإمام الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء على هذا الخطاب بقوله :

أتستطيع ريشة أعظم مصوّر ، وأبدع ممثل أن يمثّل لك حال يزيد وشموخه بأنفه ، وزهوه بعطفه وسروره وجذله باتّساق الأُمور ، وانتظام الملك ولذّة الفتح والظفر والتشفّي والانتقام بأحسن من ذلك التصوير والتمثيل ، وهل في القدرة والإمكان لأحد أن يدفع خصمه بالحجّة والبيان والتقريع والتأنيب ، ويبلغ ما بلغته سلام الله عليها بتلك الكلمات ، وهي على الحال الذي عرفت ، ثمّ لم تقتنع منه بذلك ، حتى أرادت أن تمثّل له وللحاضرين عنده ذلّة الباطل ، وعزّة الحق وعدم الإكتراث واللامبالاة بالقوة والسلطة والهيبة والرهبة ، أرادت أن تعرّفه خسّة طبعه ، وضعة مقداره ، وشناعة فعله ، ولؤم فرعه وأصله(٢).

ويقول المرحوم الفكيكي :

تأمّل معي في هذه الخطبة النارية كيف جمعت بين فنون البلاغة ، وأساليب الفصاحة ، وبراعة البيان ، وبين معاني الحماسة ، وقوة الاحتجاج ، وحجّة المعارضة ، والدفاع في سبيل الحرية والحقّ والعقيدة ، بصراحة هي أنفذ من السيوف إلى أعماق القلوب ، وأحدّ من وقع الأسنة في الحشا ، والمهج في مواطن القتال ، ومجالات النزال ، وكان الوثوب على أنياب الأفاعي ، وركوب أطراف

---

(١) أعلام النساء ٢ : ٥٠٤ . بلاغات النساء : ٢١ . حياة الإمام الحسين عليه‌السلام ٣ : ٣٧٨ ـ ٣٨٠ .

(٢) السياسة الحسينية : ٣٠ .

الرماح أهون على يزيد من سماع هذا الاحتجاج الصارخ الذي صرخت بـه ربـيبة المجد والشرف في وجوه طواغيت بني أُميّة وفراعنتهم في منازل عزّهم ومجالس دولتهم الهرقلية الارستقراطية الكريهة ، ثمّ أنّ هذه الخطبة التأريخية القاصعة لا تزال تنطق ببطولات الحوراء الخالدة وجرأتـها النـادرة ، وقـد احـتوت النـفس القـوية الحساسة الشاعرة بالمثالية الأخلاقية الرفيعة السامية ، وسيبقى هذا الأدب الحيّ صارخاً في وجوه الطغاة الظالمين على مدى الدهر وتعاقب الأجيال وفي كل ذكرى لواقعة الطفّ الدامية المفجعة(١) .

محتويات الخطاب :

وحلّلنا محتويات خطاب العقيلة في كتابنا (حياة الإمام الحسين) ، وننقله لما فيه من مزيد الفائدة ، وهذا نصّه : وكان هذا الخطاب العظيم امـتداداً لثـورة كـربلاء ، وتجسيداً رائعاً لقيمها الكريمة وأهدافها السـامية ، وقد حفل بما يلي :

أوّلاً : إنّها دلّلت على غرور الطاغية وطيشه ، فقد حسب أنّه هو المنتصر بما يملك من القوى العسكرية التي ملأت البيداء وسدّت آفاق السماء إلّا أنّـه انـتصار مؤقّت ، ومن طيشه أنّه حسب أنّ ما أحرزه من الانتصار كان لكرامته عند الله تعالى وهوان لأهل البيت ، ولم يعلم أنّ الله إنّما يملي للكافرين في الدنيا من النعم ليزدادوا إثماً ولهم في الآخرة عذاب أليم .

ثانياً : إنّها نعت عليه سببه لعقائل الوحي ، فلم يرع فيهم قـرابـتهم لرسـول الله ﷺ ، وهو الذي منّ عليهم يوم فتح مكة ، فكان أبوه وجدّه من الطلقاء ، فلم يشكر للنبيّ هذه اليد ، وكافئه بأسوء ما تكون المكافئة .

ثالثاً : أنّ ما اقترفه الطاغية من سفكه لدماء العترة الطاهرة ، فإنّه مدفوع بذلك

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٨١ .

بحكم نشأته ومواريثه ، فجدّته هند هي التي لاكت كبد سيّدالشهداء حمزة ، وجدّه أبوسفيان العدوّ الأوّل للإسلام ، وأبوه معاوية الذي أراق دماء المسلمين وانتهك جميع ما حرمه الله ، فاقتراف الجرائم من عناصره وطباعه التي فطر عليها .

رابعاً: إنّها أنكرت عليه ما تمثّل به من الشعر الذي تمنّى فيه حضور شيوخه الكفرة من الأمويّين ليروا كيف أخذ بثأرهم من النبيّ ﷺ بإبادته لأبنائه ، إلّا أنّه سوف يرد موردهم من الخلود في نار جهنم .

خامساً: إنّ الطاغية بسفكه لدماء العترة الطاهرة لم يسفك إلّا دمه ، ولم يفرِ إلّا جلده ، فإنّ تلك النفوس الزكية حيّة وخالدة ، وقد تلفّعت بالكرامة ، وبلغت قمّة الشرف ، وأنّه هو الذي باء بالخزي والخسران .

سادساً: إنّما عرضت إلى من مكّن الطاغية من رقاب المسلمين ، فهو المسؤول عمّا اقترفه من الجرائم والموبقات ، وقد قصدت سلام الله عليها مغزى بعيداً يفهمه كل من تأمّل فيه .

سابعاً: أنّها أظهرت سموّ مكانتها ، وخطر شأنها ، فقد كلّمت الطاغية بكلام الأمير والحاكم ، فاستهانت به ، واستصغرت قدره ، وتعالت عن حواره ، وترفّعت عن مخاطبته ، ولم تحفل بسلطانه ، لقد كانت العقيلة على ضعفها وما ألمّ بها من المصائب أعظم قوّة وأشدّ بأساً منه .

ثامناً: أنّها عرضت إلى أنّ يزيد مهما بذل من جهد لمحو ذكر أهل البيت عليهم السلام ، فإنّه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً لأنّهم مع الحقّ ، والحقّ لابدّ أن ينتصر ، وفعلاً فقد انتصر الإمام الحسين ، وتحوّلت مأساته إلى مجد لا يبلغه أي إنسان كان ، فأيّ نصر أحقّ بالبقاء وأجدر بالخلود من النصر الذي أحرزه الإمام عليه السلام .

هذا قليل من كثير ممّا جاء في هذه الخطبة التي هي آية من آيات البلاغة والفصاحة ، ومعجزة من معجزات البيان ، وهي إحدى الضربات التي أدّت إلى

انهيار الحكم الأُموي[١] .

جواب يزيد:

ولم يستطع الطاغية الجواب على خطاب العقيلة ، فقد انهار كبرياؤه وغروره وتمثّل ببيت من الشعر وهو :

يَـا صَـيْحَةً تُـحْمَدُ مِـنْ صَـوَائِـحِ   مَـا أَهْـوَنَ الْـمَوْتَ عَـلَى النَّـوَائِـحِ

ولا توجد أيّة مناسبة بين ذلك الخطاب الثوري الذي أبرزت فيه عقيلة الوحي واقع يزيد وجرّدته من جميع القيم والمبادئ الإنسانية ، وبين هذا البيت من الشعر الذي حكى أنّ الصيحة تحمد من الصوائح ، وأنّ النوح يهون على النائحات ، فأي ربط موضوعي بين الأمرين .

اضطراب الطاغية:

وتلبّدت الأجواء السياسية على الطاغية ، وحار في أمره فقد فضحته العقيلة بخطابها الخالد ، وجرّدته من السلطة الشرعية ، وأخذت الأوساط الشعبية في دمشق تتحدّاه وتنقم عليه جريمته النكراء بإبادته لعترة رسول الله ﷺ ، فأخذ يلتمس له المعاذير ، فقال لأهل الشام :

أتدرون من أين أتى ابن فاطمة ، وما الحامل له على ما فعل ، وما الذي أوقعه فيما وقع ؟

لا .

يزعم أن أباه خير من أبي ، وأُمّه فاطمة بنت رسول الله خير من أُمّي ، وأنّه

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

خير منّي ، وأحقّ بهذا الأمر ، فأمّا قوله : أبوه خير من أبي ، فقد حاجّ أبي أباه إلى الله عزّ وجلّ ، وعلم الناس أيّهما حكم له ، وأمّا قوله : أمّه خير من أمّي ، فلعمري أنّ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، خير من أمي ، وأمّا قوله : جدّه خير من جدّي ، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر وهو يرى أنّ لرسول الله ﷺ فينا عدلاً ، ولا نداً . ولكنّه إنّما أتى من قلّة فقهه ، ولم يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ (١) .

لقد حسب الخبيث أنّ منطق الفضل عند الله تعالى إنّما هو الظفر بالملك والسلطان ، فراح يبني تفوّقه على الإمام بذلك ، ولم يعلم أنّ الله تعالى لا يرى للملك أي قيمة ، فإنّه يهبه للبرّ والفاجر .

لقد تخبّط الطاغية ، وراح يبني مجده الكاذب على تغلّبه وقهره لسبط رسول الله ﷺ ، وقد خاب فكره وضلّ سعيه ، فقد انتصر الإمام في ثورته انتصاراً لم يحرزه أي فاتح على وجه الأرض ، فها هي الدنيا تعجّ بذكره ، وها هو حرمه يطوف به المسلمون كما يطوفون ببيت الله تعالى ، وليس هناك ضريح على وجه الأرض أعزّ ولا أرفع من ضريح أبي الأحرار ، فكان حقّاً هذا هو النصر والفتح .

العقيلة مع الشامي ويزيد :

ونظر شخص من أهل الشام إلى السيّدة الزكية فاطمة بنت الإمام الحسين فقال ليزيد :

هب لي هذه الجارية لتكون خادمة عندي .

وقد ظنّ أنّها من الخوارج فيحق له أن تكون خادمة عنده ، ولمّا سمعت العلوية ذلك ، سرت الرعدة بأوصالها ، وأخذت بثياب عمّتها مستجيرة بها ، فانبرت العقيلة وصاحت بالرجل :

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٢٦ . البقرة : ٢٤٧ .

«كذبت ولؤمت ، ما ذلك لك ، ولا لأميرك . .» .

واستشاط الطاغية غضباً من استهانة العقيلة به وتحدّيها لشأنه ، فقال لها :

كذبت ، إن ذلك لي ، ولو شئت لفعلت .

فنهرته العقيلة ووجّهت له سهاماً من منطقها الفياض قائلة :

«كلّا والله ما جعل لك ذلك ، إلّا أن تخرج من ملّتنا ، وتدين بغير ديننا . .» .

وفقد الطاغية إهابه ، فقد أهانته أمام الطغمة من أهل الشام فصاح بالحوراء :

إيّاي تستقبلين بهذا ، إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك .

ولم تحفل العقيلة بسلطانه ولا بقدرته على البطش والانتقام ، فردّت عليه بثقة :

«بدين الله ودين أبي وجدّي اهتديت أنت وأبوك إن كنت مسلماً . .» .

وأزاحت العقيلة بهذا الكلام الذي هو أشدّ من الصاعقة الستار الذي تستّر به الطاغية من أنّ الإمام الحسين وأهل بيته من الخوارج ، فقد استبان لأهل الشام أنّهم ذرّية رسول الله ، وأنّ يزيداً كاذب بادّعائه .

وصاح الرجس الخبيث بالعقيلة :

كذبت يا عدوّة الله .

ولم تجد العقيلة جواباً تحسم به مهاترات الطاغية ، غير أن قالت :

«أنت أمير مسلّط ، تشتم ظلماً ، وتقهر بسلطانك . .» .

وتهافت غضب الطاغية وأطرق برأسه إلى الأرض ، فأعاد الشامي كلامه إلى يزيد طالباً منه أن تكون بنت رسول الله ﷺ خادمة عنده فصاح به يزيد :

وهب الله لك حتفاً قاضياً [1] .

لقد احتفظت عقيلة الوحي بقواها الذاتية ، وإرادتها الواعية الصلبة التي

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٦٥ .

ورثتها من جدّها الرسول ﷺ ، فقابلت الطاغية بهذا الكلام المشرّف الذي حقّقت به أعظم الانتصار .

يقول بعض الكتاب :

وقد حقّقت زينب سلام الله عليها ـ وهي في ضعفها ـ واستكانتها أوّل نصر حاسم على الطغاة وهم في سلطانهم وقوتهم ، فقد أفحمته المرّة بعد المرّة ، وقد أظهرت للملأ جهله ، كما كشفت عن قلّة فقهه في شؤون الدين ، فإنّ نساء المسلمين لا يصحّ مطلقاً اعتبارهن سبايا ، ومعاملتهن معاملة السبي في الحروب[١] .

وأكبر الظنّ أن كلام الشامي كان فاتحة انتقاد ليزيد ، وبداية لتسرّب الوعي عند الشاميّين ، وآية ذلك أنّه لم يكن الشامي بليداً إلى هذا الحدّ ، فقد كان يكفيه ردّ الحوراء عليه وعلى يزيد ، ومقابلتها ليزيد بالعنف الذي أخرجته من ربقة الإسلام إن استجاب لطلب الشامي ، وهذا ممّا يشعر أنّ طلبه كان مقصوداً لأجل فضح يزيد .

النياحة على الحسين :

وطلبن عقائل الوحي من الطاغية أن يفرد لهن بيتاً ليقمن فيه مأتماً على سيّد الشهداء ، فقد نخر الحزن قلوبهن ، فلم يكن بالمستطاع أن يبدين ما ألمّ بهنّ من عظيم الأسى خوفاً من الجلاوزة الجفاة الذين جهدوا على منعهن من البكاء على أبي عبدالله ، يقول الإمام زين العابدين : كلّما دمعت عين واحد منّا قرعوا رأسه بالرمح ، واستجاب يزيد لذلك ، فأفرد لهن بيتاً ، فلم تبق هاشمية ولا قرشية إلّا لبسن السواد حزناً على الحسين ، وخلدن بنات الرسالة إلى النياحة سبعة أيام ، وهنّ يندبن سيّد الشهداء عليه السلام بأقسى ما تكون الندبة ، وينحن على الكواكب من نجم آل عبدالمطلب ،

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٩٠ .

وقد اهتزت الأرض من كثرة نياحهن وبكائهن[١] .

ويهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض ما عـانته سـيدة النسـاء زيـنب عليها السلام مـن المصائب في دمشق .

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٣٩٢ .

إلى يثرب

ولم تمكث سبايا أهل البيت زمناً كثيراً في دمشق ، فقد خشي الطاغية من وقوع الفتنة ووقوع ما لا تحمد عقباه ، فقد أحدث خطاب العقيلة زينب وخطاب الإمام زين العابدين عليه السلام انقلاباً فكرياً في جميع الأوساط الشعبية والأندية العامة ، وأخذ الناس يتحدّثون عن زيف وكذب الدعاية الأموية من أنّ السبايا من الخوارج ، وإنّما هم من صميم الأسرة النبوية ، وقد جوبه يزيد بالنقد حتى في مجلسه ، ونقم عليه القريب والبعيد ، وقد رأى الطاغية أن يسرع في ترحيل مخدرات الرسالة إلى يثرب ليتخلّص ممّا هو فيه ، وقبل ترحيلهم أمر بانطاع من الأبريسم ففرشت في مجلسه ، وصبّ عليها أموالاً كثيرة ، وقدّمها لآل البيت لتكون دية لقتلاهم وعوضاً لأموالهم التي نهبت في كربلاء ، وقال لهم :

خذوا هذا المال عوض ما أصابكم .

والتاعت مخدرات الرسالة ، فانبرت إليه العقيلة أمّ كلثوم ـ وأكبر الظن ـ أنّها زينب ، فصاحت به :

« ما أقل حياءك وأصلف وجهك ، تقتل أخي وأهل بيتي وتعطيني عوضهم » .

وقالت السيّدة سكينة :

« والله ما رأيت أقسى قلباً من يزيد ، ولا رأيت كافراً ولا مشركاً شرّاً منه ،

ولا أجفا منه . . »[١] .

وباء الطاغية بالفشل ، فقد حسب أنّ أهل البيت تغريهم المادة ، ولم يعلم أنّهم من صنائع الله ، فقد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

السفر إلى يثرب :

وعهد الطاغية إلى النعمان بن بشير أن يصحب ودائع رسول الله ﷺ إلى يثرب ويقوم برعايتهن[٢] .

كما أمر بإخراجهنّ ليلاً من دمشق خوفاً من الفتنة ، واضطراب الرأي العام[٣] .

وصول النبأ إلى يثرب :

وانتهى نبأ الكارثة الكبرى بمقتل سبط الرسول ﷺ إلى يثرب قبل وصول السبايا إليها ، وقد حمل النبأ عبدالملك السلمي إليها بأمر من ابن مرجانة ، وقد وافى به عمرو بن سعيد الأشدق حاكم المدينة ، فاهتزّ فرحاً وسروراً ، وقال :

واعية بواعية عثمان[٤] .

وأمر بإذاعة ذلك بين الناس فهرعوا وقد علاهم البكاء نحو الجامع النبوي ،

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٤١٤ .

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ : ٣٠٠ .

(٣) (٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٤١٦ .

وأسرع الأشدق إلى الجامع فاعتلى أعواد المنبر وأظهر أحقاده وسروره بمقتل سبط الرسول ﷺ فقال :

أيّها الناس ، إنّها لدمة بلدمة ، وصدمة بصدمة ، كم خطبة بعد خطبة ، حكمة بالغة فما تغني النذر ، لقد كان يسبنا ونمدحه ، ويقطعنا ونصله ، كعادتنا وعادته ، ولكن كيف نصنع بمن سلّ سيفه علينا يريد قتلنا إلّا أن ندفعه عن أنفسنا . . » .

وقطع عليه عبدالله بن السائب خطابه ، فقال له :

لو كانت فاطمة حيّة ، ورأت رأس الحسين لبكت عليه ، وكان هذا أوّل نقد يجابه به حاكم المدينة ، فصاح به :

نحن أحقّ بفاطمة منك ، أبوها عمّنا ، وزوجها أخونا ، وأُمّها ابنتنا ، ولو كانت فاطمة حيّة لبكت عليه ، وما لامت من قتله[1] .

لقد زعم الأشدق أنّ سيّدة النساء فاطمة عليها السلام لو رأت رأس عزيزها لما لامت قاتله ولباركته ؛ لأن في ذلك دعماً لحكم الأمويّين ، وتشييداً لعروشهم ، وبسطاً لسلطانهم الذي يحمل جميع الاتجاهات الجاهلية .

انّ سيّدة النساء لو كانت حيّة ورأت فلذة كبدها في عرصات كربلاء ، وهو يعاني من الخطوب والكوارث التي لم تجر على أي إنسان منذ خلق الله الأرض ، لذابت نفسها حسرات ، وقد روى عليّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تحشر ابنتي فاطمة يوم القيامة ومعها ثياب مصبوغة بدم ولدها ، فتتعلّق بقائمة من قوائم العرش ، فتقول : يا عدل احكم بيني وبين قاتل ولدي ، فيحكم

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام ـ المقرّم : ٤١٧ .

لابنتي وربّ الجنة »[١] .

ويقول الشاعر :

لابـدّ أن تـرد القـيامة فـاطم	وقميصها بدم الحسين ملطّخ

فجيعة بني هاشم:

وفجع الهاشميون بقتل زعيمهم ، وعلا الصراخ والعويل من بيوتهم ، وخرجت السيّدة زينب بنت عقيل ناشرة شعرها وهي تصيح :

« وا محمداه ، وا حسيناه ، وا اخوتاه ، وا أهيلاه » . وجعلت تخاطب المسلمين قائلة :

مَـاذَا تَـقُولُونَ إِذْ قَـالَ النَّـبِيُّ لَكُـمْ	مَـاذَا فَـعَلْتُمْ وَأَنْـتُمْ آخِـرُ الْأُمَـمِ
بِـعِتْرَتِي وَبِـأَهْلِي بَـعْدَ مُـفْتَقَدِي	مِـنْهُمْ أُسَـارىَ وَمِـنْهُمْ ضُـرِّجُوا بِـدَمِ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائـي إِذْ نَـصَحْتُ لَكُـمْ	أَنْ تَخْلُفُونِي بِسُوءٍ فِـي ذَوِي رَحِـمِي

فأجابها أبو الأسود وهو غارق في البكاء يقول :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وعلاه الجزع وراح يقول :

أقول وزادني حنقاً وغيظاً	أزال الله مـلك بـني زيـاد
وأبعدهم كما بعدوا وخافوا	كما بعدت ثمود وقوم عاد
ولا رجعت ركـائبهم إليـهم	إذا وقـفت يـوم التـناد[٢]

---

(١) الصراط السوي في مناقب آل النبيّ ﷺ : ٩٣ .

(٢) مجمع الزوائد ٩ : ١٩٩ ـ المعجم الكبير ـ الطبراني ١ : ١٤٠ .

مأتم عبدالله بن جعفر :

وأقام عبدالله بن جعفر زوج العقيلة زينب مأتماً على ابن عمّه سيّد شباب أهل الجنة ، وجعل الناس يفدون عليه زرافات ووحداناً ، وهم يعزّونه بمصابه الأليم . وكان عنده بعض مواليه يسمّى أبا السلاسل ، فأراد أن يتقرّب إليه لأنّ عبدالله قد استشهد ولداه مع الإمام الحسين فقال :

ماذا لقينا من الحسين ؟

ولمّا سمع ابن جعفر مقالته حذفه بنعله ، وقال له :

« يابن اللخناء ، تقول ذلك في الحسين . والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل معه ، والله إنّه لما يسخى بنفسي عن ولدي ، ويهونّ عليّ المصاب بهما إنّهما أصيبا مع أخي وابن عمّي مواسين له صابرين معه . . » .

وأقبل على حضار مجلسه فقال لهم :

الحمد لله . لقد عزّ عليّ المصاب بمصرع الحسين أن لا أكون واسيته بنفسي ، فقد واساه ولداي[١] .

رأس الإمام في المدينة :

وأرسل الطاغية يزيد رأس ريحانة رسول الله وسيّد شباب أهل الجنة إلى المدينة المنوّرة لإشاعة الرعب والخوف ، والقضاء على كل حركة ضدّه ، وجيء بالرأس الشريف إلى عمرو بن سعيد الأشدق حاكم المدينة ، فأنكر ذلك وقال :

وددت والله أن أمير المؤمنين لم يبعث إلينا برأسه .

وكان في مجلسه الوزغ ابن الوزغ مروان بن الحكم فهزأ منه وقال :

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٥٧ .

بئس ما قلت : هاته .

وأخذ مروان رأس الإمام وهو جذلان مسرور ، وجعل يهزّ أعطافه بشراً وسروراً ويقول بشماتة :

يا حبذا بردك في اليدين ولونك الأزهر في الخدين

وجيء برأس الإمام فنصب في جامع الرسول ﷺ ، وهرعن نساء آل أبي طالب إلى القبر الشريف بلوعة وبكاء ، فقال مروان :

عجت نساء بني زبيد عجةً كعجيجِ نِسوتنا غَداةَ الأرنبِ

وجعل مروان يبدي سروره ، وهو يقول :

والله لكأنّي أنظر إلى أيام عثمان . .[1] .

ثمّ التفت إلى قبر النبيّ ﷺ فخاطبه :

يا محمّد ، يوم بيوم بدر . .[2] .

لقد ظهرت الأحقاد الأُموية بهذا الشكل الذي ينمّ عن جاهليّتهم وكفرهم ، وأنّهم لم يؤمنوا بالإسلام طرفة عين .

السبايا في كربلاء :

وطلبت سبايا أهل البيت من الوفد الموكّل بحراستهم أن يعرّج بهم إلى كربلاء ليجدّدوا عهداً بقبر سيد الشهداء ، ولبّى الوفد طلبتهم فانعطفوا بهم إلى كربلاء ، وحينما انتهوا إليها استقبلن السيّدات قبر الإمام أبي عبدالله بالصراخ والعويل ، وسالت الدموع منهن كل مسيل ، وقضين ثلاثة أيام في كربلاء ، ولم تهدأ لهن عبرة

---

(١) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ٥ : ١٠١ .

(٢) شرح النهج ٤ : ٧٢ .

حتى بحّت أصواتهن وتفتّت قلوبهن ، وخاف الإمام زين العابدين عليه السلام على عمّته زينب وباقي العلويات من الهلاك ، فأمرهن بالسفر إلى يثرب ، فغادرن كربلاء بين صراخ وعويل[1] .

إلى يثرب :

واتّجه موكب أسارى أهل البيت إلى يثرب ، وأخذ يجدّ في السير لا يلوي على شيء ، وقد غامت عيون بنات رسول الله صلى الله عليه وآله بالدموع وهن ينجبنّ ويندبنّ قتلاهنّ ويذكرن بمزيد من اللوعة ما جرى عليهن من الذلّ ، وكانت يثرب قبل قدوم السبايا إليها ترفل في ثياب الحزن على أمّ المؤمنين السيّدة أمّ سلمة زوجة النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقد توفّيت بعد قتل الحسين عليه السلام بشهر كمداً وحزناً عليه[2] .

نعي بشر للإمام :

ولمّا وصل الإمام زين العابدين عليه السلام بالقرب من المدينة نزل وضرب فسطاطه ، وأنزل العلويات ، وكان معه بشر بن حذلم فقال له :

« **يٰا بِشْرُ ، رَحِمَ اللهُ أَبَاكَ لَقَدْ كَانَ شَاعِراً ، فَهَلْ تَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ مِنْهُ ؟** » .

بلى يابن رسول الله .

« **فَادْخُلِ الْمَدِينَةَ وَانْعَ أَبَا عَبْدِ اللهِ . .** » .

وانطلق بشر إلى المدينة ، فلمّا انتهى إلى الجامع النبوي رفع صوته مشفوعاً بالبكاء قائلاً :

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٤٢٢ .

(٢) اللهوف : ١١٦ .

يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ بِهَا ... قُتِلَ الْحُسَيْنُ فَأَدْمُعِي مِدْرَارُ
أَلْـجِسْمُ مِنْهُ بِكَرْبَلاَءَ مُضَرَّجٌ ... وَالرَّأْسُ مِنْهُ عَلَى الْقَنَاةِ يُدَارُ

وهرعت الجماهير نحو الجامع النبوي وهي ما بين نائح وصائح تنتظر من بشر المزيد من الأنباء ، وأحاطوا به قائلين :

ما النبأ ؟

هذا عليّ بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم ، وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه..

وعجّت الجماهير بالبكاء ، ومضوا مسرعين لاستقبال آل رسول الله ﷺ الذي برَّ بدينهم ودنياهم ، وساد البكاء وارتفعت أصوات النساء بالعويل وأحطنّ بالعلويات ، كما أحاط الرجال بالإمام زين العابدين وهم غارقون بالبكاء ، فكان ذلك اليوم كاليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ .

خطاب الإمام زين العابدين :

وخطب الإمام زين العابدين عليه السلام خطبة مؤثرة تحدّث فيها عمّا جرى على آل البيت من القتل والتنكيل والسبي والذلّ ، ولم يكن باستطاعة الإمام أن يقوم خطيباً ، فقد أحاطت به الأمراض والآلام ، فاستدعي له بكرسي فجلس عليه ، ثم قال :

« الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، بَارِىءِ الْخَلاَئِقِ أجْمَعِينَ ، الَّذِي بَعُدَ فَارْتَفَعَ فِي السَّمٰوَاتِ الْعُلىٰ ، وَقَرُبَ فَشَهِدَ النَّجْوىَ ، نَحْمَدُهُ عَلىَ عَظَائِمِ الأُمُورِ ، وَفَجَائِعِ الدُّهُورِ ، وَأَلَمِ الْفَوَاجِعِ ، وَمَضَاضَةِ اللَّوَاذِعِ ، وَجَلِيلِ الرُّزْءِ ، وَعَظِيمِ الْمَصَائِبِ الْفَاظِعَةِ الْكَاظَّةِ الْفَادِحَةِ الْجَائِحَةِ .

أَيُّهَا الْقَوْمُ ، إِنَّ اللهَ تَعَالىٰ وَلَهُ الْحَمْدُ ابْتَلَانَا بِمَصَائِبَ جَلِيلَةٍ ، وَثُلْمَةٍ فِي الْإِسْلَامِ عَظِيمَةٍ ، قُتِلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام وَعِتْرَتُهُ ، وَسُبِيَ نِسَاؤُهُ وَصِبْيَتُهُ ، وَدَارُوا بِرَأْسِهِ فِي الْبُلْدَانِ مِنْ فَوْقِ عَامِلِ السِّنَانِ ، وَهَذِهِ الرَّزِيَّةُ الَّتِي لَا مِثْلُهَا رَزِيَّةٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، فَأَيُّ رِجَالَاتٍ مِنكُمْ يُسَرُّونَ بَعْدَ قَتْلِهِ ؟ ! أَمْ أَيُّ فُؤَادٍ لَا يَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِ ، أَمْ أَيَّةُ عَيْنٍ مِنكُمْ تَحْبَسُ دَمْعَهَا وَتَضِنُّ عَنْ انْهِمَالِهَا ؟ !

فَلَقَدْ بَكَتِ السَّبْعُ الشِّدَادُ لِقَتْلِهِ ، وَبَكَتِ الْبِحَارُ بِأَمْوَاجِهَا ، وَالسَّمٰوَاتُ بِأَرْكَانِهَا ، وَالْأَرْضُ بِأَرْجَائِهَا ، وَالْأَشْجَارُ بِأَغْصَانِهَا ، وَالْحِيتَانُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ ، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَأَهْلُ السَّمٰوَاتِ أَجْمَعُونَ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَيُّ قَلْبٍ لَا يَنْصَدِعُ لِقَتْلِهِ ؟ ! أَمْ أَيُّ فُؤَادٍ لَا يَحِنُّ إِلَيْهِ؟ ! أَمْ أَيُّ سَمْعٍ يَسْمَعُ هَذِهِ الثُّلْمَةَ الَّتِي ثُلِمَتْ فِي الْإِسْلَامِ وَلَا يُصَمُّ ؟ !

أَيُّهَا النَّاسُ ، أَصْبَحْنَا مَطْرُودِينَ مُشَرَّدِينَ مَذُودِينَ شَاسِعِينَ عَنِ الْأَمْصَارِ ، كَأَنَّنَا أَوْلَادُ تُرْكٍ أَوْ كَابُلَ ، مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ اجْتَرَمْنَاهُ ، وَلَا مَكْرُوهٍ ارْتَكَبْنَاهُ ، وَلَا ثُلْمَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ثَلَمْنَاهَا ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ، إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ .

وَاللهِ ، لَوْ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ فِي قِتَالِنَا كَمَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ فِي الْوِصَايَةِ بِنَا لَمَا زَادُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا بِنَا ، فَإِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، مِنْ مُصِيبَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَوْجَعَهَا وَأَفْجَعَهَا وَأَكَظَّهَا وَأَفْظَعَهَا وَأَفْدَحَهَا ،

فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُ فِيمَا أَصَابَنَا وَأَبْلَغَ بِنَا ، إِنَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ».

وعرض الإمام في خطابه إلى المحن السود التي عانتها الأُسرة النبوية ، وما جرى عليها من القتل وسبي النساء ، وغير ذلك ممّا تتصدّع من هوله الجبال ، وانبرى إلى الإمام صعصعة فألقى إليه معاذيره في عدم نصرته للحسين فقبل الإمام عذره وترحّم على أبيه .

ثمّ زحف الإمام مع عمّاته واخواته وقد أحاطت به الجماهير وعلت أصواتهم بالبكاء والعويل ، فقصدوا الجامع النبوي ، ولمّا انتهوا إليه أخذت العقيلة بعضادتي باب الجامع ، وأخذت تخاطب جدّها الرسول وتعزيه بمصاب ريحانته قائلة :

« يا جدّاه ، إنّي ناعية إليك أخي الحسين »[١] .

وأقامت العلويات المأتم على سيّد الشهداء ، ولبسن السواد ، وأخذن يندبنه بأقسى وأشجى ما تكون الندبة .

مكافأة الحرس :

وقام الحرس بخدمات ورعاية إلى السيّدات ، فالتفتت السيّدة فاطمة بنت الإمام أمير المؤمنين فقالت للعقيلة زينب : « لقد أحسن هذا الرجل إلينا فهل لك أن نصله بشيء ؟ » .

فأجابتها العقيلة :

« والله ما معنا شيء نصله به إلّا حلينا . . » .

« نعم ، هو ما تقولين » .

---

(١) مقتل الحسين عليه‌السلام ـ المقرّم : ٤٧٢ .

وأخرجن سوارين ودملجين ، وبعثنا بهما إليه واعتذرنا له ، وتأثّر الرجل من هذا الكرم الغامر وهو يعلم ما هن فيه من الضيق والشدة ، فقال لهما باحترام :

لو كان الذي صنعت للدنيا لكان في هذا ما يرضيني ، ولكن والله ما فعلته إلّا لله ولقرابتكم من رسول الله ﷺ [1] .

حزن العقيلة :

وخلدت عقيلة آل أبي طالب إلى البكاء على انقراض أهلها [2] ، وكانت لا تجفّ لها عبرة ، ولا تفتر عن البكاء ، وكانت كلّما نظرت إلى ابن اخيها الإمام زين العابدين يزداد وجيبها وحزنها ، وقد نخب الحزن قلبها الرقيق المعذّب ، حتى صارت كأنّها صورة جثمان فارقته الحياة .

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٣٦٦ . تاريخ ابن الأثير ٣ : ٣٠٠ .

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣ : ٤٢٨ .

إلى جنة المأوى

وخلدت حفيدة الرسول ﷺ ـ في يثرب ـ إلى البكاء والنحيب ، وأخذت تراودها صباحاً ومساءً تلك الذكريات المروعة التي جرت على أخيها في صعيد كربلاء ، وما عاناه من الكوارث القاصمة التي تذوب من هولها الجبال ، فكانت دموعها تجري في كل لحظة على أخيها وأسرتها الذين حصدت رؤوسهم سيوف البغي ، ومثّلت بأجسامهم العصابات المجرمة .

لقد أخذت تلوح أمامها تلك المناظر الحزينة التي تعصف بالصبر حتى ضاقت بها الأرض ، ولم تلبث أن ترفع صوتها عالياً مشفوعاً بالألم والبكاء قائلة :

« واحسيناه » .

« وا أخاه » .

« وا عبّاساه » .

« وا أهل بيتاه » .

« وا مصيبتاه » .

ثمّ تهوي إلى الأرض مغميّ عليها ، وقد صارت شبحاً ، وذوت كما ذوت أُمها زهرّاء الرسول من قبل ، وكان أحبّ شيء لها مفارقة الدنيا والالتحاق بجدّها الرسول ﷺ لتشكو إليه ما عانته من الرزايا والأسر والسبي ، وما جرى على أخيها

من القتل والتمثيل . . . ونتحدّث بإيجاز عن وفاتها ، وما قيل في زمانه ، والمكان الذي حضي بمرقدها .

إلى جنة المأوى :

ولم تمكث العقيلة بعد كارثة كربلاء إلّا زمناً قليلاً حتى تناهبت الأمراض جسمها ، وصارت شبحاً لا تقوى حتى على الكلام ، ولازمت الفراش وهي تعاني آلام المرض ، وما هو أشقّ منه وهو ما جرى عليها من الرزايا ، وكانت ماثلة أمامها حتى الساعات الأخيرة من حياتها . . . وقد وافتها المنية ولسانها يلهج بذكر الله وتلاوة كتابه ، وقد صعدت روحها الطاهرة إلى السماء كأسمى روح صعدت إلى الله تحفّها ملائكة الرحمن ، وتستقبلها أنبياء الله وهي ترفع إلى الله شكواها ، وما لاقته من المحن والخطوب التي لم تجر على أيّ إنسان منذ خلق الله الأرض .

الزمان :

انتقلت العقيلة إلى جوار الله تعالى على أرجح الأقوال يوم الأحد لخمسة عشر مضين من شهر رجب سنة (٦٢هـ)[١] ، وقد آن لقلبها الذي مزّقته الكوارث أن يسكن ولجسمها المعذّب أن يستريح .

الأقوال في مرقدها :

واختلف المؤرخون في البقعة التي حظيت بجثمانها المعظم وهذه بعض الأقوال :

---

(١) السيّدة زينب وأخبار الزينبيات ـ العبيدلي : ٩ .

١ ـ في البقيع:

وذهب بعض المؤرخين إلى أنّها توفّيت في يثرب ، ودفنت في بقيع الغرقد ، ويواجه هذا القول إنّها لو دفنت هناك لكان لها مرقد خاص ، كما هو الحال في غيرها من السادة المعظمين من أبناء الأُسرة النبوية ، ومن المحتمل أنّها أوصت أن تدفن في غلس الليل البهيم ، ويعفى موضع قبرها تأسّياً بأُمّها زهراء الرسول ﷺ .

٢ ـ في الشام :

وأفاد فريق من المؤرخين أنّها توفّيت في إحدى قرى الشام ، ويعزو بعضهم سبب سفرها إلى الشام أنّه حدثت في يثرب مجاعة عظيمة ، فهرب منها عبدالله بن جعفر مصاحباً معه زوجته العقيلة وسائر عائلته ، ولمّا انتهت العقيلة إلى ذلك المكان توفّيت فيه ، وحدوث المجاعة فيما نعتقد لا أساس له من الصحة ؛ لأنّ المؤرخين والرواة لم يذكروا أنّه حدثت مجاعة في يثرب في ذلك الوقت ، مضافاً إلى أن عبدالله بن جعفر كان من الأثرياء المعدودين في المدينة ، فهل ضاق نطاقه عن إعاشة عائلته حتى يذهب إلى الشام ؟ كما أنّه كان من أندى الناس كفّاً ، ومن أكثرهم إسعافاً وعطاءً إلى الفقراء والبؤساء ، فكيف يتركهم ينهشهم الجوع وينهزم إلى الشام التي هي مقرّ السلطة الأُموية التي نكبته بسيّد أُسرته وابن عمّه الإمام الحسين عليه السلام وبولديه وغيرهما من أبناء الأُسرة النبوية .

وعلى أي حال ، فإنّ المشهور في الأوساط الإسلامية أنّ قبر العقيلة في الشام حيث هو قائم الآن ، وقد أُحيط بهالة من التقديس والتعظيم ، وتؤمّه الملايين من الزائرين متبرّكين ومتوسّلين به إلى الله تعالى ، شأنه شأن مرقد أخيها أبي الأحرار عليه السلام الذي صار أعزّ مرقد في الأرض ، والذي نذهب إليه هو أنّ قبرها الشريف في الشام وإليه ذهب الكثيرون من المحقّقين .

٣-في مصر:

وذهب جمهرة من المؤرخين إلى أنّ قبر الصدّيقة الطاهرة زينب عليها السلام في مصر، وهذا هو المشهور عند كافّة المصريين. ولابدّ لنا من وقفة قصيرة للحديث عن سبب هجرتها لمصر، وما يتعلّق بمرقدها المعظّم.

سبب هجرتها لمصر: وذكر المؤرخون أنّ العقيلة أخذت تلهب العواطف، وتستنهض المسلمين للأخذ بثأر أخيها، والانتفاض على السلطة الأموية، والتي كان من نتائجها أنّ المدينة أخذت تغلي كالمرجل، وأعلنت العصيان المسلح على حكم الطاغية يزيد، فأرسل إليها جيشاً مكثّفاً بقيادة الإرهابي المجرم مسلم بن عقبة، فأنزل بالمدنيّين أقصى العقوبات، وأكثرها صرامة وقسوة، وأرغمهم على أنّهم خول وعبيد ليزيد، ومن أبى منهم نفّذ فيه حكم الإعدام.

وعلى أي حال فإنّ عمر بن سعيد الأشدق والي يثرب خشي من العقيلة، وكتب إلى يزيد بخطرها عليه، فأمره بإخراجها من المدينة إلى أي بلد شاءت، فامتنعت، وقالت:

«قتل - أي يزيد - خيرنا، وساقنا كما تساق الأنعام، وحملنا على الأقتاب، فوالله لا أخرج، وإن أهرقت دماؤنا».

وانبرت إليها السيّدة زينب بنت عقيل، فكلّمتها بلطف قائلة:

يا بنت عمّاه، قد صدقنا الله وعده، وأورثنا الأرض نتبوّء منها حيث نشاء، فطيبي نفساً، وقرّي عيناً، وسيجزي الله الظالمين، أتريدين بعد هذا هواناً، ارحلي إلى بلد آمن.

واجتمعن السيّدات من نساء بني هاشم، وتلطّفن معها في الكلام فأجابت، واختارت الهجرة إلى مصر، وصحبنها في السفر السيّدة فاطمة بنت الإمام الحسين

وأختها سكينة ، وانتهت إلى مصر لأيام بقيت من ذي الحجّة ، وقد استقبلها والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ، فأنزلها في داره بالحمراء فأقامت فيه أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ، وانتقلت إلى جوار الله عشية يوم الأحد لخمسة عشر يوماً مضت من رجب سنة (٦٢هـ) ودفنت في دار مسلمة حيث مرقدها الآن في مصر ، هكذا ذكر العبيدلي[1] وغيره[2] .

زيارة المرقد:

ويؤمّ المصريون وغيرهم من المسلمين المرقد المعظّم خصوصاً في يوم الأحد المصادف لليوم الذي توفّيت فيه العقيلة ، فإنهم يزدحمون على زيارته بما فيهم من العلماء والفقهاء ، وقد زارها في هذا اليوم كافور الأخشيدي ، وأحمد بن طولون ، والظافر بنصر الله الفاطمي ، وكان يأتي حاسر الرأس مترجّلاً ويتصدّق عند القبر الشريف على الفقراء ، واقتدى به ملوك مصر وأمراؤها .

وإذا حلّ شهر رجب ، وهو الشهر الذي توفّيت فيه العقيلة ، زحفت الجماهير إلى المرقد المعظّم ، ويقيم الكثيرون فيه إلى النصف من رجب ، وهم يتلون كتاب الله ، والأدعية الشريفة ، وقد ذكر ذلك العبيدلي[3] .

عمارة المرقد:

وأُجريت على المرقد المعظّم في مصر عدة عمارات وإصلاحات من قبل بعض

---

(١) السيّدة زينب وأخبار الزينبيات : ٢١ .

(٢) إسعاف الراغبين : ١٩٦ . لواقح الأنوار ـ الشمراني : ٢٣ . الاتحاف بحبّ الأشراف : ٩٣ . مشارق الأنوار : ١٠٠ .

(٣) السيّدة زينب وأخبار الزينبيات : ٦٠ ـ ٦١ .

المحسنين من ملوك ووزراء وغيرهم ،كان منهم ما يلي :

١ ـ أمير مصر ، ونقيب الأشراف الزينبيّين ، الشريف فخر الدين ثعلب الجعفري الزينبي ، فقد أشاد عمارة مهمّة على المرقد الشريف .

٢ ـ الأمير علي باشا الوزير ، والي مصر من قبل السلطان سليمان خان ، فقد شيّد المرقد وأضاف إليه مسجداً يتّصل به وذلك في سنة (٩٥٦هـ) .

٣ ـ الأمير عبدالرحمن كتخدا ، فقد عمّر المرقد ، وأنشأ به ساقية وحوضاً وذلك في سنة (١١٧٤هـ) .

٤ ـ وفي سنة (١٢١٢هـ) ظهر صدع في بعض حوائط المسجد فندبت حكومة عثمان المرادي لتجديده وإنشائه فابتدأ العمل إلّا أنّه توقّف لدخول الفرنسيّين لمصر ، وأكمله بعد ذلك الوزير يوسف باشا ، وذلك في سنة (١٣٢٦هـ) ، وأرخ ذلك بأبيات خطّت على لوح من الرخام وهي :

نور بنت النبي زينب يعلو ... مسجداً فيه قبرها والمزار

قد بناه الوزير صدرالمعالي ... يوسف وهو للعلى مختار

زاد جلاله كما قلت : ومسجد ... مشرق به أنوار

وحالت دون إتمام عمارته بعض الموانع فأكمله محمّد علي باشا الكبير جدّ الأُسرة العلوية .

٥ ـ سعيد باشا ، أمر بتجديد الوجهة الغربية والبحرية من الضريح ، وذلك في سنة (١٢٧٦هـ) وبعد تمام العمارة كتب على لوح من الرخام التأريخ وهذا نصّه :

في ظلّ أيام السعيد محمّد ... ربّ الفخار مليك مصر الأفخم

من فائض الأوقاف أتحف زينباً ... عون الورى بنت النبيّ الأكرم

من يأت ينوي للوضوء مؤرخاً ... ويسعد فإنّ وضوءه من زمزم

وكتب على باب المقام هذا البيت :

يا زائريها قفوا بالباب وابتهلوا   بنت الرسول لهذا القطر مصباح

وليست العقيلة مصباحاً وشرفاً لمصر ، وإنّما هي فخر ونور لجميع أقاليم العالم الإسلامي .

٦ ـ الخديوي محمّد توفيق باشا ، جدّد الباب المقابل لباب القبّة ، جدّده بالمرمر المصري والتركي وذلك في سنة (١٢٩٤هـ) ، وفي سنة (١٢٩٧هـ) أمر بتجديد القبّة والمسجد والمنارة ، وتمّ البناء في سنة (١٣٠٢هـ) ، وكتب على أبواب القبّة الشريفة هذه الأبيات :

باب الشفاعة عند قبة زينب   يلقاه غاد للمقام ورائح
من يمن توفيق العزيز مؤرخ   نور على باب الشفاعة لائح

كما كتبت هذه الأبيات :

قف توسّل بباب بنت عليّ   بخضوع وسل إله السماء
تحظ بالعزّ والقبول وارخ   باب أُخت الحسين باب العلاء

كما رسمت هذه الأبيات :

رفعوا لزينب بنت طه قبّة   علياء محكمة البناء مشيّدة
نور القبول يقول في تأريخها   باب الرضا والعدل باب السيّدة

وفي هذا التأريخ نقشت القبّة والمشهد بنقوش رائعة وبديعة ، وكان ذلك بأمر محمّد توفيق ، وبهذا ينتهي بنا الحديث عن المرقد المعظم في مصر[1] .

---

(١) زينب الكبرى : ١٢٥ ـ ١٢٦ .

ويتشرف ويسمو كل قطر أُقيم فيه لسيّدة النساء العقيلة زينب مرقد أو مقام ، فهي بحكم مواريثها وصفاتها أفضل سيّدة خلقها الله بعد أُمّها زهراء الرسول ، وبهذا تنطوي الصفحات الأخيرة من هذا الكتاب .

محتويـات الكتـاب

تقديـم ٧ ـ ١٨

النسب الوضاح ١٩ ـ ٣٧

ولادتهـا و نشأتهـا ٣٩ ـ ٥٣

عناصرها النفسية ٥٥ ـ ٦٤

أحداث مروّعة ٦٥ ـ ٨٥

في عهد الخلفاء ٨٧ ـ ١٣٤

التمرّد على حكومة الإمام ١٣٥ ـ ١٧٢

حكومة معاوية ١٧٣ ـ ١٨٣

الحكم الأسود ١٨٥ ـ ١٩٢

إلى مكـة ١٩٣ ـ ٢١٩

إلى العـراق ٢٢١ ـ ٢٣٥

في كربلاء ٢٣٧ ـ ٢٤٠

المأساة الخالدة ٢٤١ ـ ٢٧٥

سبايا آل البيت في الكوفة ٢٧٧ ـ ٢٩٢

سبايا آل النبي في دمشق ٢٩٣ ـ ٣١١

إلى يثرب ٣١٣ ـ ٣٢٣

إلى جنة المأوى ٣٢٥ ـ ٣٣٢

الفهرست ٣٣٣ ـ ٣٤٤